الافتتاحية

المعمار اميل العكرا
رئيس هيئة المعماريين العرب

عندما يمرّ البجع فوق المدينة التي ولّدتني كنّا، أولاد الحي العتيق المشرف على أحد أقدم موانىء العالم، نتابعه ورؤوسنا ملتفة إلى السماء، نتابعه يتهادى أفراده في طيران فخم واثق وهادف: أنّها طيور العابور، تعبر سماءنا متّجهة أواخر أيلول نحو بلاد الدفء وراجعة أوائل نيسان نحو بلاد البرود. خلف السرب وعلى أديم السماء الأزرق ترسم الغيوم البيض لوحات متحرِّكة تتغيَّر على إيقاع الهواء المنساب تيّارات متعدِّدة الاتّجاهات، تجعل اللوحات المتحرِّكة تحاكي روعة القصص المتسلسلة التي كان يرويها لنا الصيّاد سليم على سطح الأقبية التي كنّا نسكنها حول شويرع البوّابة الجديدة في ليالي الصيف المقمرة... قبل الغروب يخفف السرب سرعته ويبدأ طيراناً دائرياً بطيئاً يقترب رويداً من قبّة جرس الكنيسة ومن مئذنة مسجد ساحة القلعة: كنيسة القرن الثاني عشر ومسجد القرن السابع عشر يتجاوران بنبلٍ وباحترام.

قبّة الجرس والمئذنة هما العنصران المعماريان الوحيدان اللذان يتجاوزان أسطح المدينة المختبئة وراء أسوارها. بين المعلمَين المعماريين المنادين للصلاة وحولهما تنتشر بعضٌ من أشجار الميس والسرو والعفص، تحوم البجعات حول رؤوسها لتحطّ بجلال وثقة، مطمئنة للنوم بأمان، تستريح من مشوار النهار السابق بانتظار مشوار النهار اللاحق؛ أمّا البعض من أشجار النخيل المتناثرة تناثر الرماح المزروعة في الأرض والحاملة البيارق والرايات، فهي الوحيدة التي تتجرّأ على الارتفاع مقابل قبّة الجرس ومئذنة المسجد... يمضي الليل بهدوء ساحر يقطعه بانتظام صوت المؤذّن الرخم وهو يدور في الممشى الضيّق المحيط بقمّة المأذنة حتى يوزِّع دعوته للصلاة بالتساوي على كافة أحياء المدينة الصغيرة.

كان صوت الليل ذي مدى، وكانت نجوم سماءنا تتلألأ أمام أعيننا المندهشة دوماً في حضرة القبّة اللامتناهية تغمرنا من خطّ التلال المتضرِّس شرقاً حتى أفقية البحر الأزرق الكبير غرباً... قبل المغيب تتعالى أصوات صيّادي السمك وهم يتحضّرون ليسرحوا، فتتلألأ في الليل مصابيح سنابكهم الصغيرة بعيداً في البحر، حيث تقطف شباكهم المتواضعة غلّة اليوم التالي... في الصباح وعند الإياب نتوقع حجم الغلة، قبل الرسو، من مناداة بعضهم للآخرين ومن «رندحاتهم» على إيقاع أغانٍ قديمة يستبدلون كلماتها بكلمات تعبّر عن الواقع الذي يعيشون.

منذ ستّين سنة كانت هذه المشاهد تملأ مخيّلتي التي لم تتوقع يوماً أنّ الجنّة التي أعيش فيها سوف تهرم سريعاً وسوف تتحوّل إلى مطهر فرضه التطوّر علينا دون استئذان، وإن فَعَلَ، فبنفاق مبطَّن يدّعي الوقوف على حاجات الناس لكن دون استشارتهم ودون إعلامهم بمضارّ تدخلٍ ما، قبل الإشارة إلى حسناته... مشاهد تدخلني والبعض القليل من رفاق الحي، في نوستالجيا، استنتجت مع الزمن أنّها من جملة عناصر الترياق الذي يساعدنا على تحمّل ثقل الحاضر المغمّ، الرتيب والبارد برودة الجسم المائل صوب الاندثار... وهج أنوار المدينة الفاقعة في الليل يمحو رهافة نور النجوم وشاعرية نور القمر؛ وزعيق موسيقى المطاعم وعلب الليل تخرس الهدوء الخاشع، وأكاد أقول تشتمه. مرّ الطريق السريع (الأوتوستراد) في وسط المدينة فشقها، وراح شطراها يحاولان استعادة وحدة عيش تحطّمت: سكنٌ ينمو بسرعة عشوائية شرق الجرح البليغ، وعملٌ محدودٌ وفوضوي غربه.

بارقــة سعيــدة واحدة تمثلــت بالحفاظ على المدينــة القديمة... مدينــة القرون الوسطى تعيش داخــل أسوارها بخفر سكانها من جهــة وبوقاحة «المطعمجية» من جهة أخرى: لقد احتلوا ساحاتها الشاعرية وشوارعها الساحرة الضيّقة، وأزقّتها الغامضة المظللة بالدفــل والياسمين... هجّر القيّمون على الشــأن العام صيّاديها مــن منازلهم التي كانت تزيّن ضفتَي الشــارع الرابط بين ساحة القلعــة والميناء... تحوّل ميناء الصيّادين فيها إلى مربط لزوارق لا تصطــاد سوى بعض السيّاح والــزوّار لنزهة سريعــة غبيّة لا تجيــب على ســؤال ولا تشبع نهم مستفسر. صيــد السمك أصبح كالآثــار: خبرٌ وكلامٌ عن أيّــام كان هذا الإنتاج واحداً من أسباب حياة المدينة الصغيرة.

لا صيــد ولا صيّادين، بل خدم عند «المطعمجية» وعند السيّاح... خدمــات، خدمــات، خدمــات... ولّى كِبَر المنتجــين وحضــرت دونيــة الخدم. صَمُــتَ الصيّادون وانتهى دورهــم؛ أتى دور خدم المواقــف (Valley Parking) وموظّفي شــركات الأمن الخاص (Security)... حوّل البجــع مساره خوفاً من نارٍ غزيرة أطلقها عليه صيّادو النصف الأخير من القرن الماضي.

نمــت المدينة الحديثة منذ الثلــث الأول من القرن الماضي باتّزان النمــوّ الطبيعي، وبدأت منذ خمسينياتــه تتحوّل بأسرع ممّا كان ضمــن المنطق المتوازن نفسه، دون أن يدري القيّمون على إدارتها أنّ المستقبــل القريب ينذر بالأسوأ، وبأنّ الحكمة تقتضي، تداركاً لفوضى مرتقبة، النظر في قواعد هــذا النموّ والتخطيط لإدارته وتوجيهــه نحو الحفاظ علــى حياة مدينية سليمــة تؤمّن حاجات السكان المادية كما والمعنوية والروحية... في غياب هذا التخطيط نمت المدينة الحديثة فوضوياً.

وكمــا القاعدة في مثل هذه الحالات، ســاءت نوعية الحياة فيها، وظلّت تتفاقم حتى السنوات العشر الأخيرة حيث وصلت الفوضى إلى حــد أنّه لم يعد هناك مكان فيها لسير المشاة، ولم يعد هناك أمكنــة لركــن السيّــارات... تحوّلــت المدينة إلى موقــف لصالح محتكــري إدارة المواقف على مدى اليــوم بأكمله، وتحوّلت أزقتها الضيّقــة وشوارعها الصغــيرة الجميلة إلى طــاولات وكراسي لا تسمــح في أكــثر الأحيان للمشــاة بالمرور وللمتنزّهــين بالتنزّه... قليــلٌ مــن كثير يجعلنــي في كثيرٍ مــن الأحيــان أشعــر، ببساطة الســكان والمواطنين، لا بحرفية المهنيــين والعارفين، بأنّ الأمر لم يعد يطاق؛ وأتطلع كغيري على مَن تقع مسؤولية هذا التردّي؟... تقع المسؤولية طبعاً على القيّمين على الشأن العام.

إنّما الناس... أين هم؟ ...

إنّما المهنيّــون والعارفــون والمختصّون ولا سيّمــا المؤسّسات التي ينتظمون فيها أنظمةً أم نقابات... أين هي؟...

أين أنظمة المعماريين و المهندسين؟

أين أنظمة المهن الحرّة؟

أين نقابات المهن الأخرى والموظفين؟

أين الأندية الثقافية والاجتماعية والسياسية، (الأخيرة ممنوعة من الوجود)؟

أين المفكرون والفنّانون والمثقفون؟

قــد يجيب أحدنا أنّ غياب الثقافة العامــة هو السبب وأنّ إنعدام الثقافــة المعمارية خاصــةً هو من الأسباب المهمّــة؛ وهذا صحيح ممّــا لا شــكّ فيه لأنّ مدارســنا لم تعد تعلّم سوى مــا يكفي لنيل الشهــادة. يبقى أنّ السؤال الأمضى في هذا المجال هو: ألا تتحمّل مؤسّسات تعليم العمارة في كلّ كيانٍ من كياناتنا المسؤولية الأكبر في هذا الأمر؟ يكمن الجواب حكماً في متن السؤال.

جبيل في 13 تشرين الأول/أكتوبر 2014

نشاطات | هيئة المعماريين العرب

اجتماع اللجنة التنفيذية ـ تونس في 2013/12/7

عقدت اللجنة التنفيذية اجتماعها بتاريخ 2013/12/7 في المدرسة الوطنية للعمارة والتعمير في جامعة قرطاج ـ تونس، بحضور كل من رئيس الهيئة المعمار اميل العكرا ونائب رئيس الهيئة خالد زعبلاوي والدكتور هشام فتحي والمعمارعاهد بسيسو، بالإضافة الى الأمين العام للإتحاد الدكتور عادل الحديثي، حيث تم مناقشة أمور تخص الهيئة، منها الأعداد للمؤتمر السادس لهيئة المعماريين العرب.

اجتماع الجمعية العامة، تونس 2013/12/7

عقدت الجمعية العامة اجتماعها بتاريخ 2013/12/7 في المدرسة الوطنية للعمارة والتعمير في جامعة قرطاج – تونس،بحضور (7) سبع دول من اصل احد عشر (11) دولة حيث تم مناقشة جدول اعمال والمصادقة على التقرير المالي والموازنة واقتراح عقد المؤتمر السادس للهيئة (مدن عربية) في لبنان او في المغرب ، كما تم توزيع العدد الرابع والخامس من مجلة المعمار العربي.

المدينة والفلسفة

بيروت - جبيل

5 ـ 6 تموز 2013

ورشة عمل: المدينة والفلسفة

م. محمد دندشلي، م. اميل العكرا، النقيب ايلي بصيبص، د. ادونيس العكرا خلال الإفتتاح.

عقدت هيئة المعماريين العرب بالتعاون مع المركز الدولي لعلوم الإنسان – جبيل (برعاية الأونيسكو) ورشة عمل حول موضوع «المدينة والفلسفة» وذلك استكمالاً للمؤتمر الفلسفي الذي عقده الإتحاد الفلسفي العربي العام 2012 بمشاركة الجامعة اللبنانية والمركز الدولي لعلوم الإنسان في مدينة جبيل – لبنان.

استمرت الورشة على مدى يومين في 5 و 6 تموز/ يوليو 2013 ، اليوم الأول استضافته نقابة المهندسين في بيروت واليوم الثاني استضافه المركز الدولي لعلوم الإنسان في مدينة جبيل، تحدث في الإفتتاح كل من: رئيس الهيئة والنقيب بصيبص، والدكتور ادونيس العكرا.

تضمنت ورشة العمل ثلاثة محاور:

المحور الأول: تحول بنية المدينة من منظور تحول الفكر الفلسفي تاريخياً أداره المعمار خالد زعبلاوي نائب رئيس الهيئة وتحدث فيه كل من الدكتور نظير ابو عبيد من الأردن حول «مدن المعرفة كفلسفة للتخطيط وتنمية المدن، والدكتور يسار عابدين من سورية حول «مفهوم الفضيلة في مصطلح المدينة».

المحور الثاني: الفكر والفلسفة في مكونات التنظيم المديني الحديث، أداره الدكتور رهيف فياض رئيس هيئة المعماريين العرب الأسبق، وتحدث فيه الدكتور إيلي حداد من لبنان حول «النقد الفلسفي للعمارة والمدينة من مدرسة فرنكفورت إلى مانفرو تافوري»، والدكتور مصطفى المزوغي من ليبيا حول «الأبعاد الوظيفية والتقنية والثقافية للمدينة» قراءة في أثر اطروحات الفكر الحداثي على تشكيل العمران المديني..».

المحور الثالث: المدينة والفلسفة تحدث فيه الدكتور فريد يونس حول «نيتشه وزياد، أطفال مدينة: بها يلهون ويعبثون.

تلا المؤتمر جولة في مدينة جبيل الأثرية .

الإفتتاح

كلمة رئيس هيئة المعماريين العرب، المعمار اميل العكرا

عندما بدأت تتشكل قرية صيّادي السمك جنوبي التل الصخري الصغير المشرف من على خمسة عشر متراً على بحر جبيل حوالي الخمسة آلاف ومائتي سنة قبل الميلاد لم يكن عقل هؤلاء المؤسّسين يتوقع أن تصبح تلك القرية الصغيرة هذه المدينة التي ذاع صيتها في العالم القديم منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، والتي ارتبط اسمها الكنعاني «جبيل» بنشر أبجدية سهلة مطواعة اعتمدها الإغريق ومن ثمّ الرومان لتصل إلينا اليوم من خلال نموذجها اللاتيني الأوروبي المعروف.

كثيرة كانت تلك الأماكن التي نصب الصيّادون فيها خِيَمهم على طول الشاطىء المتوسّطي للهلال الخصيب من خليج الأسكندرون شمالاً حتى ترعة السويس جنوباً، وقلة منها فقط تحوّلت إلى مدن. تكرّر هذا الأمر في البيئات الصالحة لنموّ جماعات البشر وفي البيئات الحاضنة لهم، من مرتفعات فارس ووادي الرافدين ومنبسطات بلاد الشام والشاطىء الكنعاني شرق المتوسّط إلى برّ الأناضول والشاطىء الأيّوني وأرخبيل اليونان شماله إلى وادي النيل جنوبه.

و تكرّرت تلك الظاهرة بنجاحات مختلفة إن من ناحية الاتّساع أم من ناحية التأثير على التطوّر اللاحق للبشر؛ وهو تطوّر تسارعت وتيرته باطّراد مع تسارع نشوء المدن، ذلك أنّه في المدينة وفي المدينة خاصةً تمّ تطوّر الجنس البشري ووصل إلى ما هو عليه اليوم. فيها تحققت إجتماعية الإنسان، وهي بُعد بنيوي في تكوينه، وفيها تحقق فائض الإنتاج الذي سمح له بانصراف متزايد للتفكير والتأمّل، وفيها بحث فكره في نفسه وفي موقعه في الكون وفي حاله وفي مصيره، ممّا جعله يبتدع الأديان أولاً والنظم المناقبية والهيكليات السياسية تالياً. في المدينة طوَّر الإنسان وسائل الإنتاج فزاده ونوّعه، وفيها طوَّر سبل القتال فتتالت إبتكارات وسائل الهجوم وخططه، ولحقت بها إبتكارات وسائل الدفاع وخططه. وعلى هامش الانكباب على شؤون الحرب وبسببها نَمَت إختراعات عديدة سلمية مفيدة للإنسان، وتطوَّرت علوم لا تقلّ عنها إفادةً.

هنالك مدن بقيت صغيرة الحجم، وهنالك أخرى كبرت واتّسعت، وفي الحالتين بقيت المدن مدناً، خصائصها الأساسية ذاتها، فما سرّ هذا الانتقال وما هي تلك الخصائص؟ قد لا تكون جبيل المدينة هي من اكتشف النظام الأبجدي، فهناك مدوّنات عديدة في أوغاريت وإيبلا وماري وبابل وغيرها من مدن وادي الرافدين اعتمدت النظام الأبجدي في الكتابة قبل جبيل، لكنّه يعود لهذه

الأخيرة عبقرية صناعة الأحرف التي كتبت الكلمات والجُمَل التي حملت الأفكار والمعاني والتي بدورها كتبت الحضارة المقروءة. تمّ ذلك في مدينة هي من أصغر المدن مساحةً، إذ أنّ هذه المساحة لا تتجاوز، ضمن أسوارها، الخمسة هكتارات، أي ما يوازي أو لا يتعدّى مساحة قصر أو معبد من قصور ومعابد مدن الهلال الخصيب أو مدن وادي النيل.

بعد تلبية متطلبات الحاجة من خلال البناء الملجئيّ وبعد أن استكمل هذا البناء دوره الوظيفي، انتقل الأمر إلى تلبية متطلبات أخرى تعبّر عن الشخصية، شخصية الفرد وشخصية الجماعة، فدخل الفكر في الموضوع وكان فنّ البناء وكانت العمارة. وبعدما أمّن البناء الملجئيّ راحةً أمنيةً نسبيةً، ومن ثمّ أمّن البناء المعماري راحة نفسية مطمئنة لشعور الفرد بالفرادة، ومعطياً للجماعة شخصيتها البادية للعيان، انتقل الأمر أيضاً إلى تلبية متطلبات اللذة والتمتّع بالحياة، فدخل الفكر مجدّداً في الموضوع وكانت المناخات الاصطناعية المعدِّلة للمناخات الطبيعية من تدفئة وتبريد، وكانت الفنون التشكيلية من رسم وتلوين ونحت وزخرف، وكانت فنون الشعر والغناء والرقص والمسرح والدمى، وكان الجنس للمتعة لا للتكاثر فقط. وكما كلّ كائن حيّ، نمت المدن واتّسعت تلبيةً لحاجات أهلها وتجاوباً مع طموحهم. وبعدما تأمّن كل ما سبق، انتقل القلق الوجودي نحو اكتشاف أسرار الكون، وانشغل البال في البحث عن كواكب حيّة تستطيع استقبالنا عندما تنضب الأرض وتقحل وتموت، فكانت المراصد وسابرات الكون ومختبرات الفضاء.

وعندما اتّسعت بعض المدن دون ضوابط وتحوّلت أحياؤها وضواحيها متاهات تسرطن نسيجها. لقد ضرب سرطان الفوضى بنيتها فتشظت وتحوّلت ركاماً مضرّاً لنفسها ولناسها، فما السبب في ذلك؟ وكيف الخروج من هذا النفق المظلم؟ وعندما ضمر بعضها الآخر إلى حدودٍ معيّنة تهمّشت تلك المدن وفقدت وظيفتها واستعادت حالتها القروية، فما هي العناصر التي بتوافرها أم بعدمه تتحوّل القرية إلى مدينة أم تبقى كما هي أم تتحوّل بعد ذلك مجدّداً من قرية إلى مدينة؟ أنّها أسئلة كبرى لا يستطيع الفكر المعماري وحده الإجابة عليها ولا يستطيع الفكر الهندسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي وحده تفكيكها وحلّها وإيجاد أجوبة صالحة لاعتمادها منطلقاً للحلول. عندما حوت المدينة أكثرية الأبعاد الإنسانية تراجع نجوع الحلول الجزئية وتقدّم نجوع الحلول الكلية التي لا سبيل إليها إلا على ضوء الفلسفة.

لم يجرَ تعديل في مسار الحياة البشرية إلاّ وكان الفكر سيّد هذا التعديل ومهندسه. وعندما تفلسف الإنسان في المدينة، أعمَل فكره في درس فكره وتشريح هذا الفكر وما أنتجه. وهناك مَن يعتبر أنّ من بين أدوار الفلسفة دور الباحث والناظر والفاصل فيما بين إنتاج الإنسان كما هو وبين ما يجب أن يكون عليه هذا الإنتاج. وعندما تسيّس هذا الإنسان فعل ذلك في المدينة. أنّ الفعل السياسي المقرِّر في حياة المجتمعات هو فعل مدينيّ بامتياز. ألا ترون ما يحدث الآن في عالمنا العربي؟ ألا تلاحظون أنّ كلّ ما يحدث هو يحدث في المدن؟ لقد صنعنا المدينة فصنعتنا. لقد صنعنا المدينة بأيدينا، فبنينا عماراتها بالمواد المتاحة، ورصفنا هذه العمارات على طول مسار فخلقنا الشارع، ورصفناها حول فسحة فخلقنا الساحة وكلما طرأت لنا حاجة خلقنا لها مبنىً يلائمها ويستجيب لوظيفتها، أو أنشأنا لها فضاءً خاصاً بطبيعتها.

تشير الدراسات الأنتروبولوجية إلى أنّه منذ انتصب الإنسان على قدميه ومشى بواسطتهما وحدهما نشأت علاقة حميمة وسببية بين مشيه وسرعة هذا المشي من جهة، وبين تفكيره واتّساع هذا التفكير وعمقه من جهة أخرى. العلاقة بين جسد الإنسان بنيةً وإمكانيات وبين فكر هذا الإنسان وتنوّعه وتركيزه واكتشافه أسرار الحياة وأسرار الكون هي علاقة سببية شاملة وجدلية بامتياز. أنّها علاقة الفكر بالمادة. فهل نستطيع القول، مقارنةً، إنّ العلاقة فيما بين المدينة المادية، أي العمارة والنسيج المديني، وبين مجتمع الناس الذين يقطنونها، فيها من الشبه وفيها من التماثل وفيها من الترابط ما يخوّلنا دراسة هذه الحالة فلسفياً؟ لقد نشأت الفلسفة في

المدينة وهي، من أبواب متعدّدة، نشأت للمدينة. فلماذا هذا الإهمال الفلسفي الكبير عندنا في الخوض في موضوع المدينة؟ عندما تمدّن الإنسان، بمعنى أنّه سكن المدينة، تغيّرت حياته وتغيّرت رؤآه وارتقى فكره ليتناول معنى الأشياء ويخوض في تأثير المعاني على نفسه حياةً وفكراً ومتعةً. فلماذا لم يعر المفكر العربي اهتماماً فلسفياً للبيئة المعمّرة التي ساهمت في صناعته بعد أن صنعها؟ لأنّ بناة المدينة، وعلى رأسهم المعماريين تاريخياً، أعملوا الفكر في هذه الصناعة، واستعاروا واستوحوا من كلّ المفكرين، وعلى رأسهم الفلاسفة، معادلات نظرية حوّلوها إلى معادلات عملية صالحة للتطبيق على أرض الواقع. لكنّ بناة المدينة هؤلاء قصّروا في ارتياد الفلسفة للتدقيق من خلالها في صحّة البنيان الذي أفلت بعد وجوده من تحكّمهم به. أصبح وجوداً خاصاً مستقلاً لا تختصر قواعده بمجموع قواعد مكوِّناته، ماديةً كانت أم روحية.

مشهورةٌ، وشائعةٌ تلك الرواية التي تحكي عن ما كتب أفلاطون على عتبة مبنى الأكاديمية التي علّم فيها الفلسفة، وهي بما معنى: «لن يدخل هذا المكان إلاّ مَنْ هو مهندساً»، وقد نقول، وبعد هذا الإعلان، إنّه من البديهي القول إنّ العقل الذي يريد التفلسف، لا يمكنه فعل ذلك إلاّ إذا كان مهندساً، لكنّ العبقرية في الموضوع هي أولاً في اكتشاف المعادلة وصياغتها وهي ثانياً في جعل الحساب والمقاييس في أساس التفلسف وإعمال العقل في اكتشاف أسرار الوجود. قد لا نستطيع القول إنّه لا مكان في فناء العمارة ألاّ لمن هو فيلسوفاً، ولكنّنا حتماً نستطيع القول إنّه لا مكان في هذا الفناء إلاّ لمن يفهم بالفلسفة ولمن يعمل في العمارة من خلفية فلسفية تعتبر هذه العمارة ونسيجها المدينيّ نشاطاً إنسانياً خاضعاً للمساءلة وخاضعاً للتشريح كما وخاضعاً لنواميس التأليف التي تتخطّى المادة وصولاً إلى ما بعدها ووصولاً إلى المعاني ووصولاً إلى القِيَم.

عندما ندرك التأثير الكبير للمكان، والمبني منه خاصةً، على نفسية الإنسان وعلى راحته وعلى راحة باله وعلى نموّه الجسدي والعقلي، أفلا يجدر بالفلسفة الاهتمام بمفاعيل هذا المكان، وبالمدينة تحديداً؟ أفلا يجدر بها تشريح الموضوع ونقد النتائج السوسيولوجية، المجتمعية والنفسية لهذا الكائن الحي المعقد الذي اسمه المدينة والذي، بمعنىً ما، تحوّل من مصنوع إلى صانع؟ وبالتالي، ألا يجدر ببنّائي هذه المدينة مقاربة هذا الكيان من باب الفلسفة ومن باب الإيديولوجيا وخصوصاً من باب العمارة والتنظيم المدينيّ؟

من الخطأ الفادح أن ننسى أنّ المدن هي التي أنشأت الدول وليس العكس، وأنّه بزوال المدن تزول الدول وليس العكس، ولذلك لا نبالغ إذا قلنا إنّ صحّة الدول هي من صحّة المدن وليس العكس.

أنّ طرح الموضوع من قِبَل هيئة المعماريين العرب ومن قِبَل المركز الدولي لعلوم الإنسان برعاية الأونيسكو في جبيل يشرّع الباب واسعاً أمام كل من يهتمّ بالمدينة كحاضنة للحضارة ومؤسِّسة للدول وناظمة لحياة البشر الاجتماعية والسياسية والثقافية فيها... أنّه يشرّع الباب واسعاً أمام كلّ جهد بحثي من أيّ نوع كان يؤدّي إلى فهم أفضل للمدينة، أفضل ما ابتكره الإنسان كإطارٍ حسّي لحياته العامة.

م. محمد دندشلي، م. اميل العكرا، النقيب ايلي بصيبص، د. ادونيس العكرا.

الإفتتاح

كلمة نقيب المهندسين في بيروت المهندس ايلي بصيبص

يقول أرسطو أن الغاية من التجمع البشري أي المدينة هي بلوغ السعادة باعتبارها أفقاً للكمال.

فإذا كانت المدينة نشأت نتيجةً لحاجة الإنسان للانضباط ضمن تجمع يؤمن له بالدرجة الأولى مسكناً ليأويه ومركزاً تجارياً يؤمن له مأكله وكساته، ومكاناً لعمله، ففي هذه الوظائف أي السكن والقوت والعمل تأميناً لحاجات الإنسان الأساسية الأولية.

مع التطور تبرز الحاجة إلى الاستشفاء والتعليم والنقل لبلوغ مستويات أعلى في متطلبات الفرد وحقوقه الأساسية مروراً بمتطلبات السلامة العامة والمكانة الاجتماعية وصولاً إلى الثقافة والفن وتحقيق الذات.

فالمدينة هي تجمع متحرك بعيداً كل البعد عن جمود الإنشاءات، فهي بحث وتفتيش دائم وتراكم مستمر لتحقيق الغاية من وجودها لبلوغ السعادة الفردية. وإذا كانت الفلسفة هي البحث النظري عن طريق العقل لصياغة المفاهيم، فعندئذ تتضح العلاقة بين المدينة والفلسفة، فهي أي الفلسفة تؤمن المحرك البحثي للنظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتراثية والجمالية لتطويرها وتطبيقها في الخير المديني لجعله حيّاً متفاعلاً مع حاجات الإنسان في سعيه إلى الحقيق والكمال، وبعيداً عن هذه الديناميكية تغرق المدينة في الرتابة والجمود وتتحول إلى مهاجع للنوم، وأبنية سوداء ميتة ومساحات للمضاربات العقارية.

إن التفاعل بين المدينة والفلسفة، وأقترح بتواضع وأنا في حضرة معماريين يقولبون المدينة ويشكلونها، وأساتذة في الفلسفة، القول بفلسفة المدينة وتطوير مفاهيمها المختلفة يحتاج إلى مناخ من الحرية وممارسة الديمقراطية في حياة الجماعة ويفترض وعياً من الأفراد للتواصل والتفكير بالشؤون المدينية ومتطلبات التنمية وتحقيق التوازن بينها وبين المحافظة على المدى التراثي في المدن الحديثة.

فكم هي المشاريع العامة التي تعرضها السلطات المختصة على الأفراد للنقاش وإذا تحقق هذا الأمر، فما هو الوعي الجماعي لتقديم مفهوم المصلحة العامة على مفهوم الجدول الاقتصادية.

أو بالأحرى هل هناك فلسفة للمدينة في مجتمعاتنا العربية في سعيها لتطوير وتوسيع تجمعاتها السكنية، تضع في سلم أولوياتها الإنسان

وحاجاته لتحقيق تنمية اجتماعية واقتصادية صحيحة.

هـذه أسئلة معلّقة لن تستطيع سلطاتنـا الإجابة عليها، ولكنها تبقى مطروحـة علـى كليات العمـارة والمعماريـين المحدثين، لإيجـاد تيّار ملتزم في المناهج التعليمية يفرض مع الوقت توجهات محدّدة لتنمية المدينة تحددها فلسفة وحداثة للعمارة.

نتمنى لهيئة المعماريين العرب والمركز الدولي لعلوم الإنسان التوفيق في مختلف جلسات ومحاور هذه الورشة.

الحضور في نقابة المهندسين في بيروت خلال ورشة العمل.

م. د. نظير أبو عبيد، و م. أيمن زعيتر.

اليوم الأول؛ المحور الأول: تحول بنية المدينة من منظور تحول الفكر الفلسفي تاريخياً

مدن المعرفة كفلسفة للتخطيط وتنمية المدن

المعمار: د. نظير أبوعبيد
رئيس الجامعة الألمانية ـ الأردنية

الاقتصاد المعرفي

أشار الدكتور نظير أبو عبيد في محاضرته إلى أنه مع مطلع الألفية الثالثة بدأت ملامح الاقتصاد تتغير في مواجهة التحديات الناتجة عن التحولات الإجتماعية والأقتصادية في ظل العولمة وثورة الاتصالات و دخول العالم في مرحلة ما بعد التصنيع.

وأوضح أنه بعد أن كانت الأرض والعمالة ورأس المال هي العوامل الثلاثة الأساسية للإنتاج في الاقتصاد التقليدي، أصبحت المعرفة والابداع والمعلومات هي العوامل الأساسية الجديدة، وعليها ظهرت مصطلحات جديدة مثل: Knowledge Economy، Knowledge Society.

غير أنه شدد على أن أهم ظاهرة في سياق التحولات الاقتصادية كان ظهور نموذج «الاقتصاد المعرفي»، الذي يستند إلى الإمكانات غير الملموسة وبالذات المعرفة والإبداع والحرفية، ويعتمد القدرة على إنتاج المعرفة واستخدامها كمؤشر استراتيجي في النمو الإقتصادي، ويعتمد تناقل المعرفة من أجل الحصول على وضع تنافسي.

وأكّد أن متطلبات الاقتصاد المعرفي والعوامل التي تدعمه هي في وجود بنية تحتية من الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات والشبكات، ووجود بيئة تنافسية صحية، ووجود أطر تشريعية وقانونية وإدارية وسياسية لزيادة الانتاجية والنمو إلى جانب مرونة الحدود التجارية بين المناطق ووجود بيئة حضرية ملائمة تحتضن المجتمع المعرفي ونشاطاته المعرفية.

أسس التنمية المعرفية

وأشار إلى أن الاقتصاد المعرفي يفعّل دور المعرفة بشريا واقتصادياً وحضريامن حيث التنمية البشرية والإجتماعية Human Development والتوجه نحو تطوير المهارات ورفع سوية الحالة المعرفية للأفراد والمجتمع بشكل جمعي من خلال الاستثمار في الابتكار والتطوير والتعليم والتدريب واستقطاب الموهوبين والمبدعين.

أما التنمية الاقتصادية Economic Development فيحددها بأنها المعرفة التقنية بهدف إبداع المنتجات والخدمات، والمعرفة التسويقية بهدف فهم اختيارات المستهلك، والمعرفة المالية لقياس مدخلات ومخرجات العملية الإنتاجية، والمعرفة الإنسانية من مهارات وقدرات إبداعية ضمن الأنموذج الإقتصادي.

وتعتبر التنمية الحضرية Urban Development الاقتصاد المعرفي محركاً في تنمية الأنشطة العمرانية مما يجعله عاملاً

مهمـاً في تطويـر استراتيجيـات حضريـة لرعايـة المعرفـة والعلم والإبداع والابتكار، وبحيث تحتضن المدينة وظائف علمية بالإضافة لوظائفها السكنية.

أسس مدينة المعرفة

ويتطلـب الأساس المعـرفي Knowledge Base وجـود عناقيـد أومجمعـات أو مراكز معرفية قوية مثل الجامعات ومراكز الأبحاث والتطويـر والواحـات العلميـة، والمرافـق المعرفيـة والثقافيـة مثل المكتبـات، المتاحف، المسـارح والمقاهي والشـركات الاستثمارية في مجالات المعرفة.

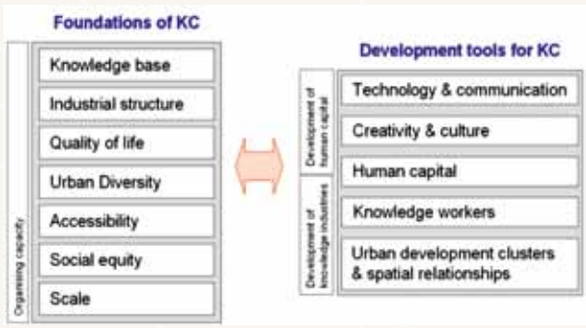

كما يتطلب الأساس الاقتصادي Economic Base مشاركة جدية وفعالـة بالتمويل من قِبل كل مـن القطاعين العام والخاص، بهدف إنتـاج منتجات ذات قيمة ونوعية عاليـة بالاستناد إلى التكنولوجيا والبحث العلمي والقدرات الذهنية للبشر.

وتتطلب نوعية الحياة Quality of Life مستوى جيد من الخدمات العامـة، وثقافـة الحفاظ على القيـم الثقافية والجماليـة والبيئية للمـكان، في حين أن الموصليـة Accessibility تؤكد على التواصل مـا بين مركز المعرفة من خلال وجود بنية تحتية (شبكة) للتواصل المادي والمعرفي.

كما يتـم تجسيد التنوع الحضـري Urban Diversity من خلال التواصـل مع الأخرين ضمـن بيئة كوزموبوليتيـة تتضمن نشاطات

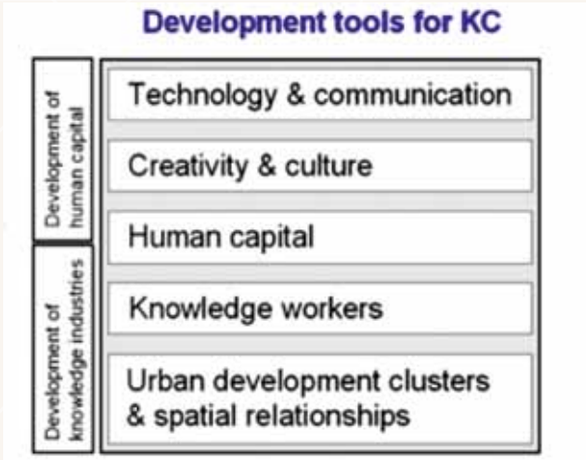

وفعاليات متنوعة ومتعايشة ضمن نفس المنطقة المعرفية.

وبرأيـه أن العدالة الإجتماعية Social Equity التي تحتفي بسبب التوتـرات والتناقضـات الإجتماعية وأشكال الإقصـاء الإجتماعي المختلفة، فهي من أهم الأسباب لعدم استقطاب الكفاءات والمواهب لمدينة تطمح أن تكون مدينة معرفة.

أدوات مدينة المعرفة

وأشـار إلى أن التكنولوجيـة والإتصـالات Technology & Communication ضرورية لضمان إمكان الحصول لأكبر عدد من المواطنين على التعليـم والتدريب والخدمات المعرفية المختلفة. مما يساهم في نشر المعرفة مساحة وبسرعة، علماً بأن مقياس نشر المعرفـة مؤشر هـام على كفاءة المدينة المعرفيـة. وهذا يتطلب فتح أبواب التنافس ما بـين مؤسسات قطاع الإتصالات، وتعزيز مفهوم الحكومـة الالكترونية. في حين أن الابـداع والبنية التحتية الثقافية Creativity &Cultural Infrastructure وهـي الأماكـن التـي تمتاز بالغنى الثقـافي، فهي توفر فعاليـات داخلية و خارجية وخدمـات حضرية تتواجد مع الخدمـات التكنولوجية مما يجتذب العاميلن ذوي المواهب والمهارات.

ويحدد الإمكانات البشرية Human Capital على أنها الجامعات ومراكز التدريب وهي محـركات إبداعية هامة تساهم في استيلاد المواهـب وتشكل حلقات تواصل معرفيـة هامة بين الناس. كما أنها تشكل بوتقات للإنصهـار والتفاعل الثقافي، مما يرتقي في العملية التعليمية.

ويصنّـف العاملـون بالمعرفـة Knowledge Workers علـى أنهـا الطبقـة المبدعة مـن هؤلاء العاملـين هي التي تؤثـر في الأداء الاقتصـادي للمدينة. واستقطابهم يعتمـد على توفير مكان ونوعية حياة ذات مستوى جيد وتساهم في استثارة الهمم الإبداعية، ومناطق التنمية الحضرية والعلاقـات الفراغية Urban Development Clusters and Spatial Relationships والمراكـز والتجمعـات الثقافيـة والجامعات والمؤسسـات التعليمية والتدريبيـة ومؤسسات البحث والتطوير (R&D) هي أمثلة على ذلك.

مجتمع المعرفة

وتقوم مدن المعرفة ببناء مجتمع يسمى «مجتمع المعرفة»، من خلال استقطـاب الموهوبين والمبدعين وتعزيـز مكانتهم في المجتمع ودعم نوعيـة الحياة لهم. ويشكل مجتمع المعرفة (4) اربع شرائح رئيسة هي السكان والموظفين، ورجال الأعمال والصناعة والزوار، وأسواق التصديـر. ويتـم اعتبـار احتياجـات كل شريحـة ضمـن موقعها الحضري مع اعتبار أبعاد القيم والهوية الثقافية والإجتماعية.

The four main target markets

Target group	Sub-groups
Visitors	Business visitors (attending a business meeting or convention, checking out a site, coming to buy or sell something), Non-business visitors
Residents and employees	Professionals (scientists, physicians, etc.) Skilled workers Wealthy individuals Investors Entrepreneurs Unskilled workers (domestic, migrants, etc.)
Business and industry	Heavy industry „Clean" industry (assembly, high-tech, service companies, etc.) Entrepreneurs
Export markets	Other localities within domestic markets International markets

ومـدن المعرفـة تخـدم التنـوع الثقـافي لمواطنـي مجتمـع المعرفـة وتوفر لهـم الإمكانات، بهدف استدامة بقائهـم أعضاء فاعلين في مجتمعاتهـا، وذلك مـن خلال وجود حيـاة ثقافية حيويـة متنوعة ومتميـزة، وخدمـات حضريـة و عامـة وترفيهية متنوعـة، ونظام مواصـلات جيد، وسوق عمالة مستدام، وبيئة سكنية نظيفة وآمنة، وتعزيز مفهوم الاحساس بالمكان والاحساس بالانتماء.

جاذبية المدينة

واعتبر أن جاذبية المدينة (City Attractiveness) مصطلح بدأ ينتشـر مع انتشار المنافسة ما بين المدن ضمن مفهوم مدن المعرفة، وحاجة تلك المدن لاجتذاب السكان الموهوبين وذوي المهارات اللازم لنمو اقتصاد معرفي، والذين يهتمون لنوعية السكان.

مميزات مدينة المعرفة

وعـن مميـزات مدينـة المعرفة يقـول إنهـا حضور المعرفـة كقيمة ثقافية، وحضور الإبداع كقيمـة ثقافية واستثمارية في سوق العمل، والربـط بين العلـم والتكنولوجيا من جهة وبـين الثقافة والفن من جهةٍ أخرى. ومن ميزاتها أيضاً التواصلية وسهولة انتقال المعلومات وتبادلها بـين مناطق المعرفة المختلفة، وتوفـر الخدمات الحضرية والترفيهيـة خاصـة تلك التـي تهم المبدعـين والمحترفـين، وادارة الفعاليـات المعرفية للمدينة بمنظومة حاكميـة ذات صبغة معرفية (Knowledge Governance)وتأمسـن مساهمـة المجتمـع المعرفي في تطوير مدينته والتنوع الثقافي.

قياس اداء مدن المعرفة

أمّـا عن كيفية تقييـم اداء ومستـوى المدن المعرفيـة، فيشير إلى أن ذلك يتمّ من خلال معيارين: معيار «الكثافة المعرفية»، والذي يعكس كُلاًّ مـن كم النتاج المعرفي ونسبة تداوله بين الناس واستخداماته في الحياة المعاصرة، وثانياً، معيار كثافة وتنوع محركات الإبداع والمعرفة في المدينـة وهي الجامعـات ومراكز الأبحـاث والتطويـر والواحات العلمية والمرافق المعرفية والثقافية مثل: المكتبات، المتاحف، المسارح والمقاهي والشركات الاستثمارية في مجالات المعرفة.

التنمية الحضرية المعرفية

ويؤكـد أن مـدن المعرفـة تجتمـع فيها نشاطـات الواحـات العلمية والتكنولوجيـة والمرافـق الثقافيـة والتعليمية ضمـن مناطق تسمى (innovation clusters Knowledge Zones)، بالإضافـة لوجـود منظومـة اتصـالات (ICT)، حيـث تتميز مدينـة المعرفة بالإتصاليـة ما بين مـا بين مناطـق المعرفة المختلفـة، وبحيث يتم توليـد المعرفـة وتعليمهـا ونشرهـا للإستفـادة منهـا في نتاجـات اقتصادية متطـورة، مما يتطلب إنشاء منظومـات فراعية هيكلية مـن العلاقات الحضرية ما بين المناطـق المعرفية، مما يؤثر بشكل مباشـر على الشكل الحضري للمدينة. كما يساهم تجميع فعاليات هـذه المراكز في خفض التكاليف بسبـب اشتراكها في الخدمات، فيما توفّر العلاقات الفراغيـة والحضرية الامكان للتواصل ما بين هـذه المراكز وداخلها (مثـلاً بين رجال الأعمـال والموظفين)، كما أن علاقـة هـذه المراكز مـع مراكز النقل مثل المطـارات ومحطات القطارات تعزز من تواصليتها.

The KBUD Analysis Model

Characteristic	Details
1 . Socio-cultural	*(Human and Social Development, Quality of Life, Intellectual Capital)*
2. Enviro-urban	*(Unique Identity ,Quality of Place, Sustainability)*
3. institutional	*(Democratic and transparent, Strategic and Integrated, Social Equity)*
4. Economical	*(Creative and Innovative, Knowledge based, Competitive)*

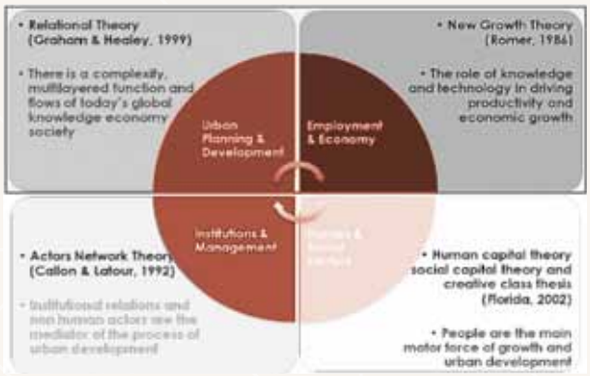

Common themes and values of new knowledge precinct developments

THEMES	VALUES	EXAMPLES
1. LIVING AND WORKING (mixed use environments)	**Business, real estate value:** Real estate and technology capitals are very active in shaping knowledge precincts (i.e. Nokia in Helsinki). Hence, commercial success has a great value. This means the end of rigid separation of working and living environments of so called knowledge workers.	Helsinki Digital Village, Brisbane Kelvin Grove Urban Village
2. CENTRALITY (proximity, clustering, premium access to different infrastructures, services, and amenities, place quality)	**Economic value, development value:** Formation of knowledge precincts has become a new urban policy tool for the revitalisation of environmentally degraded former industrial sites or inner city urban districts.	Helsinki Digital Village, 22@Barcelona
3. BRANDING (symbol for branding a city as a knowledge city)	**Symbolic value, design value:** A regeneration strategy for creating successful knowledge cities or formation of new niche markets. Marking the name of the emerging knowledge city with a landmark development.	22@Barcelona, Taipei 101
4. LEARNING AND PLAYING (interactive environments, living laboratories, experience of place)	**Learning value, experimental value:** Urban playfield of cutting-edge technological innovation and creativity, places of interaction, knowledge hubs (e.g. universities).	Copenhagen Crossroads, Zaragoza Digital Mile
5. CONNECTIVITY (social networking, places of interaction, pedestrian orientation, face-to-face contact)	**Social value:** face to face contact, tacit knowledge transfer, place identity.	One North Singapore, Kelvin Grove Urban Village Brisbane

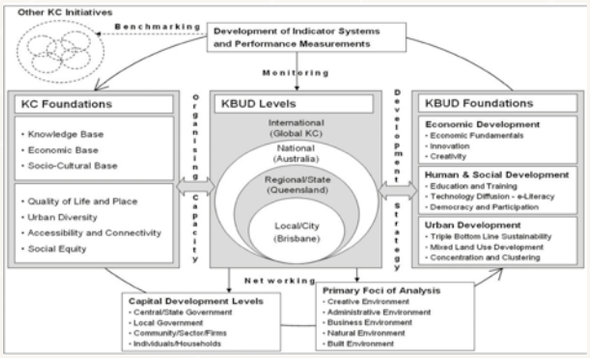

الجامعات محركات للإبداع

وإذ يعتبر أن الجامعات هي أهم محرك إبداعي ومعرفي في مدن المعرفة، حتى اصبح موقع العديد من المدن في عالم الإقتصاد المعرفي معتمدا على نوعية وتنوع وعدد الجامعات في هذه المدن، يشير إلى أن الجامعات حاضنات للأدوات المعرفية من مختبرات، وفعاليات بحثية، ومكتبات، ومراكز نشر وبيع كتب، كما أنها الجامعات تنتج المعرفة والخدمات القائمة على المعرفة، بمعنى ان الجامعات ليست فقط توفر المعرفة كسلعة لها ثمن ولكنها أيضاً تساعد في خلق وتعميم المعرفة التي تطور جميع أنواع السلع الأخرى. لذلك، فإن الجامعات لها دور هام في نقل وتعميم المعرفة والتكنولوجيا وهي قادرة على ادارة حماية الملكية الفكرية وترخيص التكنولوجيا.

الجامعات عناقيد للنشاط الإقتصادي

وتمتلك الجامعات القدرة على ان تكون ذات ريادة في الإبداع والتنافس في الإقتصاد المحلي للاسباب التالية:

- تواصلها مع قواعد التصنيع المحلي، فالجامعات قادرة على إثراء القاعدة التصنيعية والتكنولوجية،
- قدرتها على استقطاب استثمارات جديدة، فهي تخلق أسواق استهلاكية ضخمة من خلال استقطاب الطلبة والهيئة العاملة.
- قدرتها على متجرة منجزات البحث العلمي والابداع، فهي تساعد في خلق إقتصاديات جديدة مبنية على المعرفة (مثل التكنولوجيا المحلية)؛ الاقتصاديات الثقافية والسياحية، إقتصاديات الفن والتصميم، اقتصاديات تكنولوجيا المعلومات واقتصاديات التخطيط الحضري والعمراني.

وعليه اصبحت الجامعات في موقع يتيح لها ان تكون عناقيد متقدمة للنشاط الإقتصادي Advanced Clusters of Economic Activities.

الجامعات بؤر مجتمعية

ويعتبر أن الجامعات تشكل بؤرا مجتمعية إذ أنها بحد ذاتها تشكل مجتمعات ثقافية راقية، واماكن للتفاعل الإجتماعي من نوع خاص، وتساهم في تطوير شخصيات مبدعة، كما هي مراكز لخدمة المجتمع، وتنمية تعليمياً/حرفياً مهنياً (تدريب/تعليم مستمر/مؤتمرات وندوات)، وصحياً من حيث احتضانها للمراكز الصحية، واجتماعياً وثقافياً/معارض، متاحف تاريخية، فنية، تعليمية، (امتلاك أو مساهمة أو صيانه...الخ)، مسارح، تجسير ثقافي مع المجتمعات والثقافات الأخرى، واعلامياً، خاصة الإعلام الشبابي، كما يجب ان لا ننسى انها مؤسسة توظيف هامة.

الجامعات شريك للمجتمع المحلي

والجامعات شريك مستدام للمجتمع المحلي بمعنى اخر، بعد ان كانت الجامعات سابقاً لها مهمتان هما التعليم والبحث، باتت

الجامعات الآن تطوّر شراكات مستدامة مع المجتمع المحلي، خاصة في مجالي التكنولوجيا و الإبداع. وقد تطور المنظور لهذه الشراكة في كثير من دول العالم، حتى باتت الجامعات شريكا هاما في تطوير المدن إقتصادياً وإجتماعياً وحضرياً وثقافياً، وباتت تسمى «Anchor Institution» في مجتمعاتها. وأفضل الطروحات هي التي تنشأ عادةً على التوازن ما بين احتياجات المجتمع واحتياجات الجامعة من خلال التخطيط بمشاركة المجتمع Participatory Planning.

مشاركة المجتمع Participatory Planning

فالمطلوب إذاً هو مشاركة إجتماعية أعمق من مجرد التواصل بما يتعلق بالمخططات الهيكلية والفراغية، أي مشاركة في الدمج الوظيفي والمفهومي للمنطقة المعرفية الجديدة ضمن مجتمعها ومنطقتها الحضرية. حيث أن المشاركة الأعمق تؤدي لقبول المناطق المعرفية كجزء من المجتمع.

الجامعات شريك للمجتمع المحلي

بشكل عام، حتى يكون لدينا مقومات للشراكة، هناك ثلاث بيئات من المفترض أن تتفاعل مع بعضها بشكل إيجابي وهي بيئة بناء

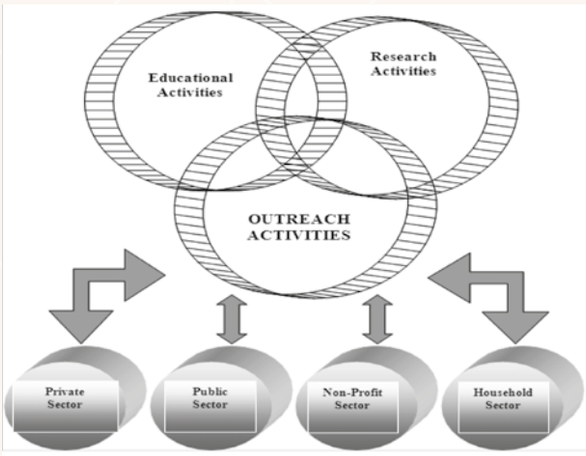

Key University Activities in the Context of National Economy Sectors

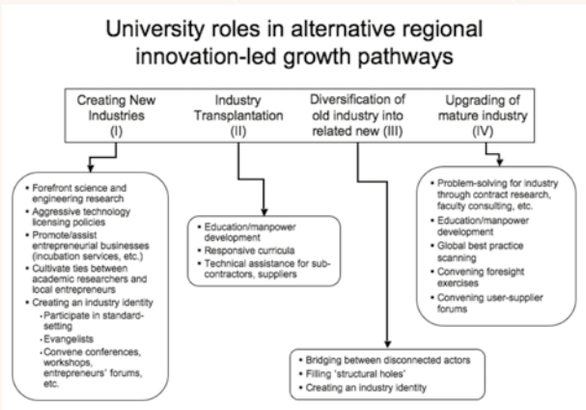

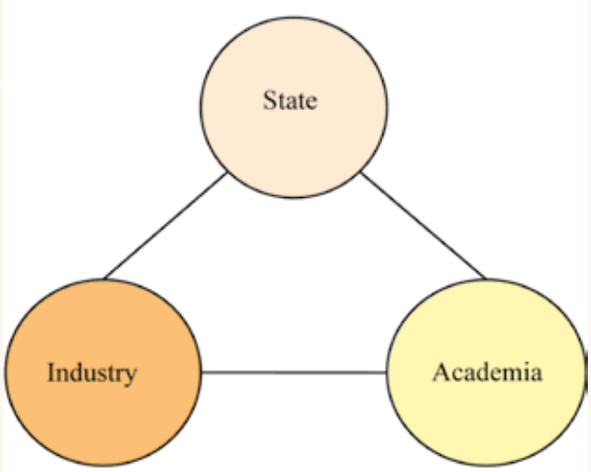

Triple Helix Model - Traditional Concept

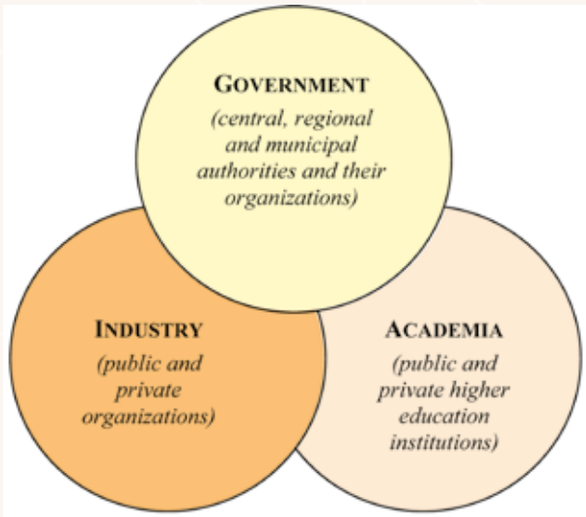

Triple Helix Model - Modern Concept

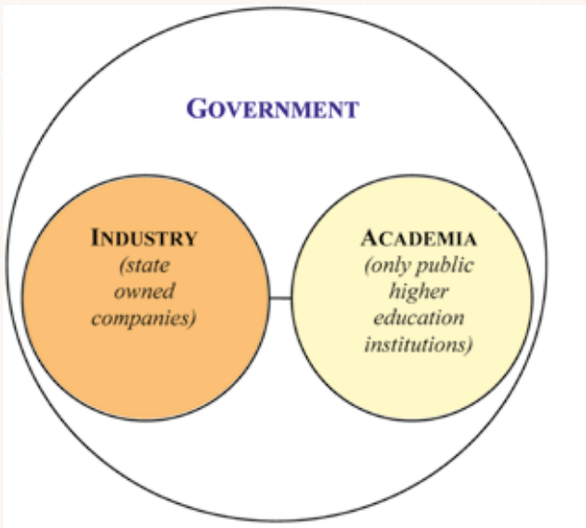

Triple Helix Model - Specific Concept

الثروة (وهي وظيفة الصناعة)، وبيئة صناعة الإبداع وممارسته (وهي وظيفة الجامعات) وبيئة الحاكمية والضبط (وهي في العادة وظيفة الحكومة). ويسمّى الأنموذج الذي يربط بين البيئات Triple Helix Model فيما يسمّى مبدأ الشراكة هذا: (Triple helix of University- Industry-Government).

والجامعات وسيط مناسب ومتوازن ما بين المجتمع والمؤسسات الحكومية ومؤسسات القطاع الخاص وغيرها في أي شراكة للتطوير، خاصة في عهد الإقتصاد المعرفي.

وشكل هذا االشراكة هو Contextual أي أن لكل بيئة شكلاً ملائماً لها. بمعنى اخر أن شكل الشراكة يتأثر بنوع الجامعة وفي السياق الحضري للمدينة، ومن الامثلة على هذه الشراكة ما يسمى Spin- off Companies أو Start-ups، أو مراكز (R & D Research & Development) التي عادةً ما تكون جزءً من المؤسسات الاستثمارية. وتتطلّب لشراكة المستدامة دمجها ضمن خطة الجامعة الإستراتيجية وليس فقط طرحها كفاعلية إضافية للجامعة. ولذلك بدأت تظهر كلمات جديدة في الخطط الإستراتيجية للجامعات مثل: Engagement، Partnership، Reciprocity.

الجامعات بؤر للتطوير الحضري

وتؤثر الجامعات في تطوير مناطقها الحضرية إذ أن الجامعات أماكن هامة ضمن البيئات والمجتمعات وتعتبر محركاً هاماً لتطوير البيئة الحضرية والبنية التحتية، فما يميز الجامعات هو ثباتها في مكانها (placed- based). غير أن التوسع هو ثالث أهم نشاط للجامعة بعد التعليم والبحث، وهو عامل هام في تطور المجتمع. والسُّنة الطبيعية للجامعات أن تتوسع وتستقطب المزيد من الطلبة والعاملين وأن تطور مناطقهم واحتياجاتهم المختلفة بما فيها الترفيهية والصحية والتجارية وغيرها.

وهنالك نوعان رئيسيان من جامعات المناطق المعرفية: الجامعات المنفصلة عن المدن، والجامعات المتداخلة مع المدن. والتخطيط الحضري في النوع الثاني أكثر تعقيداً، كما أن هنالك عدد أكبر من الشركاء المتأثرين من عملية التنمية مثل المجتمعات المجاورة والاستثمارات المحلية. في هذه الحالة يظهر بوضوح الحاجة للتوازن والربط ما بين الأهداف الاقتصادية وما بين أهداف التنمية الحضرية والمشاركة الإجتماعية، اي انه من خلال طرح استراتيجيات إعادة التأهيل الحضري الصديق للبيئة والمجتمع، فان هذا يساعد على خلق إقتصاديات جديدة مبنية على التخطيط الحضري والعمراني، ضمن ما يسمى (Partnership Town- Gown Town- Gown Collaboration).

وعادة تتعاون الجامعات مع المجتمع المحلي في تطوير بيئته الحضرية من خلال مراكز تنشئها الجامعات لهذا الغرض. وللتوضيح، تساهم الجامعات في التطوير المعماري والحضري والحفاظ على التراث وحماية البيئة ضمن الحرم الجامعي وخارجه. وقد يتضمن هذا إعادة تطوير وإحياء بعض المناطق القديمة لتؤدي خدمات للجامعات مثل: سكن للطلبة أو مكاتب إدارية..... أو حتى قاعات دراسية.....الخ. بالاضافة لتحديث وتطوير معالم ومتنزهات تاريخية وحتى إغناء المنطقة بخدمات أمنية.

الجامعات والمدن كعلامات تجارية لبعضها البعض

من مصلحة الجامعات للمحافظة على سمعتها أن تطور المناطق المحيطة بها. لذلك المعتاد أن تنخرط الجامعات في تطور المناطق في أطراف الحرم الجامعي. مما يؤثر مباشرة على الأحياء المحيطة بها وأحياناً على المدينة.

مقترحات لتأسيس شراكات بين الجامعات ومدننا

وهنالك منفعة متبادلة متوقعة مابين الجهتين ضمن منظور مدينة المعرفة، أولاً، فالمدن المختلفة تتبنى رؤى ورسائل مختلفة بالنسبة للمستقبل الاقتصادي والاجتماعي لمجتمعاتها، وكذلك الأمر بالنسبة للجامعات المختلفة (أمثلة: المياه، الطاقة، السياحة). ثانياً، تأثير الجامعات يجب أن يُقرأ من خلال الابعاد الاستثمارية والصناعات الإبداعية بدلاً من الاقتصار على منظور العلوم والتكنولوجيا (مفهوم التكنولوجيا المحلية). ثالثاً، الجامعات والمدن تحتاج أن تحدد بدقة استراتيجياتها في تبني الاقتصاد المعرفي، وأين تتقاطع هذه الاستراتيجيات ما بين الجامعة ومدينتها. رابعاً، طريقة العمل ما بين المدينة والجامعة يجب أن تتشكل حسب سياق موضوع الشراكة بين الجهتين. خامساً، يتوقع من الحكومات أن تبدي مرونة لموضوع التمويل والحوافز لدعم الشراكات مع الجامعات، سادساً وأخيراً، يتوقع من كل من المدينة والجامعة أن يجسرا ما بين ثقافتيهما في العمل لتسهيل أداء الشراكة.

م. د. نظير أبو عبيد، و م. أيمن زعيتر و م. د. يسار عابدين.

اليوم الأول؛ المحور الأول: تحول بنية المدينة من منظور تحول الفكر الفلسفي تاريخياً

مفهوم الفضيلة في مصطلح المدينة

المعمار: د. يسار عابدين
عميد كلية الهندسة المعمارية ـ جامعة دمشق

بعد إخفاق عدة محاولات تخطيطية كبيرة لتنظيم مدينة دمشق خلال العقود الأخيرة، حشدت لها الإمكانيات والخبرات والدعم اللازم لإنجازها وتنفيذها؛ يَنظر الجميع إليها على أنها المخرج السليم لنقل المدينة العاصمة إلى المظهر الحضاري الذي يليق بتاريخها؛ وبالرغم من ادعاءات المتخصصين في فهم المدينة، ورغم اعتمادهم على النصوص العلمية والنظريات المعاصرة، وأحدث التقنيات والنظم والبرامج الرقمية والوسائل والأدوات الإحصائية؛ إلا أنَّ عوائد تنظيم المدينة وتطوير عمرانها لم تتحقق. فعندما يتم الإجماع على التعامل مع مكونات المدينة الفيزيائية والطبيعية بأسلوب فوضوي، تَثبُت حالة إعلاء القيم المادية وانهيار نسق القيم في المجتمع؛ فتكرار قطع شجرة زيتون معمرة واستهلاك الأراضي الزراعية، ومخالفة أنظمة البناء وشيوع الاستثناءات، وبناء المخالفات وتثبيت نهجها وقوننتها، واستمرار التعدي على أملاك الدولة؛ هي حالات من تخاطب غير أخلاقي متفق عليه، لطمس هوية المدينة وتشويه مشهدها الذي بدا منقسماً ما بين المظاهر العشوائية والريفية.

أضف إلى ذلك، مثاقفة لعمارة شاذة مستوردة، وهطول الاستثمارات العقارية الضخمة على أفضل بقاع المدينة، هو دليل على استغلال غير أخلاقي لمقوماتها التنظيمية، أما تحويل تراثها المعماري لمطاعم ونواد ليلية فهو دليل على استباحة تاريخها وتحريف لتراثها العمراني.

وعلى اعتقاد مني بوجود روابط قوية ما بين حجم توافر الفضيلة وعدد المشاكل في المدينة؛ تلك المشاكل التي ما كانت فيما لو توافرت الفضيلة؛ فإنّ أي مُخَطَط تنظيمي لن يعالج تلك الفوضى المتراكمة في المدينة، ولا بد أن يمتلك المجتمع جانباً فلسفياً أخلاقياً في التعامل مع المدينة، ذلك الجانب الذي كان يرتقي بالمدينة قبل أن يكون لها مخطط تنظيمي.

تعتمد هذه الدعوة على التجربة الأخلاقية عند تناول المدينة، فتناوله مصطلح المدينة وفق المفاهيم التي أُسست عليها المجتمعات القديمة، تحتاجها المدينة العصرية اليوم بشكل يفوق حاجتها للتقنيات والإمكانيات الاقتصادية والخبرات التخطيطية لإتمام عمليات التنمية وإجراءات التطوير؛ وتسعى هذه المحاورة لاعتماد مفهوم الفضيلة في العلوم التخصصية، بعيداً عن مفهوم التسوية والإصلاح والتعديل والملاءمة والحلول الوسط؛ وتأسيساً على مثل الفضيلة والفلسفة الأخلاقية والمنطلقات الفكرية السليمة،

والخلفيات المعافاة التي يمكن لها تحقيق الإنجـازات وتوفير الأصالة والجمال في المنتج الأساسي والكمالي على السواء، وضمن أية إمكانيات مهما ضاقت أو وسعت، وفي كل الظروف والضغوط؛ بما يضمن بقائها في التاريخ وصمودها عبره، فالحداثة هي النمو في قمة شجرة التاريخ.

الفضيلة بالمدينة

يحتاج تناول مصطلح المدينة City بشكل معاصر إلى عدد كبير من الإحصائيات والبيانات والخرائط والمصورات، وإلى عدد أكبر من المناهج والأدوات وإدارة جيدة وخبراء متخصصين؛ وعلى الرغم من إمكانية توافر ذلك بسهولة، إلا أن الصعوبة تكمن في تناولها بإطارها الأوسع: Policy، والتي تعني في المجمل توافر مفهوم الفضيلة بوصفها ثوباً يتسع للتعامل مع مكونات ما اصطلح عليه في المدينة، فتوافر الفضيلة كمحور فلسفي لأي نشاط منهجي نظري أو مهني عملي مهما يكن، سينقذ المدينة من التعريفات التي توصّل إليها المعاصرون كالتفكك الاجتماعي، والخلل الاقتصادي، والازدحام السكاني، والتلوث العام، والفساد الإداري، والعشوائية وغير ذلك من الصفات غير الحميدة.

والمدينة اصطلاحاً تعني انتماء حدٍّ معين من السكان إلى موقع جغرافي متميز، يتفاعلون على شكل ظاهرة اجتماعية متعدّدة الوظائف، قوامها إدارة وطبقات من السكان يتوزعون وفق صفات اقتصادية وثقافية، في إطار قانون قوي واضح ينظّم العلاقات والأفعال، يضيف مرحلياً نتائج مادية فيزيائية وأخرى معنوية فلسفية تراكمية في المكان.

ويمثل مصطلح المدينة ظاهرة مكانية خاضعة للتطور الزمني تحتوي على وظائف حياتية مسطرة، ركز عليها الفلاسفة وشحنوها برموز وأبعاد ودلالات مختلفة، لتصبح دلالة فكرية ذات بعد فلسفي بوصفها رؤية حضارية تعتمد على الأخلاق، وقد أفصح تاريخ الفكر الإنساني عن كثير من الشواهد والأمثلة التي تدل على أن المدينة أنارت أو ظللت فضائل فكرية وفلسفية واجتماعية كثيرة على مرّ العصور.

أما الفضيلة Virtue فهي من مرادفات الحكمة Wisdom، والحكمة هي الفضيلة العليا التي تنشأ من سيطرة القوة العاقلة على القوة الشهوانية؛ والفضيلة لغةً هي: الزيادة على الحاجة، أو الإحسان ابتداء بلا علة، تفيد معنى الدرجة الرفيعة في الفضل.

والفضيلة في علم الأخلاق عكس النقيصة وخلاف الرذيلة، وهي الاستعداد الدائم لسلوك طريق الخير، أو مطابقة الأفعال الإرادية للقانون الأخلاقي، أو مجموع قواعد السلوك المعترف بقيمتها؛ فالغاية القصوى للفعل الأخلاقي هي اكتساب الفضيلة على أنها طريق لنيل صفات الحكمة والسعادة والعفة والعدل.

والحقيقة أنه لا خلاف في فهم الفضيلة على أنَّها استعداد دائم لإرادة الخير، عادة فعل الخير، سعي دائم للرغبة في أداء نوع محدد من الأعمال الأخلاقية التي تمثل الحياة: العدل، الشهامة، العطاء، الشجاعة، الصداقة؛ والفضائل العقلية هي التي يكون موضوعها العلم والتأمل؛ ويمكن اعتمادها موضوعياً بأنها قناعة الأفراد بأداء مجتمعهم وفق مجمل القواعد السلوكية التي يُعترف بصلاحِها، والفضيلة مفهوم خام نقي وحاجة ضرورية لجوهر الوجدان؛ يمكن للعقل أنْ يعتمدها بنقائها، والخطر يبدأ عندما يبتكر بديلتها ويتمسك بها.

قبل اقتراح نموذج لمدينة فاضلة سيتم الاطلاع على نماذج تاريخية من فضائل المدن؛ واستعراض نماذج المدن الفاضلة هنا هو للتذكير بأن الفضيلة قديمة قدم التاريخ الإنساني، وفطرة الأغلبية، ومطلبها الحقيقي، وأن الفضيلة متلازمة أساسية ربط الفلاسفة مفهومها بمصطلح المدينة على اعتبار أن الأخيرة سجل لعقائد المجتمع، وأن الفضيلة مَلَكة خُلُقِية يكون المرء بحسبها صالحاً يقوم بما يجب عليه بأحسن وجه للوصول إلى الكمال، فالفضيلة تؤتي أُكلها عند توافر الحكمة والمعرفة، وقوة الإرادة والعزيمة، واعتماد المبادئ والقيم السامية، ومخافة الله واحترام القانون، وإيقاظ الضمير، وتفضيل الجماعة على الفرد؛ وعلى هذا ربط الأقدمون تعريفاتهم بالفضيلة وأسسوا مدنهم عليها؛ فكل قضية تاريخية لمدينة عظيمة نجد أنها كانت محمية بالأخلاق الفاضلة.

نماذج المدينة الفاضلة

تعتبر شريعة حمورابي أول مثال موثق لمفهوم مدينة يحكمها قانون تكتسب به صفة الفضيلة، أحاط بجميع ما يتعلق بتنظيم الحياة، اعتمد مبدأ تكافؤ الفرص بين الأفراد في كل طبقة وبين

أفراد الطبقات المختلفة، انطلاقاً من مفهوم توافر الحياة الكريمة وفرص المشاركة في السلطة السياسية، وفرص التربية واكتساب المعرفة، وفرص العمل واكتساب الثروة؛ واعتبرت الدولة في حال تقصيرها مسؤولة عن حماية الأشخاص والممتلكات.

بعد أنْ صنف زرادشت مجتمعه في ثلاثة مستويات: سادة وعبيد وقطعان، أسس مدينته على مفهوم محاسبة النفس وإصلاح الذات بالسيطرة على الغريزة والعاطفة وتطوير العقل، واستئصال الشر، وعدم الاستسلام للقدر وصولاً لمرحلة إلغاء التشريع بالإيمان المعرفي، وعمل على رعاية الحقوق وتكريم الفرد وحفظ كرامته، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث، ودعى لفعل الخير من دون انتظار الثواب، وإحلال حياة السلم.

وارتكز كونفوشيوس في بناء مدينته الفاضلة على أربعة ركائز رئيسية تتشعب عنها القيم الأخلاقية كلها، هي: الإنسانية، الاستقامة، الطاعة، الطقوس والشعائر؛ مستهدفاً بذلك تحقيق التماسك الاجتماعي في المدينة، ورفض مبدأ القوة في إصلاح الأمور، وجعل الأفراد أساساً في تكوين المدينة، ونصب عليهم الرجل النبيل حاكماً مثالياً واجبه توفير السعادة للأفراد.

واقترح فيثاغورث في بناء مدينته حكومة يديرها الحكماء، بدل أن يحكمها السياسيون، يرأسها خبراء متعلّمون مؤهلّون بشكل خاص، حكومة علمية مثلما هي إنسانية، مكرسة بإخلاص للخير العام الأعظم وللعدد الأكبر من الناس خادمة لهم.

وقرر سقراط في محاوراته أن الحكام يجب أن يكونوا من أولئك الرجال الذين يعرفون كيف يحكمون بالعقل، وليس بالضرورة أولئك الذين يتم انتخابهم؛ وأن العقل هو مملكة المفاهيم؛ وكان هدفه تأسيس مدينة مبنية بوضوح في الطبيعة المجردة للأخلاقيات كالعدل والشجاعة، بدل المضي خلف عقائد السلف، مثبتاً أن الآثام كلها وليدة الجهل.

ويعتقد أفلاطون بأنّ قوام المدن يأتي من خلال الاهتمام بالإنسان وثقافته ومبادئه وعلاقاته طبقاً لمنظومة تُوزع المهام فيها حسب الوظيفية الموكلة لكل طبقة من المجتمع؛ ووجد بين المدينة والنفس شبهاً قوياً، فللمدينة ثلاث وظائف: الإدارة والدفاع والإنتاج، تقابلها في النفس قوى ثلاث: الناطقة والغضبية والشهوانية، وبهذا فإن المدينة تتركب من طبقات الحكام والجند والشعب، ثلاث طبقات متدرجة في السلم القيمي.

وتظهر الفضيلة لدى ديوجين من خلال الأفعال وليس في النظريات، وجعل من التواضع والفقر فضيلة، وأن التطور المهني الصناعي للمجتمعات لا يمكن أن يمنح السعادة، بل تكمن السعادة في العودة إلى الطبيعة والبساطة؛ وفي حين كانت تتحدد هوية الأفراد بانتمائهم لمدن معينة، أعلن ديوجين في مواقف كثيرة أنه ينتمي إلى العالم أجمع وليس إلى مدينة معينة.

حدد أرسطو قيمة المدينة من خلال الرابطة الاجتماعية وحميميتها بالمجتمع، وربط تجسيد المدينة لفعل التنظيم، وتحقيقاً لنظام الجمال الأرضي، وعلاقته بالنمط الحضاري المميَّز من حيث كونها أساساً للنبع الثقافي، وفق مفهوم مدينة فاضلة عادلة.

اعتمد بلوتارك على إلغاء الفوارق والطبقات بين أفراد الشعب، ومحاربة الفساد المتأصّل في أجهزة الدولة، وألغى جميع مظاهر الترف، واعتمد مفاهيم البساطة في كل شيء بعيداً عن الفخامة والإسراف في النفقات، وأكّد على نوعيةٍ من العيش التي تهتم بالتربية الأخلاقية وتأديب النفوس بالزهد؛ وتقوية الجسم وتعلم فنون الحرب.

من خلال إيمان راسخ بالحاكم المطلق للمدينة، يرى فيتروفيوس أن المدينة يجب أن تعتمد على مجموعة من قوانين التنظيم العمراني الدقيق، تتحدد فيها المكونات المعمارية والعمرانية للمدينة وفق نشاطها وحجم سكانها، ومراعاة الانسجام الوظيفي/ الجمالي على شبكة محكمة من خدمات البنى الهندسية الأساسية.

بعد هذه المرحلة، اتجهت أفكار بناء المدينة الفاضلة إلى شمولية واسعة تنظر إلى العالم كله بوصفه مدينة واحدة، أو نموذج واحد يمكن تكراره، تنادي بالقانون الطبيعي، وتبشّر بالمواطن العالمي، من خلال إعطاء العقل منزلة رئيسية للتنظيم؛ فكانت الدولة الرومانية عبارة عن مدينة مكررة في الشكل والمضمون في أرجاء الإمبراطورية، تحكمها نصوص ونظريات فكرية فلسفية وقانونية.

اعتقد زينون بأنَّ الحياة الفاضلة هي علاقة النفس بالله، أكثر مما هي علاقة المواطن بالدولة معتمداً بذلك على نظرية الكون، وأنَّ الناس هم مواطنوا العالم، وليسوا مواطني بلد واحد، فنادى بالدولة العالمية، وعمل على فكرة المواطن العالمي.

أما شيشرون فيرى أنَّ الفضيلة فن رهين بممارسته، وأنبل مجال لممارسته هو المجال الأخلاقي الاجتماعي على مستوى المدينة

وإدارتها، ويعتقد بقانون طبيعي يحكم العالم من صنع الحكمة الإلهية، يصلح لكل زمان ومكان، لا تجوز مخالفته بقوانين بشرية. وتنقضي الوثنية لتلتئم المدن بفضائل المسيحية فتكتسب جلالاً خاصاً وتقديساً معتبراً، لكونها «تمثل النظام والجمال والأمن الإلهي»، على صورة مميزة للخلود السعيد، على شكل مدينة محصنّة ومغلّفة بغلاف من الذهب والأحجار الكريمة، بوصفها الشاهد على تلك الحضارة والوعاء الحامل لتراثها، فكانت «نمطاً حضارياً مميزاً بما تمثّله من علاقات ثقافية ودينية واجتماعية وحكومية»، وأصبحت المدينة دير الربّ؛ وهكذا اندمج الروحي بالمادي وتآلفا، واكتسبت المدينة بذلك جلالاً وقدسية، وأصبحت جنة أرضية.

ففي كتابه «مدينة الله» بنى القديس أوغسطينس تاريخ العالم على أنقاض كفاح بين حُبين: حبُّ الذات، وهي المدينة الأرضية، وحبُّ الله، وهي مدينة السماء؛ إحداهما تزهو بذاتها، والأُخرى بالربّ؛ إحداهما تطلب مجدها من البشر، والأُخرى تجد مجدها الأعظم في الله الشاهد على ضميرها.

وبالتفكير اللاهوتي نفسه الذي ساد في العصور الوسطى، تمّ إسقاط المدينة الفاضلة على العالم الآخر بالطريقة الصوفية والفلسفية التي نسجها القديس توما الأكويني، وكان منهجاً مشتركاً للمدن الفاضلة في عصر النهضة؛ حيث أسس المدينة على أفكار السعادة الإنسانية المعتمدة على المبادئ الأخلاقية؛ واهتم بالجوانب التنظيمية للمدينة من خلال إعطاء أنواع من الفخامة المعمارية والعمرانية للمباني الدينية والعامة.

وآل الأمر بعد ذلك إلى ظهور فكرة تفكيك الدين عن السلطة، فيخرج دانتي في مدينته الفاضلة على الكنيسة، ويُعلن توليه قيادة عصر التنوير ويعبر عن الكمال الإنساني، من خلال عالم المعرفة الذي يعني الوصول إلى الجنة الأرضية الحقيقية المتشكلة عند فهم الإنسان للقوانين الإلهية كعلم؛ يتطلع فيها إلى بناء مجتمع إنساني مثالي، عالم جديد أساسه العدالة والحرية والصدق والنظام والوحدة، والطهر والصفاء والأمل والحب.

وبظهور صراع المصالح، توصل مكيافيللي إلى أنَّ أساسا الدولة هما: القوة والحيلة، وكان أول من فصل بين السياسة والأخلاق؛ وطالب بجيش قوي ونخبة حاكمة حازمة للتخلص من رواسب المجتمع، ولو كان ذلك قائماً على انعدام الأخلاق في الظاهر والوسائل، مكتفياً بالحصول على المدينة الفاضلة ولوكان بالخداع والكذب.

ويستمر طرح فلسفة المدينة الفاضلة كونها رسالة أخلاقية ضرورية لاستمرار الحياة، تظهر كحلم في مفاصل التحول بتاريخ المجتمعات، ويمكن لحظ عدد من الأفكار المجددة للمدينة الفاضلة في مدونات عصر النهضة التي تسجل تصور الفلاسفة عن مدنهم بشكل متلازم مع الفضيلة من خلال أعمال هامة، أُسقط فيها التفكير اللاهوتي على شكل روايات تتضمن في ثناياها آراء وتصورات عن مشاريع متكاملة لمجتمعات مثالية فاضلة تقوم على التنظيم الاجتماعي في إطار مراسيم دينية حاسمة كما في «مدينة الشمس» لكامبانيلا، أو في «مدينة المسيحيين» لفالنتين أندريا و«دير تيليم» لفرانسوا رابليه؛ إضافة لظهور بوادر تأسيس حركة الإصلاح الديني والاقتصادي كما في «اليوتوبيا» لتوماس مور.

في الجانب الآخر، وبعد تأسيس المدينة الإسلامية النموذجية الناضجة من تلاقي الحضارات، ظهرت عدة أفكار حول المدينة الفاضلة تأسيساً على الفلسفة اليونانية؛ فمن خلال المدرسة الإنسانية ذات الأبعاد العاطفية والمنزع الأخلاقي، وضع الجاحظ آراءً قيّمة لتأسيس مدينته، واعتبر الخليفة عاهلاً زمنياً ورئيساً دينياً؛ واستخدم الدين نظاماً أخلاقياً ينمّي الفضائل في مختلف طبقات الشعب؛ وقرن قيام المدينة المتحررة بتوافر العقل الصقيل والحكمة على أنقاض ثقل العادات والتقاليد.

أما الفارابي فقد تأثر بمنهج مدينة أفلاطون، وطرح مدينته الفاضلة من خلال حكم مركزي قوي، يتولّى إدارتها رئيس أو ملك يكون أكمل إنسان، هدفه خلق مجتمع فاضل تتحقق فيه السعادة، واعتبر أنَّ المدينة الفاضلة، فاضلة بآراء أهلها وحسن نيتهم.

اعتقد إخوان الصفاء بملك قوي واحد، له في تلك المدينة جيوش ورعية وغلمان وحاشية وخدم وأتباع، وحكمه جارٍ في رؤساء جنده وأشراف مدينته وتنَّاء بلده، وحكم أولئك جارٍ في أتباعهم، وحكم أتباعهم فيمن دونهم إلى آخره؛ وإن ذلك الملك يسوس تلك المدينة وأهلها على أحسنها في مراعاة أمورهم.

ويرى ابن سينا أنَّ المجتمع تحكمه الأخلاق، واعتمد في تحديد الفضيلة على المدركات العقلية، وأهمل الحسية، وأوجب على الإنسان أن يكون لديه شوق وعشق لعالم المعقولات الأبدي الروحاني البريء من الفساد والتغيير والشرّ والزمان والحركة.

وتتأسس فكرة المدينة الفاضلة عند أبو العلاء المعري في العدالة الإلهية؛ ويرفض تدعيم سلطة الخليفة بالدين؛ حارب في مدينته تنازع المعتقدات وأساطير رجال الدين، ودعا إلى الحرية الفكرية والإبداع وفق عقيدة الفيلسوف الزاهد، المتمكن من المنطق كدليل أخلاقي، لتكون بذلك الفضيلة هي المكافأة الوحيدة لسكان المدينة.

في عهد تسوده المنافسة الشديدة على الحكم، أسس ابن ظَفَر على كيان الحاكم المُطاع، وقسم المدينة إلى حاكم وذوي القربى ورعية، وطالب الحاكم أن يفوض أمره إلى الله وأن يحسن التدبير والتصرف، وأن يستخدم الحيلة إلى جانب القوة ما استطاع، حتى يحافظ على نفسه وعلى حكمه، ونصح الحاكم بالإبقاء على الحد الأدنى من الحقوق للمحكومين، وإلا تمردو عليه.

بنظرة صوفية، ومن خلال العقائد الأساسية للحكمة الإلهية

الإشراقية، يعتقد السُّهْرَوَرْدي أنَّ الحكيم يأتي من مدينة «المثال» المبنية في مكان يعلو على أبعاد الحيّز الثلاثة؛ تلك المدينة التي تُحكم بقانون المعاني الباطنية القائمة على الرمز العددي للحروف والكلمات، الإنسان فيها كلمة من الله، وجعل من التصوف مسلكاً لدرب المدينة الفاضلة.

احتلت «المدينة الفاضلة» موقعاً أساسياً في معالجات ابن رشد، واعتبر أنَّ الهدف من الفضيلة هو تمكين أهل المدينة من تحقيق الكمالات الإنسانية، وجعل من الضرورة أن يتولى قيادتها فيلسوف؛ وانتصر للجمال ولكل ما هو جميل في تربية الإنسان، ونوه إلى أن انحراف الفن وانعدام الجمال هو بداية افتقاد الفضيلة.

بمسلك صوفي صرف، كان ابن عربي لا يرى في الوجود إلا الله تعالى أفعاله وصفاته، ويعتقد بالخروج عن الإيمان لكل من رأى معه غيره؛ ويشبّه مدينته بِمُلكٍ في قصر، بلاده بعيدة، وحراسه أشداء، وأسواره عالية حصينة؛ فحال الناس كَسَبِي في السعي للوصول إلى قمته بعبادتهم، كل منهم يدخل المملكة إلى مسافة قدر همّته في السير.

قدّم ابن خلدون حول المدن أفكاراً ناضجة استوحى معظمها من البيئة التي عاش فيها، ويرى أن فضائل المدن تأتي من رقي التفاعل الإنساني في المكان والإدارة الرشيدة؛ وأقرَّ بقيام المدينة من خلال توافر حاكم قوي يعتمد في تسيير إدارته على نظم عصبية، تتبدل مرحلياً إلى قوانين تحولية وفق احتياجات التطور الحاصل، وحذر من تدهورها عند انتشار مفاهيم الدعة والفساد والاعتماد على أمجاد السلف.

تلقى القرن الثامن عشر دفعة قوية من الأفكار الفلسفية الجديدة، نتيجة تأسيس الدول القومية، واكتشاف العالم الجديد؛ فحمل تنويراً وقدراً كبيراً من الحريات الشخصية، مؤذناً بولادة المدن الفاضلة التي تحكمها القوانين الوضعية بعيداً عما هو إلهي وديني، وباتت الفضيلة تنتشر في مصطلحات الطبيعة والمساواة بين البشر.

ويعد مورللي أهم من أسس على النزعة العقلية، ويتمثّل النظام العقلي عنده في تجمّع اقتصادي مركزي توجهه خطة اقتصادية واحدة تنظم إنتاج السلع وتوزيعها، من خلال دستور مجتمع مثالي قائم على قوانين الطبيعة والمساواة، واعتمد على قوانين صارمة في إدارة وتوجيه المجتمع لإظهار الفضيلة في أخلاقه؛ وتابع جان جاك روسو من بعده بالمنهجية نفسها في كتابه «أصل التفاوت بين البشر».

وفي ظل المدينة المكبلة بقيود الصناعة والميْكنة والتجارة؛ يقترح بودلير أن يضفي نوعاً من الصوفية والروحانية على مادية عناصر المدينة، وأن يوحّد بين أنوارها الاصطناعية وأنوار السماء الطبيعية، وبين شذا الأزهار ورائحة الغاز؛ مخرجاً بذلك سيناريو مدينة صناعية تعتمد على نظام الفضيلة المصطنع وسط موطن المتناقضات المميتة، وفضل هجرانها.

مُزقت الفضيلة في بداية القرن التاسع عشر، وباتت أشلاؤها تستر رقعاً من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية للمدينة، وفقدت الفضيلة معناها المجرّد عندما تضخّمت قائمة تفسيراتها؛ ومع الثورة الفرنسية والتطور السريع للصناعة، وتبلور النظم الاشتراكية، حاولت قلة من المفكرين الإنسانيين أن تخفف من البؤس المتفاقم للشعب، وذهب البعض إلى حد المطالبة بالمساواة التي دعا إليها الفلاسفة من قبل، وسعوا إلى الفضيلة من خلال الإصلاح، ووضعوا ثقتهم في حاكم عظيم يفهم الروح الجديدة

للعصر، ويقتنع بأهمية الفضيلة والحاجة إليها من خلال التجربة الناجحة للمجتمعات؛ وبدا أن زيادة الإنتاج لن تقف عند حد، ولا مانع من أن يعيش أي إنسان كما تعيش النخبة.

إلا أنَّ عدداً من فلاسفة العصر ذوي الاهتمامات الأخلاقية من أتباع فرانسيس بيكون، اعتقدوا بأن الترف سيؤدي حتماً إلى الفساد والانحلال، وأن التقدّم معناه تحسين أحوال الناس العقلية والجسدية والأخلاقية، وأن ذلك لن يتحقّق بالاهتمام الزائد بالسلع المادية، ولا بالانغماس الشديد في المتع واللذات التي تفسد العقل.

أما في المعسكر المقابل، فقد اعتمد فريدريك أنجلز على تحقيق الفضيلة من خلال بناء سلمي لمجتمع مدينة لا يعترف بالطبقية، ويمتلك وسائل الإنتاج كافة، ويخضع لمفهوم المساواة التي تحققها إدارة لا تخرج عن إطاره.

ويمكن القول إن الفضيلة في مدن القرن التاسع عشر كانت تنسج من منظور علم الاقتصاد على اعتبار أن المدينة ورشة كبيرة تدار بقوانين الإنتاج، مواطنوها عمالها، حاكمها رأس المال.

ويدخل القرن العشرون محدثاً أنوعاً عديدة من تشعبات الفضيلة، تبدأ بالثورة البلشفية في الشرق، ورأس المال في الغرب، ومدينة العرق الآري في الوسط، وتسعى باقي المدن إلى فضيلة تحققها من خلال الاستقلال عن نماذج الاستعمار؛ ويمرّ القرن العشرون بحربين طاحنتين؛ وتتجه المدينة الفاضلة بعد ذلك إلى التدهور في تفصيلات إدارية وتنظيمية ومهنية تخصصية، لتظهر نماذج المدن على شكلين: مدينة فاضلة برأسماليتها، وأخرى فاضلة بإشتراكيتها، وتظهر ملامح المدينة العالمية من خلال الفضيلة التي أطلقتها هيئة الأمم المتحدة على شكل شعارات واتفاقيات وخطط تنمية شاملة ومستدامة ومستمرة، يرافقها مفاهيم كالصحة الجيدة والتغلب على الفقر والحرية الشخصية والمساواة والعيش الكريم.

ويغلق القرن العشرون بابه على حصاد من التلوث الناتج عن التخلي عن كل مفاهيم الفضيلة ومشتقاتها، ويصبح العالم قرية صغيرة مختلة مشوّهة على رغم زينتها واختراعاتها؛ ويدخل الجميع باب الألفية الجديدة إلى مدينة يقودها الذكاء التقني الصنعي، وينتهي الحديث عن المدينة الفاضلة، وتتبدل الأولويات الأخلاقية، وتبدأ مرحلة خيالية متفائلة لمدينة ناصعة، خالية من التلوث البيئي، يُعتمد فيها على الحد الأدنى من استهلاك الطاقة الأحفورية والتوجه نحو الاعتماد على الطاقات المتجددة، واسترداد ما يمكن من مصادر الطبيعة المتهالكة؛ في مقابل خيالين متشائمين ينذران بنهاية المدينة: أحدهما نتيجة حرب مدمرة، والآخر طغيان التلوث وحكم الآلة والأتمتة.

الفضيلة والبحث عن المدينة

المدينة الفاضلة ليست أسطورة، ولا بد أن يكون لكل مدينة فضيلتها تستعيد فيها الهدف من الحياة باستمرار؛ ولكن يصعب طرح فكرة المدينة الفاضلة بشكل مدون على شكل مقياس مستنتج من نماذج المدن الفاضلة، سواء عبر مقارنتها أو دمج بعض منها واستبعاد الآخر؛ ويحتاج الموقف إلى أسلوب يخرج منه الكاتب دون المساس بثوابت الفلاسفة والحكماء حول هذا الموضوع.

ولهذا وقع الاختيار على وصف مدينة خيالية لها الاسم نفسه: «دمشق»، والموقع والمعطيات الجغرافية: بردى وقاسيون والغوطة متطابقة تقريباً، أضف إلى ذلك تشابه الأشياء كلها، باستثناء الزمن فكان عابراً.

المدينة الفاضلة المقترحة

مدينة تحمل فضائل المدن المعروضة جميعها؛ وهي أقدم مدن الأرض قِدماً، وأكبرها سناً، وأرسخها في الحضارة قَدماً، فيها العلم والأدب، والتقى والصلاح، فيها الحب واللهو، وفيها الفنون والجمال؛ مدينة عامرة قبل أن تولد بغداد والقاهرة وباريس ولندن، فيها تراكم تراث الحضارات، وإلى أهلها اليوم انتقلت مزايا كل من سكنها من سالف الدهر، ففي نفوسهم مثل ما في أرضها من آثار التمدن وبقايا الماضي، طبقات بعضها فوق بعض، فالحضارة تجري في عروقهم مع الدماء، وهم ورثتها وحاملوا رايتها، وهي فيهم طبعٌ وسجية؛ جمع الله لها جمال الفتوة وجلال الشيخوخة.

«مدينة قديمة لم ينخفض قَدْرها، ولم ينحطَّ عمرانها مع ما انتابها من تقلبات الزمان، مما يدل على عناية صمدانيّة أوجبت لها التفضيل والفضيلة على غيرها من المدائن»؛ فاستمرار حياة مدينة آلاف السنين، لا بد وأن يضع الدارس في صورة واضحة من المكونات الأخلاقية التي تفرضها قدسية هذه المدينة على قاطنيها، وعلى الرغم من التاريخ العنيف الذي عاشته هذه المدينة من حروب ودمار واستباحة، إلا أنها في كل محطة كانت تستحم من «مجرى الذهب» لتطهر الآثام، وترتدي ثوب الفضيلة المعهود من جديد.

يدعوها المستشرقون: «لؤلؤة محاطة بالزمرد الأخضر»؛ هي جنة المَشرق، ومطلع نوره المُشرق، وخاتمة البلاد وعروس المدن، تحلت بأزهار الرياحين، وتجلت بحلل سندسية من البساتين، وحَلت في موضع الحسن بالمكان المكين، وتزينت منصتها أحسن تزيين، ربوة ذات قرار ومعين، ظل ظليل، وماء سلسبيل، ولله درّ القائل فيها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تُسَامتها وتُحَاذيها.

أما سكانها فمن أجناس مختلفة، يصعب على المدقق إلحاق طوائف أهاليها بأجناسهم الأصلية لكثرة ما تقلب على هذه المدينة من الأحوال التاريخية، وهم قوم بالإجمال أخلاقهم حسنة رضية، يوصفون باللطف، أمناء ذوو شهامة وناموس ودعة ومؤانسة، رقيقو الطباع، حسنو المعشر سليمو النية والطوية، كرماء يحبون الغرباء ويميلون إلى السلام والسكينة والتودد، ويرغبون في البسط والانشراح والسرور؛ هذه الخصال نجدها بكل طبقاتهم ومراتبهم متأصلة تأصيلاً، والرجال على ماهم عليه من الشدة، يتصفون بالمروءة والإنسانية، وإذا تحامل عليهم أحد من غير طغمتهم، يحتملونه ويلاطفونه ويتلافون الأمر معه بالتي هي أحسن.

وعلى الرغم من تفاوت درجات ثروة سكان المدينة ومعرفتهم، فالناس على السواء متمتعون بلذة العيش لوفرة الخير ورخصه وتنوعه لدرجة تمكّن الفقير من أن ينالها كما الغني في المأكل والملبس والمتاع، ويبدو الحي في المدينة وكأنه دار أسرة واحدة يتشاركون البذل والعمل والعاطفة؛ أما بالنسبة للجمال فقد وزع بينهم توزيعا عادلاً فهو في جميع مراتبهم وطبقاتهم.

العربية هي اللغة الرسمية لسكان المدينة، وهي بلهجة لينة رقيقة حسنة لطيفة توافق طباعهم، فيها الكثير من الألفاظ العامية والمصطلحات المحلية التي يقبلها الذوق ولا ينفر منها الطبع، وهي قريبة من الفصحى أكثر من غيرها من لهجات المدن.

يتوزع سكان المدينة في خمس طبقات مادية: مستخدمو الحكومة، وأصحاب الأملاك، والتجار، والباعة، وأصحاب المهن.

أبنيتها ملتصقة بعضها ببعض، لا فسحة بين الدار والأخرى حتى كأن المدينة بناء واحد؛ لها مظهر خارجي بسيط موحد، أما من الداخل فهي دور فسيحة مزخرفة وفي صحنها برك محفوفة بالليمون والنباتات العطرية والأزهار الجميلة؛ أسواقها كثيرة، تتوزع فيها الحمامات المتميزة بالإتقان والنظام والهندسة والخدمة، وتنتشر القهاوي وتتفرق الخانات في أنحاء المدينة؛ وتتوزع فيها الكنائس والأديرة إلى جانب المساجد والمدارس بانتظام بالغ تتعانق فيه الأديان والطوائف؛ تشرب هذه المدينة من نهر ذي سبعة أفرع، سُطِرَ من الحكمة الإلهية، خطته يد الله على صفحة هذا الكون، يروي الفائض منه تربة خصبة يزرعها السكان ببراعة وفن، بحيث يغتلّون من الأرض الواحدة أربعاً حسب فصول السنة.

مدينة علم تلألأت بنور المعارف، نالت السبق في مضمار الآداب في عهودها السالفة، أشاد ولاتها المدارس والمكاتب وأنفقوا عليها الأموال الجزيلة، ووقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، فانصبَّ أهلها على العلم، فأفلحوا ونبغ منهم جمٌّ وافر من الأعلام ممن افتخر بهم المشرق ولا يزال، فسلسلة العلماء الأعلام لم تنقطع بوقت من الأوقات.

هي عاصمة الإيالة، ومكان إقامة الوالي؛ واردها يفوق خرجها، وقد عمل مأموريها على حفظ إيرادات الخزينة ومضاعفتها بتيقظ وانتباه وأمانة، واستخدموه بزيادة العمران، وأتبعوه بالاصلاحات اللازمة لزيادة الدخل، على اعتقاد منهم بأن الاستفادة من الثروات التي تتمتع بها المدينة لا يكون إلا باستقامة المأمورين والموظفين والمستثمرين وحفظ النظام وتطبيق القانون، يتحلى واليها بالكثير من العلم والشجاعة والعدل، حصَّنها وبنى المدارس والمشاهد ونشر العلم، يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف الظلم بنفسه، أوقف غلالاً هائلة للفقراء والأيتام والمساكين، وسعى لتخفيف الضرائب عن الأهالي، فمنع عدة منها، وألقى حجج

الديون عن الفلاحين، وتقرب إلى العلماء.

في تواتر سيرة المدينة الفاضلة المقترحة توج الناس بالفضيلة، وكان الأصل في السعي نحو الكمال، مع توافر نقاوة في القلب التي تمكن من الانتصار على كل نوازع الشر وإغراءاته، وممارسة الحياة البارّة؛ وعيش حب المدينة، وليس حب العيش فيها؛ وليس مجرد فعل الخير، بل محبة الخير؛ ليست اللذة، بل السعادة والفرح؛ كانت تفضيل مصلحة المدينة على المصلحة الفردية، مقابل رعاية كامل المدينة لكل فرد؛ كانت الفضيلة الحصول على الحقوق وتأدية الواجبات، كان التشريع فيها سيداً يطوي الجميع، لا يحتويه أحد؛ كان الانتصار للقانون لا عليه؛ كانت السلطة تكليف لا مطلب، كانت الإدارة خدمة ورحمة، لا مكاسب ومفاسد ومحسوبيات، كانت مسلكاً واحداً، لا دهاليز؛ كانت المدينة الفاضلة لديهم هرماً ثابتاً.

كان من الأسهل على الوجدان الحلم بمدينة فاضلة في الصحراء، أو في منتصف قاع المتوسط، أو على نجمة من نجوم سمائها، أو في برزخ ما؛ مدينة يتنقل سكانها على البراق، ويتحلون بالذهب والأحجار الكريمة، يتخاطبون بالشعر ويتنادمون بالألحان، يرتدون السندس والاستبرق، وغير ذلك؛ لكن حقيقة لم يكن ما عرض تعبير عن خيال، وإنما هو نقل حرفي من سجلات المؤرخين والرحالة وزوّار دمشق، والمطالع عن دمشق في أدب الرحالة والجغرافيين سيجد أن الوصف الذي تم عرضه عنها، هو وصف متواضع جداً عما جاء في نصوص تاريخية أخرى.

كلمة أخيرة

ليست الفضيلة مسألة تجريدية يحتكرها الفلاسفة وأصحاب الفكر، بل هي مسألة يومية في متناول الجميع، تؤثر في أخلاق المجتمع وفي الحياة المُعاشة في كل يوم وفي كل عمل منجز؛ وكل برنامج إصلاحي يمكن له استبعاد احتمالات الإخفاق على اعتبارات الأخلاق، وتصورات محسوسة للمشكلات المراد حلها واقعياً لا طوباوياً، في مصلحة المدينة لا دونها، وفق طرح شمولي لقائمة الفضيلة في ظاهرها وباطنها، فأنظمة الإدارة القائمة على أسس هذا الطرح هي اعتقاد مفتاح الحل لكل مشكلة، من كيفية السير في الشارع إلى تلك الغايات الكبرى التي لاتقف عند حدّ.

لم يتم التعرض للمشاكل العمرانية في دمشق بأي نوع من تصنيفاتها، لا إهمالاً لشأنها أو لعدم وجودها، ولكن إيماناً بأنها تحديات تخصصية يمكن تجاوزها باختصاص الفضيلة وحده؛ من خلال الاعتماد على مفهوم الفضيلة ليكون قاعدة أي عمل ينجز في ما اصطلحت عليه مكونات المدينة؛ وبما أن العمران هو حصيلة هامة من ممارسة أنواع الفضيلة ومراتبها وطبقاتها، فيجب أن تكون عملية مراقبة وضبط التنمية العمرانية والتحكم بها وفقاً لقوانين ونظم ومعايير وأسس ثابتة مبنية على مبدأ أخلاقي، لضمان الوصول بالإنسان إلى أرقى صور العيش الرغيد والحياة الكريمة وعلى أساس من المساواة والعدالة الاجتماعية، وعلى درجة عالية من الكفاءة في ممارسة مختلف أوجه النشاط العمراني ضمن المجتمع.

المدينة والفلسفة

اليوم الثاني

جبيل 6 تموز 2013

الحضور في المركز الدولي لعلوم الإنسان، الأونيسكو - جبيل.

اليوم الثاني، المحور الثاني: «الفكر والفلسفة في مكونات التنظيم المديني الحديث»

النقد الفلسفي للعمارة من مدرسة فرانكفورت الى مانفردو تافوري

المعمار: د. إيلي حداد
عميد كلية العمارة والتصميم في الجامعة اللبنانية الأميركية

إذا إستعرضنا الطروحات والنظريات المعمارية عبر التاريخ يبدو لنا بشكل واضح بأن مجمل النظريات التي كتبها المعماريون من العصور الاولى وحتى عصر النهضة كانت نظريات تقنية، حتى لو تطرقت بشكل عام الى علاقة العمارة بالفنون الاخرى أو بمسألة الثقافة كإطار أوسع. بالطبع، إن الفلاسفة، من أفلاطون وأرسطو الى فلاسفة عصر الانوار من كانط الى شيلر، شليغل وهيغل قد خصوا الفن باهتمامهم، متطرقين بشكل عام الى وضعية الفنون ضمن منظومتهم الفلسفية. لكن المحاولات الفلسفية الاولى لتقييم دور العمارة بشكل خاص بدأت في أواخر القرن الثامن عشر مع الفيلسوف الألماني غيورغ وليام هيغل الذي تطرق الى العمارة بشكل خاص ضمن رؤيته الشاملة للفنون وإن لم يكن أعطاها موقعاً مميزاً في أسفل الهرم المعرفي الذي يتبوأه الشعر.[1] لكن بحلول القرن العشرين ومع تفاقم الازمات الاجتماعية والسياسية والدور الذي بدأت العمارة تلعبه بامتدادها الطبيعي الى مسألة التنظيم المدني بدأت تظهر دراسات ومقالات نقدية تتناول العمارة بشكل مباشر في تحليلها لدورها ضمن إطار العملية التحديثية في المجتمع. وقد تطورت هذه الدراسات الاولية الى نظريات نقدية متكاملة في مرحلة لاحقة، على يد بضعة مفكرين أوروبيين كان أبرزهم المفكر المعماري الايطالي مانفردو تافوري.

مدرسة فرانكفورت النقدية

لكن قبل أن نصل الى تافوري، من المفيد التوقف قليلاً عند تجربة هامة تمثلت بمدرسة فرانكفورت للابحاث الاجتماعية، التي شكلت الارضية الأساسية للترجمات النقدية الفنية والمعمارية اللاحقة. تشكلت «مدرسة فرانكفورت» هذه كمركز ابحاث ضم بعضاً من أبرز المفكرين الألمان في القرن العشرين، ومنهم ماكس هوركايمر، تيودور آدورنو وهربرت ماركوز. وقد تاسست هذه المدرسة الفكرية عام 1923 على يد كارل غرونبرغ، استاذ العلوم السياسية، كمركز ابحاث متصل بجامعة فرانكفورت، لكنها بدأت فعلياً بالعمل مع الدعم المالي الذي قدمه لها فيليكس وايل. ومما لا شك فيه أن الثنائي هوركايمر وآدورنو كانا القطبين الابرزين في

1

هـذه المدرسة النقدية ذات الميول الماركسية الواضحة التي وسعت النقـد الماركسي بشـكل خاص بإتجاه القضايـا الثقافية وكان من أولى نتاجهـا كتاب تحليلي نقدي لما يسمّى بالـ «صناعة الثقافية». مـن خـلال هذا العمـل المشـترك تحت عنـوان «ديالكتيـة عصر الانـوار» قام المفكران بتعرية الأسس التـي ترتكز عليها الصناعة الثقافية ومن أبرز ظواهرها التلفزيون والسينما والفنون الاخرى. ربـط الناقدان بين نظرية التطور الحداثـي المبنية على عقلنة كل أوجه الحيـاة، والثقافة جـزء أساسي منها، وبـين طغيان النمط الاستبـدادي من خلال سيطرة العقل العلمـي على الطبيعة. لكن من تناقضات الفكر النقـدي هذا، أنه يستعمل الادوات العقلانية والعلميـة ذاتهـا في عمليتـه النقديـة، لكنـه، بنـوع مـن العمليـة الالتفافيـة نحـو الذات يقـوم بتدمير بعض الأسس التـي يرتكز عمله عليها. ولربما يكون هـذا القاسم المشترك، أو الامثولة التي أخذهـا تافوري من مفكري مدرسـة فرانكفورت، بحيث لا يتوقف النقـد عند أية حدود، بـل يمكنه أن يتحوّل جذريـاً الى نقد ذاتي لـكل الأسس التي ترتكز عليها الحضـارة أو الثقافة، ومن أبرزها المنهـج التجريدي (Abstraction)، الذي شكل الاداة الأساسية لفلسفـة الانوار، والتي تعاطـت مع الاشياء بطريقـة تجردها من قيمها الاصلية. فبالنسبة لآدورنو وهوركايمر، إرتكز عصر الانوار على المنهج العلمي كوسيلة أساسية للفكر، فحوّل التفكير الى أداة في مشـروع السيطرة علـى العالم. من هذا المنطلـق إنتقد آدورنو وهوركايمـر «الصناعـة الثقافية» كإحدى الدعائـم الأساسية في مشـروع التنوير، بحيث أن دور هـذه الصناعة الأساسي قد تحول بنظرهم الى تضليل مبرمج للمجتمع.

وقـد شمل آدورنو وهوركايمر ضمـن خانة «الصناعة الثقافية» في معرض نقدهـم هذا، النتاج المعماري والمدني وإن لم يركزوا عليه بشكل مكثف، إلا أنهم بدأوا حديثهم هذا بانتقاد «الحالة المدنية» بشكل عام، التي نتجت عن «التطور» الاقتصادي:

«إن المبـاني الصناعيـة المزخرفـة وصـالات العرض في البلدان

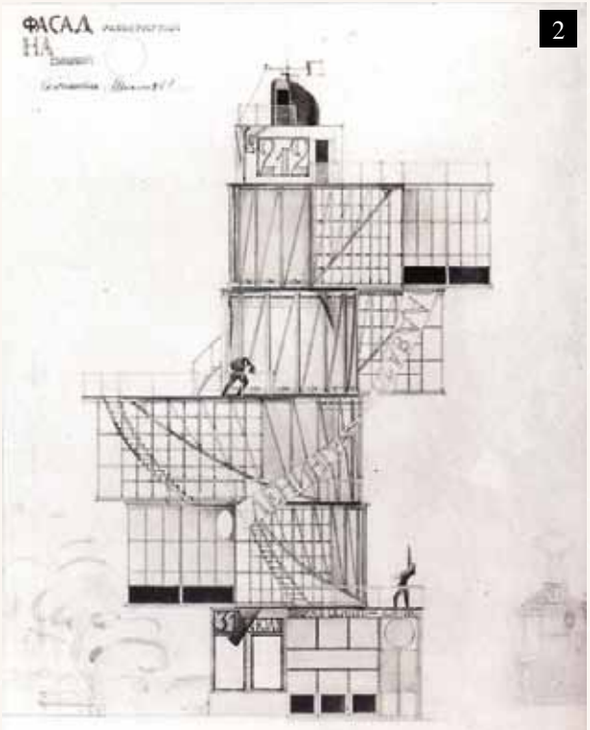

2

التوتاليتاريـة هـي نفسهـا في البلـدان الأخرى. الابـراج اللامعة التـي تنتصب في كل مكان هـي الدليل الواضـح للتنظيم الداهي للشركات العالمية، التي مهد لها الطريق النظام الاقتصادي الحر المتفلت من كل قيود، والتي أصبحت تشهد عليه مجموعات السكن وتجمعـات المبـاني التجاريـة في المدن الفاقـدة لروحيتهـا. حتى أن المنـازل القديمة خارج المـدن تشبه العشوائيـات، والتجمعات السكنيـة في الضواحـي تشترك مـع المنشـآت المؤقتـة للمعارض الدوليـة في تبجيلهـا للتطور التكنولوجـي، وفي تمنياتهـا بأن يتم الاستغناء عنها بعد مدة قصيرة مثل مستوعبات الطعام الفارغة. إضافـة الى ذلك، فـإن المساكن الاجتماعية التي مـن واجبها أن تؤمـن إستمراريـة الانسـان كفـرد ضمـن وحدة سكنيـة صغيرة معقمة، تحوّله في الواقع الى أسير للنظام المناهض له، أي السلطة المطلقة للنظام الرأسمالي».[2]

في هـذه المقدمـة الواضحـة الـدلالات مـن ناحيـة إرتباطاتهـا الايديولوجية، شخص آدورنـو وهوركايمر الداء الأساسي لمعضلة الحداثـة وترجمتهـا المعماريـة والمدنيـة، والتي رافقـت تطور كل النظريـات المعمارية الحداثية من فرانك لويدرايت الى كوربوزيه وغيرهـم. واصـل آدورنو وهوركايمـر تحليلهما لنظـام الصناعة الثقافيـة التـي حوّلت الارتكاز من الشيء بحـد ذاته الى النواحي الثانويـة مثل الأثر أو الشـكل بحيث يتم تجريد الشيء من أسسه، حتـى أنهمـا لم يجـدا في الادعـاءات الثوريـة للطلائـع الفنيـة (Avant Garde) التـي كانـت تدعـي مواجهـة للنظـام القائم

3

مـن خـلال أعمال غير نمطية، سـوى وجهاً آخـر للتسلط الثقافي عـبر إنخراطها في عملية التجديد في الـدورة الاقتصادية، وبهذه الطريقـة نجحت الصناعـة الثقافية في تحويل الفـن الى المجال الاستهلاكي، من خلال ترشيد بعض النشاطات الترفيهية ورفعها الى مستوى أرفع مما كانت عليه.

بعـد عملهمـا المشترك الـذي نشـر قبل إنتهـاء الحـرب العالمية الثانيـة، تابع آدورنو نشاطه منفرداً بأبحاث توزعت حول الفلسفة كإطـار عام، الموسيقـى الكلاسيكيـة، وكان هو إضافـة الى كونه ناقـداً، ملحنـاً محترفـاً للموسيقـى، كمـا موضـوع «الجماليات» ببعـده الفلسفي، ومن أبرز نتاجه في هذا المجال كتابين: «الجدلية السلبية» (1966) و«نظرية الجمالية» الذي صدر في العام 1970، بعـد وفاته. في هذا الكتاب الأخير، تطرق آدورنو بشكل معمق الى علاقـة الفن بالحداثة، لكن دون الوصول الى ختامات، إذ أن هذه العلاقة تبقى ملتبسة بالنسبة له، مبنية على التناقضات. الحداثة بالنسبـة لآدورنـو، مكونـة مـن لحظـات متناقضـة ومتصارعة: التحرر والانضباط، الابتكار والتقليد، التطور والبقاء. وكما تشير الباحثة هيلدا هاينن، فإن هذه التناقضات جعلت آدورنو يتبع مبدأ «الجدليـة السلبية» كالطريق الوحيد لرفضـ الواقع وكسر الطوق الذي تضعه التوافقـات الاجتماعية على الامكانية الفعلية للتحرر من النمط السائد.[3]

يبقى الفـن بالنسبة لآدورنو، آخر ملجأ يمكـن للانسان أن يعيش فيـه إختباراً حقيقياً، لا يخضع للنظام السائد. ففي وجه الحداثة و«الازمـة» الوجوديـة الناتجـة عـن قطـع العلاقـة بـين الانسان والاختبارات الحيّة، يصبـح الفن المجال الوحيد للتعاطي مع هذه الازمـة.[4] هكذا، وبوجـه النظريات التي تحاول عقلنـة أو شرعنة الوضـع القائم بإظهـاره كنتيجة طبيعية للتطـور التاريخي، يضع آدورنو نظريته القائمة على مفهوم «الازمة»، وهذا أمر سنعود اليه لاحقاً عندما نتطرق الى طروحات مانفرو تافوري.

أما في ما خص العمارة بشكل خاص، وفي إحدى مداخلاته النادرة ضمن لقاء مع إتحاد المعماريين الألمان بعد الحرب العالمية الثانية، بـدأ آدورنو مطالعتـه بالاشـارة الى إحدى المعضـلات الأساسية التـي تواجهها العمـارة في عصرنا، ألا وهـي إشكالية «الوظيفية» ومـا يترتـب عنها من علاقة الفـن بما هو غير ضـروري، بمسألة الزخرفـة ودورهـا، وصـولاً الى الجدليـة مـا بين العمـل اليدوي الحـرفي والمكننـة. وكما هو دائمـاً الوضع مع آدورنـو فهو لا يقدم حلـولاً واضحة بقدر مـا يطرح إشكاليات تتصـل بالبعد الفلسفي للوظائـف الانسانيـة ومنها الفـن والعمارة. من هنـا إنتقد آدورو التوّجه نحو الوظيفية المعززة بسيطرة تكنولوجية، الذي طغى على مفهـوم أكثر إنسانيـة للعمارة. وهذا أمر يثـير الحيرة من جانب ناقـد ماركسـي كان قد إنتقـد الترسبات البورجوازيـة التي تبدو العمـارة الحداثية عاجزة بالفعل عن التحـرر منها، ليعود فيفتح هذه الثغرة في المنظار التكنولوجي المادي للعمارة.

من هنا رأى آدورنو بأن عمل الفنان لا يمكن أن يستمر على طريق محـدد، بشكل ساذج ومـن دون وعي لهذا التناقـض البنيوي. بل يجـب علـى الفنان، كما المعمـاري بالطبـع، أن يكـون واعياً لهذه المعضـلات التاريخية التي أسست لمـا سمي بالـ «أزمة» في الفنون.

من هنا حدد آدورنو مسألتين على الفنان أن يلتزم بها:

أولاً، في مجـال الأشياء التي تحمل بعـداً إجتماعياً، عليه أن يأخذ بعين الاعتبـار الدور الذي تلعبه الاعمـال الفنية هذه في المجتمع، وهـذا أمر ضروري، خاصة في مسائل تتعلق بالتنظيم المدني حيث تواجه العمارة موضوع البعد الاجتماعي بشكل مباشر.

وثانيـاً، إن العمارة بنـوع خاص، تتطلب تأمـلات نقدية دائمة في مسألـة «الجماليـة» (Aesthetic) وارتباطهـا بالمفاهيـم التـي تم الاشـارة اليها سابقـاً، أي دور الحرفيـة، الزخرفة وغيرها في تشكيل العمل الفني.

وقـد ختم آدورنو مداخلته هذه بأمر ملفـت، حين أعاد الى طاولة البحـث مصطلحاً يعـود الى القـرون السابقة، وخاصـة القرنين الثامن والتاسع عشر وهـو مفهوم «الجمال» (Beauty) ليستنتج بـأن مقياس الجمال في عالمنا الحاضر هو قدرة العمل الفني على تقديم بعض الحلول للمعضلات التي تم الاشارة اليها.

4

مانفردو تافوري ودور العمارة

بدوره رأى مانفـردو تافوري في العمارة الحداثية مجالاً لإفرازات النظام الرأسمالي ورواسبه والـذي تصبح فيه المظاهر الشكلية، أي العمـل الهندسـي كشـيء بحد ذاته، مجـرد تفصيل في عملية تقتصـر علـى الجماليات دون التطـرق الى لب المشـاكل الناتجة عـن التطـور الصناعي. فالبرغم مـن إعجابـه في الفترة الاولى بمنهـج لوكوربوزيه التحديثي، عاد تافـوري لاحقاً الى إنتقاد هذه التجـارب من منطلـق سياسـي - إجتماعي يقترب كثـيراً من نقد «مدرسـة فرانكفـورت»، إذ تحـوّل الاعجـاب الاولي الى شك من إمكانية هذه الابتـكارات الفردية على إحداث أي تحوّل جذري في الوضـع القائم، وإن كانت مبدعة علـى الصعيد الفني البحت، إلا أنها تبقى محصـورة في إطار زمني وجغرافي وسياسي معين، كما انهـا تبقى خاضعة للنظام الرأسمالي العام الذي تنتج من خلاله وفي ظله.

تحوّل مانفردو تافوري، من خلال هذه النظرة النقدية المتسمة بالـ «التفكير السلبي» ذاته الذي رأيناه عند آدورنو، الى الرقم الصعب في مجال دراسة العمارة والى أحد الاركان الرئيسية في تأريخ ونقد العمـارة في القرن العشرين. أعمال تافوري، عبر أربعين عاماً من البحث والكتابة كانت دوماً تؤكد بشكل مباشر أو غير مباشر على العلاقة الوثيقة بـين العمارة والاوجه الاخرى من الحياة والثقافة والاجتماع، وإن كانت تتعـدى النقد في العديد من الاحيان لتشمل دراسـات تاريخية معمقة ورصينة عن الحـركات الفنية في عصر النهضـة أو عن رياديي العمارة الحداثية في القرن العشرين. لكن نظـرة تافـوري الشاملة كانت دائمـاً تفترض أن العمـارة جزء لا يتجـزأ من المسار التاريخي للحضارة بـكل تشعباته الايديولوجية والسياسيـة والاجتماعية فلا يمكـن الحديث عن العمارة بتجاهل لهـذه التشعبات التـي تفرض على الناقـد أو الباحث درجة عالية مـن الاطلاع والوعي والاحاطة بكل هذه الامـور من أجل الوصول من خلال ذلك الى فهم أعمق لماهية العمارة ودورها الحضاري.

إرتكـز تافـوري الى نظـرة تاريخية للامـور تستمـد جذورها من الفلسفـات الهيغيلية والماركسية، وقد كان لـه العديد من المواقف التي إتسمت إجمالاً بالتشاؤم تجاه إحتمالات ظهور «عصر نهضة» جديد أو تحقيـق «الاوطوبيا» الحداثية في ظل النظام الاقتصادي الرأسمـالي القائم. ظهر تافوري علـى الساحة المعمارية في فترة حفلـت بالتسـاؤلات حول دور العمـارة الحداثيـة في إعادة تكوين المـدن الاوروبيـة بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة وفي وقـت بدأت الاعتراضات تتزايد حول إنكفاء الدور الاجتماعي للعمارة وفشلها في إيجـاد حلول أكـثر إنسانية وأكثر إرتباطـاً بمحيطها. وقد أتت بعض هذه الانتقادات من داخل الحركة الحداثية بالذات من قبل الجيـل الثاني مـن المعماريين الحداثيين من أمثـال آلدو فان آيك وبرونـو زيفـي وآليسون وبيتر سميسون. في هـذه المرحلة الحرجة التـي شهـدت أيضـاً أزمـات سياسيـة وفكرية في الغـرب هددت «الكيان» الاوروبي ومفاهيمه الاجتماعية والسياسية، والتي أفرزت في ما بعد «الثورة المضادة» على العمارة الحداثية من قبل ما سمي بالحركـة الـ «مـا - بعد - حداثية»، ظهرت كتابـات تافوري النقدية لما سمّاه «الازمـة» المعمارية، وكانت أولى أعماله النقدية المتكاملة كتاب «النظرية والتواريخ في العمارة».[5]

في هـذا الكتـاب التأسيسـي تناول تافـوري العلاقـة المعقدة بين العمـارة الحداثية وبـين «التاريخ». فعاد بهـذه العلاقة الى بداية «الأزمـة»، وتحديـداً الى القرن الثامـن عشر مـع الاشكالية التي أثارهـا جيوفـاني بيرانيـزي من خـلال رسوماتـه المعمارية التي شكلـت، بنظر تافـوري، أطروحـات نقدية تتخطـى المجال الفني البحت لتطـرح مشكلة فقـدان المراجع وإمكانيـة «تشكيل» العمل المعماري الحداثي، فاتحـة المجال لإشكالية التاريخ وإستمراريته. ربط تافـوري بين إعتراضات الطلائع الفنيـة في القرن العشرين ورفضهـم للعلاقـة التاريخية وبين نـواة هذه «الأزمـة» في أعمال بيرانيـزي ليستنتج بأنها تكرار لحالة الارتبـاك ذاتها التي كانت قـد بدأت مـع برونلسكـي في عصر النهضـة. إستنـد تافوري في

5

عرضــه لإشكالية التاريخ الى أفكار الفيلسوف الألماني هيغل الذي تنبأ بنهاية الفن كوسيلة للمعرفة والتي ربطها تافوري أيضاً بفكرة «نهايــة التاريخ»، هذه الفكرة التــي حاولت ترجمتها هذه الطلائع الفنيــة في القــرن العشرين، من موندريــان الى فان دويسبرغ الى الحــركات الاعتراضية مثــل الدادا وغيرها. هــذه الحركات كلها رفضــت التعاطي مــع «التاريــخ» كبعــد ذات إستمراريــة وعلاقة متواصلــة مــع الحاضر، في محاولتها لتأسيــس تاريخ جديد مبني علــى نظرتها الشمولية والعدمية لواقــع جديد، لا يرتبط بالماضي أي إرتبــاط. قــد يكــون إستياء تافــوري من هذه الحــركات التي تتجاهــل البعــد التاريخي مرتبطاً الى درجة كبــيرة بتناقضها مع «الجدلية التاريخية» التي، كما نعــرف، شكلت الارضية الفلسفية للنظرية الماركسية.

وجّــه تافــوري إذاً نقده باتجاه هــذه المحــاولات اليائسة للطلائع الجــدد والتي أثرت على مســيرة العمارة الحداثيــة أشد التأثير، فإنقسمــت بحسب تحليله حيال هذا «المــأزق التاريخي» الى ثلاث توجهــات: الاول يتمثل بالذيــن حاولوا لعب دور الفنــان - الساحر الــذي يقــترب من نار الحداثــة والثــورة الصناعيــة دون الغوص فيهــا، ومنهم أنطونيو سانــت إيليا، مارسيل دوشــان وقنسطنتين ملنيكــوف، والثاني يتمثل بــرواد العمارة الحداثيــة الذين حاولوا الانخــراط في النظام الجديــد ومعالجة تناقضاته مــن الداخل، من أمثال لوكوربوزيه وميز فــان ديروه ووالتر غروبيوس، والثالث يتمثــل بالذين فضلــوا الانسحاب من المواجهة ومــن بينهم بعض المعماريين الألمان من الحقبة الاولى من أمثال بول بوناتز وهاينرخ تيسيناو، التي إتسمت أعمالهم برومانسية تسعى الى إيجاد نقاط إلتقــاء بين الاعمال الاكلاسيكية وبــين خصوصية المكان والتراث والجغرافيــا. نظر تافوري إلى التوجهــات الثلاث بالدرجة نفسها مــن الريبة والشك وهذا مــا يذكرنا بمواقف تيــودور آدورنو التي غالبــاً ما كانــت تنتقد بالطريقة ذاتها المظاهــر المختلفة للثقافة، دون رسم أية خارطة طريق لمواجهة «الازمة» أو الخروج منها.

هنــا لا بد من التوقــف قليلاً عند مفهوم «الازمــة» هذا الذي كان تافوري أول من طرحــه بشكل بارز في المجال المعماري. فـ«الازمة» بترجمتها المعمارية هي نتيجة هذا الوعي المفاجىء لحركة التاريخ ولعدم إمكانية ربط الاشياء بمفاهيم محددة، والتي بنظر تافوري بــدأت فعليــاً مع القــرن الثامــن عشر. قــد يكون هــذا المصطلح مرتبطــاً الى حد ما بمفهوم الازمة الاقتصادية عند كارل ماركس الــذي خصص له فصــلاً كامــلاً في كتابه عن «نظريــات القيمة المضافــة».[6] لكنه، في المجال الفني، يذكرنا هذا بأفكار وطروحات آدورنــو التي أثار من خلالها بشــكل واضح الى مسألة «الازمة» في معرض «نظريته الجمالية» التي أشرنا اليها سابقاً والتي تعبر عن حالة الانقسام تجاه مبادىء متناقضة تواجه الفنان في عمله. وقد تناول هذا الموضــوع أيضاً بشكل اقرب الى المجال المعماري المؤرخ الايطالي جوليو كارلو آرغان.

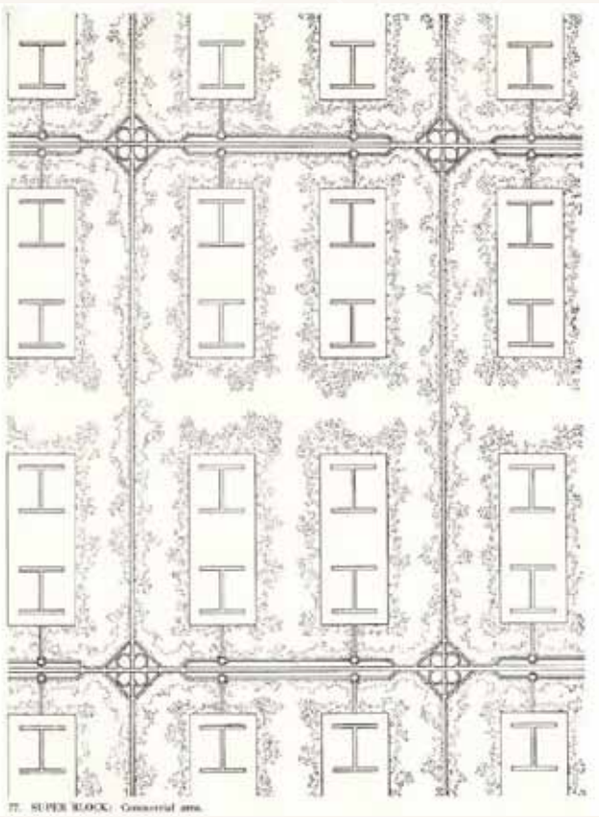

77. SUPER BLOCK: Commercial area.

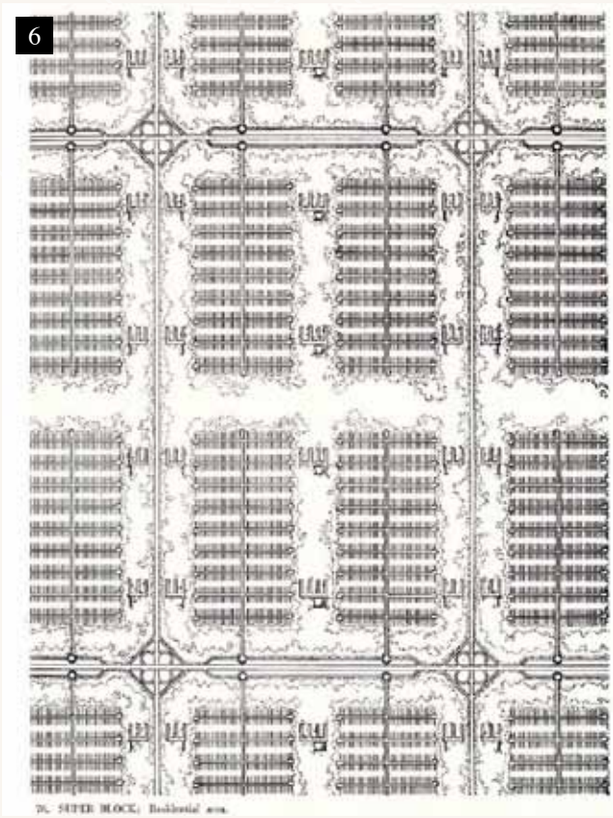

6

76. SUPER BLOCK: Residential area.

مما لا شك فيه أن تافوري تأثر بشكل مباشر بتجربة الناقد والمؤرخ الكبير جوليو كارلو آرغان، وقد أشار تافوري في معرض حديثه عن النقاشات النظرية في العمارة والتنظيم المدني [7] الى تأثير آرغان وأفكاره، والدور الذي لعبه في إعادة تصويب الدراسات المعمارية التي تتطلب المواجهة بين «الايديولوجيات الراديكالية» وبين مفهوم «الازمة». ربط تافوري أيضاً بين دراسات آرغان والدراسات السوسيولوجية لماركس ويبير وارنست ترولش ضمن رؤية مماثلة لإشكالية العمل ضمن المنظومة الحديثة التي أظهرت نزعة تاريخية نحو تهميش مجرى التصميم بدأ من عصر النهضة وحتى عصر الانوار، كتحضير للمهمات الجديدة الملقاة على العمل الفكري بإعتباره جزءًا من المنظومة العقلانية التي سادت في القرن العشرين. يشير تافوري في هذا المجال:

«هذا التحليل يتطلب مواجهة بين مفهوم الايديولوجيات الراديكالية ومفهوم الازمة. أما مفهوم الازمة، فهو يظهر في تحليل آرغان، كما عند ويبير وترولش، كمساهم أساسي في تكوين الايديولوجيا الحديثة للعمل، والتي تظهر مجدداً كأزمة الاوطوبيا في التصميم الفني، المحكومة بالاندثار في طريقها الى تأكيد مبادئها وأهدافها».[8]

هكذا يظهر بشكل جلي إرتباط مفهوم «الازمة» عند تافوري بأفكار آرغان من قبله، والذي إرتكز عليه لإعادة تصويب العملية النقدية والتأريخية للعمارة الحداثية من خلال تطوير مفهوم جديد للبحث العلمي، يخضع العمارة وإمتدادها المدني لأسئلة تتعلق بوسائل إنتاجها كما بخلفيتها الايديولوجية وتفرعاتها في مجال السياسة كما التنظيم المدني والادارة المدنية. ويختتم هذه المقالة بإعادة تأكيد الدور النقدي للعمارة:

«من المقدر للخطوط العريضة للنقد المعماري بأن تواجه المصممين بدراسات قد تزيد من حيرتهم وخجلهم. النقد بحد ذاته يأخذ إذاً شكل «التصميم في خدمة الازمة» وننتظر منه أن يؤدي الى عملية متواصلة من التفكيك لكل ما يظهر بمظهر الوحدة الكاذبة».[9]

هكذا إذاً تظهر أهداف العملية النقدية كتفكيك (لاحظوا إستعمال هذا المصطلح قبل رواجه فلسفياً ومعمارياً) للبنية الظاهرة للعمل الفني، وإظهار فشل إمكانية تكوين أي وحدة دائمة.

7

مشروع واوطوبيا

في الكتاب النقدي الثاني لتافوري «مشروع و أوطوبيا» (1973)، عاد ليركز على العلاقة بين العمارة والنظام الرأسمالي وعلى «الأزمة العقلانية» التي برزت مع بدء العمارة الحداثية في القرن الثامن عشر. في هذا الكتاب الصغير عاود تافوري قراءته للمعضلة التاريخية في العصر الحديث حيث إنقسمت الحركات الطليعية بين تلك التي سعت نحو إستقلالية الفنون عن المشاكل السياسية الاجتماعية، من خلال عملية إنسحاب تكتيكي من المواجهة مع الحداثة، وأخرى أصرّت على دور المثقفين والفنانين في تحقيق البرنامج الحداثي الذي ينظر الى الثورة الصناعية كتطور إيجابي على طريق تحقيق المجتمع المثالي. شكك تافوري بالمشروعين على حد سواء، فوجد في الاول تعبيراً عن «الوعي الخاطىء»(False-Consciousness)، فيما الثاني لا يمكنه إلا أن يذوب في النظام الرأسمالي بالرغم من أهدافه النبيلة. هكذا، وفي معرض نقده لهذه المظاهر، أبدى تافوري تحفظاً ظاهراً حتى في تقييمه لتجربة مدرسة الباوهاوس الريادية إذ نظر اليها بريبة واضحة، ليستنتج لاحقاً بأن العمارة الحداثية تحاول جذب المشاهد بطريقتين مختلفتين؛ من خلال تبسيط الصورة الى شكل فارغ ونقي وجاهز، أي إلغاء الشيء في العملية التكرارية، أو من خلال الظهور كـ «مسرح كامل»، كشيء جديد يمكنه أن يفجر الواقع ويحوّله الى «فضاءً غير موصوف». من جهة يضع أعمال ميز فانديرو، ومن الجهة الاخرى الاعمال الاخيرة لكوربوزيه. هكذا وصف تافوري الفراغات عند ميز فانديرو بأنها تحوّلت الى رموز: «كأشباح للثقافة الاوروبية أضحت بالفعل مجرد رموز».[10]

تجد العمارة نفسها إذاً، في قراءة تافوري، محكومة بهذه التناقضات التي أوجدتها الحداثة والتي تظهر بشكل واضح أكثر في النطاق المدني، أي في طروحات «المدينة الحداثية» ومن أبرز أمثلتها مشاريع لودفيغ هيلبرسايمر الذي حاول الوصول الى عمارة ممكننة تأتي كنتيجة منطقية للدراسات العلمية، حيث يلعب المعماري دوراً مختلفاً عن دوره التقليدي فيتحوّل الى مجرد منظم أو مدير للدورة الانتاجية وليس كمبدع فردي على مثال لوكوربوزيه. في هذا الاطار يتم إنتاج أشكال صناعية تتحول العمارة من خلالها الى منتج يخضع لعملية إنتاجية ممكننة. حملت مقاربة تافوري لهذه المحاولات لإعادة صياغة الاطار المدني نقداً مبطناً لأفكار الحداثة الاولى من لوكوربوزيه الى غروبيوس ووصولاً الى هلبرسايمر. في السياق نفسه إنتقد العمارة المعاصرة في أوائل السبعينات، التي حاولت الهرب من هذا الواقع عبر صياغة نظريات ترتكز على الدراسات اللغوية والبنيوية. من هذا المنظار تبدو تجارب الدراسات اللغوية في العمارة كمحاولات مفرغة بالنسبة لتافوري، إذ أن العمارة الحداثية كانت قد تخلت في الحقبات السابقة عن قدرتها على صوغ المعاني من خلال تجريد الاشياء، لتصبح هذه الاشياء مجرد رموز شفافة وخالية من المعاني في لعبة تنحو نحو الاستقلالية التامة وقطع الاوصال مع العملية التاريخية. وسيعود تافوري في كتابه الثالث الى نقد معمق لتجربة المعماريين المعاصرين ضمن إطار قراءة شاملة لتجارب الطلائع الفنية في القرن العشرين.

الكرة والمتاهة

في كتابه النقدي الثالث في هذه السلسلة وعنوانه «الكرة والمتاهة»، الذي يعتبره العديد من الباحثين بالمرجع الأساس لفكر تافوري حول العمارة المعاصرة[11]، تناول تافوري عدة مواضيع بدأ من التجارب التركيبية في الاتحاد السوفياتي وأحلام «المدينة الاشتراكية» في العشرينات، الى التجارب الحداثية في أميركا، مروراً بألمانيا قبل سقوطها تحت النير النازي ومختتماً بفصل مخصص للعمارة المعاصرة، إنتقد فيه مجدداً التجارب المعمارية المعاصرة التي وصفها هذه المرة بـ «العمارة في المخدع»، إذ أنها تلهو بالاشكال بينما تتجاهل المعضلة التاريخية الأساسية، أي علاقة العمارة بالواقع السياسي بمعناه الشامل، ومن خلال ذلك قدرة العمارة على المشاركة الفعلية، وليس الصورية، في تطوير الواقع الانساني، إقتصادياً وإجتماعياً وسياسياً.

في مطالعتي الاخيرة لهذا العمل المهم لتافوري، تبيّن لي وكأننا نقرأ بالفعل هنا تافوريان وليس تافوري واحد. فالفصول التي تتعاطى مع التجارب الفنية الراديكالية أو مع التجارب المعمارية الفردية يطغى عليها نوع معين من الكتابة يتسم بالسخرية الواضحة، فيما الفصول التي تتطرق الى التجارب السوفياتية والألمانية في التنظيم المدني الاشمل تتسم بالموضوعية ودراسة التفاصيل الدقيقة. هكذا يغوص تافوري في استعراض وتحليل التجارب السوفياتية في التنظيم المدني المرتبطة بالخطط التنظيمية الكبرى للمجتمع، فيستعرض تجارب سوفياتية عديدة من مشاريع ساكولين، شوسيف وشيستاكوف لإعادة تنظيم العاصمة موسكو الى مشاريع إنشاء مدن جديدة مثل بريفوليي، المخطط لها بالنمو بحسب الخطط الخمسية، أو سوكول، المصممة على طراز «المدينة ـ الحديقة» الانكليزية لتمتد على نصف مليون كلم مربع. لكن تافوري، بالرغم من إعجابه بهذه المحاولات الجريئة، إلا أنه لا يتغاضى كلياً بالنهاية عن توجيه إنتقادات لما آلت اليه تلك التجارب، مما إستدعى استيراد المهارات الألمانية من معماريين إشتراكيي الهوى أو ملتزمين من أمثال إرنست ماي، ماكس فوربات وهانس ماير في ثلاثينات القرن العشرين.

أمـا في ما خص التجارب المدنيـة في المانيا، فيخص تافوري مارتن فاغـنر، المديـر العـام للتنظيـم المـدني والاعمـاري لمدينـة برلين باهتمـام خاص، وهو الرجـل الذي لعـب بالفعـل دوراً أساسياً في تكوين العاصمة بمعظـم أحيائها الجديدة، كما بتجهيزها بالعديد مـن المجمعـات السكنيـة الحداثيـة (Siedlungen) التي لا تزال تطبـع المدينة الى يومنا. كان واغـنر، العضو في الحزب الاشتراكي الديمقراطـي، أحد المنادين بتسييس التقنيـة، أي بجعلها خاضعة للمشـروع السياسي الاوسـع. لكن هذه النظـرة السياسية للتنظيم المـدني لم تمنـع واغنر من الانفتـاح على وسائـل مختلفة في العمل السياسـي ومـن بينهـا تطويـر هـذه المشاريع الجديـدة من خلال شـركات خاصة أو مشتركـة يمكنها بتنافسها تأمـين نتيجة أفضل للمواطن من البلديات أو الحكومة المركزية.

وكما في برلـين، كذلك في فرانكفورت، لعب المعمـاري أرنست ماي دوراً بارزاً في تطوير المدينة وتجهيزها بمجمعات السكن الاجتماعي التـي فضـل ماي زرعها بعيـداً عن الوسط القـديم وضمن النطاق «الطبيعـي» متأثراً بأفـكار الانكليزي روبـرت أونوين. وبالرغم من خصوصياتهـا المميـزة وتحولاتهـا التيبولوجيـة المنوعة فـإن هذه التجمعـات السكنية تبقـى بالنسبة لتافوري نماذج لـ «يوطوبيات» منعزلـة ومحدودة، أكثر منه لمشاريـع بإمكانها تحقيق أي تغيير في الواقع الاقتصادي المدني الشامل. هنا أيضاً يعود تافوري لينزع عن هذه المشاريع الريادية صفتها التغييرية:

«إن مجمعـات السكن العمّالية، الممولة بأموال الاتحادات العمالية، تتكلـم بمجازية عن الفجوة ما بين هذه «الجزر العقلانية» والمحيط الرأسمـالي. من واجبها، ومن رغبتها أن تضمن مسافة بينها وبين المراكز المدنية والصناعية. نقاءها الشكلي يصدح كإتهام للمدينة الكبرى والمناطق الانتاجية».[12]

الركـن الثالث الذي يخصه تافـوري باستعراضه للتجارب الألمانية هو المعماري لودفيـع هلبرسايمر. وخلافاً للطريقة التبسيطية التي شملـه بها في كتابه السابق، فهو يخصص هنا لهلبرسايمر مساحة أوسـع لطروحاتـه من خـلال قراءة دقيقـة لكتابه «عمـارة المدينة الكـبرى» والتي يلقي فيهـا هلبرسايمر الضوء بوضـوح على تكوين المدينة الحديثة. هنا يستشهـد تافوري بأقوال هلبرسليمر ويقتبس مقطعاً كاملاً:

«إن النمـط الجديد للمدينة الكـبرى يعود تكوينه قبل كل شيء الى العامـل الاقتصـادي للامبرياليـة الراسمالية، المرتبطـة بدورها بتطور العلوم وتقنيات الانتاج .... هكذا تظهر المدينة الكبرى كنتاج لرؤوس الاموال المسيطرة والمجهولة الهوية. إضافة الى ذلك، هكذا نـوع من المدن تتمتع بأسسها الاقتصاديـة والاجتماعية والنفسانية الخاصـة بهـا، حيـث نجـد في الوقـت ذاتـه الانعـزال الاقصـى والاكتضاظ الاكثف».[13]

في وجـه هـذا الاكتظاظ، لكـن دون التطرق الى مسألـة الانسلاب الـذي يقـع ضحيته مواطـن المدينـة الحديثة، يطـرح هلبرسايمر مشروعه لتنظيم المدينة بشكل نمطي، خاضع للمعطيات الإسكانية البحتـة، وكأنه بذلك ينخرط كليـاً ضمن النظام الاقتصادي الذي تحدث بالبدء عن سلبياته. يحلل تافوري هذا بقوله:

«في وجـه تشتـت «الجزر التعاونيـة»، وفي وجه اليوطوبيـا المعمارية التـي تحقق نوعاً مـن «الاشتراكيـة الانسانية» يطـرح هلبرسايمر مشكلـة «المدينة ـ الماكنـة» بوظائفها المستوعبـة، والموضوعة بشكل مثـالي ضمن نطاق التطـور الرأسمالي، مـن دون غض النظر عن إمكانية مشاركة السلطات الحكومية والبلدية..... لكن الصور التي ترافـق نص هلبرسايمر تبدو متناقضة. من جهة نجد صوراً تؤشر الى عمـارة مجردة مـن قيمتها ومن أية ميـزات خاصة، ومن جهة أخـرى تبدو وكأنهـا صور لمجسمات نظرية صافيـة للتنظيم المدني ... لا تصلـح هنا التحولات الشكلية التـي إختبرها إرنست ماي في فرانكفـورت ولا الاختبـارات الغريبة لبرونو طـاوت. التنظيم يبدو جلياً بكل مظاهره الكاريزماتيـة كتوجيه حتمي، مفتقد لأية علاقة حسية، ومن دون اي إدعاء نبوي».[14]

هكـذا تبـدو «المدينة الكـبرى» بحسـب نظرية هلبرسايمـر كخيار راديـكالي مختلف عن نظريات أونوين الجماليـة، أو برونو طاوت، أو المشاريـع المحـددة في برلـين وفرانكفورت. لكنهـا بالطبع تبقى طروحـات نظريـة لم تترجم، وعلى ارجح لا يمكـن أن تترجم على أرضـ الواقع، إلا أنه من الواضح بأن تافـوري بات هنا ينظر اليها بشـكل مختلـف عـن الطروحات الأخـرى التـي سـادت في القرن العشريـن، فيبـدو هلبرسايمـر هنا متمايـزاً وأكـثر راديكالية من زملائـه الذين حاولوا الوصول الى نـوع من المساومة التاريخية بين المشروع الحداثي والبنية الاقتصادية.

بين تافوري وآدورنو

الترابـط الفكـري بين تافـوري وآدورنـو كان قد أشار اليـه الناقد والمفكـر الماركسي فريدريك جيمسـون في إحدى مقالاته 15، حيث إنتقـد مواقـف تافوري، التـي تقفل الابواب في وجـه أي أمل لتغيير الوضع الراهن والتي تنسحب بالنهاية الى مجرد إحتفاء بالصمت، هـذا الصمت الذي رآه تافوري بنوع خاصـ في أبنية ميز فان ديرو المنتصبة في وسط المدينة المعاصرة.

لكـن بالرغم مـن سلبيتها الفكريـة التي تلتقي بسلبيـة آدورنو كما أشـرت، فإن توقعات تافوري منـذ السبعينات ورؤيته هذه لما يسمى بالـ «تطور المعماري» ظهرت نتائجها فعلياً في عصرنا الحالي حيث تم تجريـد العمارة مـن أي دور إجتماعي أو سياسـي لتبقى مجرد

«صـورة» يتم نقلها واستنساخهـا وإستيرادها بشكل بات يتعدى كل الضوابط السابقة من علاقـات حسيّة أو معنوية بالمكان أو الثقافة أو المجتمـع. ولعل الابتذال الحاصل في عصرنا وفي كل البلدان التي تشهد حركة عمرانية واسعة لهو أكبر دليل على إزدياد هذه «الأزمة» التي تحدث عنها تافوري، والتي جردت العمارة من إمكانية لعب أي دور فعلي في تطوير المجتمع المعاصر. من هذا المنطلق يمكننا أن نرى أيضـاً أن بعض المحاولات اليائسة لإعـادة إحياء مفاهيم «ما ـ قبل ـ حداثية» تتسـم بالنوستالجيا ذاتها التي طبعت التجارب الريادية السابقـة لإبتـكار مجتمع «مثـالي»، فيما تطور الخيـار «الابداعي» التكنولوجـي المدعـوم بتقنيات الرسـم الآلي والمحرر مـن أية قيم إنسانيـة قـد أدت بدورها الى الهروب الى الامـام نحو عملية إنتاج مفتوحة ومتفلتة مـن أي نقد عقلاني مما يوصلنا في نهاية المطاف الى الغرق في مستنقع الصور والاشكال الاستهلاكية الزائفة.

أما مـن الناحية المدنية، فإن توقعات تافـوري ورؤيته الصائبة عن تداخـل المصالح السياسيـة والاقتصادية في اللعبـة المعمارية تجد أفضـل تجلياتهـا في واقعنا المحلـي والاقليمي حيـث تحوّلت مسألة التنظيـم المـدني الى عمليـة ميكانيكيـة مجـردة مـن كل الأسس والمفاهيـم الانسانية، تطغى عليها المصالـح، إن لم نقل الصفقات الاقتصادية المشبوهة، مما يؤدي الى تدمير ممنهج للاطار البيئي كما للحيّز العام. وليست المشروع الانشائية الكبرى من شق طرقات داخـل النسيـج التاريخي للمدن، أو تحويل هـذه المناطق التاريخية الى «متاحـف رمزية» يمكن تصنيفها ضمـن خانة «التراث»، سوى تذكـير بسطـوة المنظومـة الهندسيـة ـ التقنيـة علـى كل المفاهيم الانسانيـة الاخـرى، ممـا يعيدنـا أيضـاً الى إنتقـادات مدرسـة فرانكفـورت للمشروع الحداثي ككل. لكن مـن الخطأ إستنتاج نقد مدرسة فرانكفورت أو مشروع مانفردو تافوري بأنه دعوة للارتداد الى مفاهيم أو أنماط ما قبل حداثية، إذ أن هذا الخيار يبقى خياراً رجعيـاً وغير ممكن في كل الاحوال، بل تبقى دعوتهم دعوة مفتوحة لممارسة النقد حتى الوصول الى جذور المعضلات القائمة، على أمل أن يتم إختراق بعض هذه المعضلات الى ما هو أفضل.

(Endnotes)

1. G.W.Hegel. Introductory Lectures on Aesthetics. Penguin Classics, 1994
2. Max Horkheimer & Theodor Adorno.«The Culture Industry: Enlightenment as Mass Deception» in Dialectic of Enlightenment. Stanford Univ., 2007
3. Hilde Heynen. «Architecture between Modernity & Dwelling: Reflections on Adorno's Aesthetic Theory» in Assemblage 17, 1992 (7891-)
4. Theodor Adorno. Aesthetic Theory. Univ. Minesota, 1998
5. Manfredo Tafuri. Teorie e Storia Dell' Architettura, 1968
6. Karl Marx. «Crisis Theory» in Theories of Surplus Value, in The Marx-Engels Reader. Ed. Robert Tucker. Norton, 1978
7. «Main Lines of the Great Theoretical Debate over Architecture and Urban Planning 19601977-» in A+U (Jan 1979, p.136154-)
8. A+U (p.148)
9. A+U (p.154)
10. Manfredo Tafuri. Architecture & Utopia. MIT Press, 1979
11. Manfredo Tafuri. La Sfera e il Labirinto: Avantguardie e architettura da Piranesi agli anni' 70. Turin; Einaudi, 1980
12. Tafuri. The Sphere and the Labyrinth. MIT Press, 1990 (p.214)
13. Tafuri. The Sphere and the Labyrinth (p.219)
14. Tafuri. The Sphere and the Labyrinth (p.221222-)
15. Fredric Jameson. «Architecture and the Critique of Ideology» in Architecture, Criticism, Ideology, Joan Ockman, ed., Princeton Arch. Press, 1985.

لائحة الصور:

1 ـ جيوفاني بيرانيزي ـ من سلسلة رسمات السجون.

2 ـ ملنيكوف ـ مشروع إفتراضي.

3 ـ كوربوزيه ـ فيلا شتاين.

4 ـ بوناتز ـ محطة قطار شتوتغارت.

5 ـ ميزفان ديروه ـ المركز الفدرالي في شيكاغو.

6 ـ هلبرسايمر ـ مخطط المدينة الكبرى.

7 ـ برونو طاوت ـ مشروع بريتز في برلين.

8 ـ ارنست ماي ـ مشروع ليندنهوف في فرانكفورت.

م. د. رهيف فياض، و م. د. مصطفى المزوغي.

اليوم الثاني؛ المحور الثاني: «الفكر والفلسفة في مكونات التنظيم المديني الحديث» الأبعاد الوظيفية والتقنية والثقافية للمدينة قراءة في أثر أطروحات الفكر الحداثي على تشكيل العمران المديني

المعمار: د. مصطفى محمد المزوغي / ليبيا

كيف يمكن للمدينة أن تولد ؟

هل يكون ذلك بدافع رغبة الانسان، وحاجاته، أحلامه، أم فكره وقراءته الفلسفية؟

تولد المدينة، وينمو عمرانها وتكتسي عمارتها تعابيرها، ويولد معها سؤال صنعها، فالمدينة رهينة الحاجة والحلم والفكر، تارة نجدها من صنع «رغبات» الرجال كما يكتبها إتالو كالفينو Italo Calvino في مدنه اللامرئية، فالمدينة البيضاء وليدة حلم الرجال المشترك على لسان ماركوبوللو، حين رسم كل منهم شوط مطاردته للمرأة العارية في المدينة بشكل مختلف عن الحلم حتى لا تتمكن من الفرار، أم كحلم رجل واحد كالامبروطور المغولي أكبر في بناء مدينة الفتح الصوفية التي هجرها سكانها لشح المياه بها، وتارة أخرى نرقبها كمدينة يحاول نظم نسيجها فكر المخططين كشانديغار Chandigarh لوكوربزييه Le Corbusier، وبرازيليا New Brasilia لوسيو كوستا Lucio Costa الجديدة، كلاهما أنشئت لموظفي الحكومة، وكلاهما أخفقا في توطين روح المجتمع الهندي والبرازيلي...

هنا تباينت أطروحات الفكر في ذلك بل وبلغ اختلافها أوجه مع بدايات الانقلاب على كلاسيكيات التخطيط المديني تلبية لنداءات الضغط الصناعي في بدايات القرن العشرين. صاحب ذلك ما أقره اجتماع CIAM على ظهر باخرة مبحرة إلى أرض اليونان سنة ١٩٣٠ في وثيقة أثينا Athens Charter بشأن المدينة الوظيفية Functional City المؤسسة على المدينة الإشعاعية Radiant City بتوقيع لوكوربزييه، ذات المُنَظِر الذي كان ينشد مدينة الغد الألية المنظمة الرافضة للهيئة المدينية الموروثة والسائدة في القرن التاسع عشر بكل فوضويتها، هذه المنظومة المدينية الآلية «الفاضلة» واجهت تحديات الواقع الاقتصادي والثقافي.

مالذي يقابل كل ذلك في واقعنا المديني اليوم ؟، إنه الواقع العمراني الذي أضحى قضية تشغل الطرح الفكري المعاصر، فتمتد القراءات انطلاقا من طرف نظريات معقدة كتلك التي تقف على ظاهرة محاكاة النمو العمراني ومراقبته من خلال منظومات رقمية، تبحث في أن ما ساد منتصف القرن العشرون من قناعات حول المدن بأنها خاضعة للتنظيم والنظام وبالتالي فالتوقعات التخطيطية كثيرا ما تتوافق وحقائق الواقع كانت قراءة خاطئة. تطالعنا اليوم أيضا أطروحات رم كولهاس Rem Koolhaas، وهو الأخر يرثي تارة ويبتهج تارة أخرى حول قراءته لعمارة وعمران

اليوم، حتى أنه يجد حال العالم اليوم بدون عمران، ووحدها العمارة التي تفترش المكان. يجد موت العمران هو سر لجؤنا إلى الشعور بالأمان الطفيلي في العمارة.

ما تحاول أن تطرحه هذه الورقة هو الحاجة إلى إدراك الابعاد الوظيفية، والتقنية، والثقافية التي تسكن العمران المديني الطبيعي في توافق وتوازن عبر أجيال قاطنيه، ومقارنته بما يبدوا لنا الاخفاق الذي حالف التخطيط العمراني للمدينة، إن القراءات التقنية، امتدت منذ مهد الحداثة في أواخر القرن التاسع عشر، وحتى أوجها في أطروحات الأرشيغرام Archigram والميتابوليزم Metabolism، ليستقر حالها مع روادها اليوم، بتطعيم عمران مديني قائم بجرعات التقنية المعمارية كما نجدها في أعمال رينزو بيانو Renzo Piano وريتشارد روجرز Richard Rogers ونورمان فوستر Norman Foster. أما القراءات الثقافية فعلى الرغم من تشعب فروعها إلا أنها تشترك جميعها في الدعوة إلى أهمية إدراك رصيد العمران المديني الطبيعي في مواجهة التخطيط العمراني، فالتنوع للقراءات العقلانية، وأطروحات كيفن لينش Kevin Lynch، وجدليات كريستوفر الكساندر Christopher Alexander وألدو روسي Aldo Rossi، والأخوين كراير Leo، Rob Krier، وقناعات حسن فتحي، وغيرهم جميعا يشددون على البعد الثقافي الإنساني للعمران المديني. كلتا القراءاتان تأتيان لسد العجز التخطيطي الحداثي ومعالجة القصورالفكري الذي انفرد بالقيمة الوظيفية دون إعتبار للتوازن المكاني الانساني المنشود في العمران.

إن الجدل هنا لا يستهدف تقييم أطروحات الحداثة أو حتى عرضها للنقد بالقدر الذي تطمح فيه إلى استعراض المحاولات الفكرية التي سادت القرن العشرين وتباين أطروحاتها ضمن محاور الوظيفية والتقنية والقيم الثقافية العمرانية، فقد يكون في ذلك السبيل لفهم العمران المديني الذي نسكنه، وإدراك الحاجة إلى مراجعة مداخل الحلول التخطيطية لها، لا سيما إذا ما تم تبني أن الطرح الفكري القائل بأن عمران اليوم لن يعنى «بالجديد» بالقدر الذي ينشغل فيه «بالكثير» و«التحوير». بتقييم حالة العمران المديني الذي نسكنه في مدن ولدت طبيعية، لتضفى عليها محاولات بدايات القرن العشرين التخطيطية الاستعمارية بعدا يعيشه سكانها حتى اليوم إلى إخفاق القرار التخطيطي في مواجهة النمو العشوائي، يدفعنا بعنف للتساؤل عن مستقبل العمران المدينى المجهول، وفاعلية المواجهة التخطيطية له .

عندما تحدث أحد سكان مدينة شانديغار مختصراً الوصف إلى ما آل عليه الحال في المدينه بقوله «صحيا نحن متقدمون، إجتماعيا نحن متخلفون»[1]، كان ذلك يبدوا وكأنه لسان حال القصور الذي يشوب الطرح التخطيطي للمدن المتحمس للحس التنظيمي الوظيفي الذي لم يفسح المجال للبعد الثقافي لسكان المخطط الجديد، ذلك البعد الذي يتعذر التنبؤ بمسار تبلوره، فهو نتاج التفاعل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمجتمع الانساني المدني، الذي كثيرا ما يتم في مسارات المدينة وحجراتها. إن الاخفاق أو النجاح الذي يحالف أي تخطيط مرهون أساسا بتوافق الواقع والتوقعات التخطيطية، وهذه التوقعات قد تكون موضوعية في مستوى التعامل والرؤية الوظيفية، فالطرح الحداثي الذي يقرأ العمران المديني كمناطق للعيش، وأخرى للعمل ، وأخرى للترفيه تربطهم شبكة للمواصلات من مسارات. لم يتمكن من قراءة القيمة الاستعمالية لتلك المناطق أو المسارات الرابطة بينها. فالقيم الاستعمالية ، التي يتعذر التنبؤ بها، تتبلور ضمن مستويات التفاعل الانساني المكاني، وتضبطه العادات والتقاليد والأعراف.

خلص الاجتماع الرابع لمجموعة سيام سنة ١٩٣٣ بإصدار وثيقة أثينا التي كان تأثيرها التخطيطي ملموساً في تعريف المدينة الوظيفية[2] Functional City إبان الحرب العالمية الثانية، هذه القراءة التخطيطية التي اعتمدت على استعمالات المناطق مستندة على الإحصائيات لتوقعاتها، كانت قد وضعت سلسلة

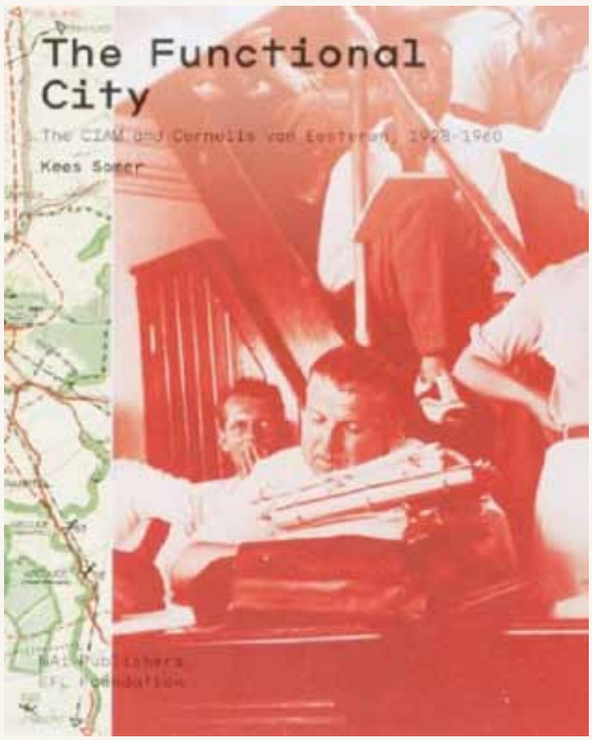

(1) http://architecture.unl.edu/projects/housingissues/pages/readings/PDF/Brolin_read.pdf

(2) The Functional City - The CIAM and Cornelius van Esteren, 1928 – 1960, edited by Kees Somer

من الارشادات التخطيطية شكل البعض منها اليوم مختنقات تخطيطية يدفع سكان المدن ثمنها الباهض. فالمناطق السكنية التي أوصي بأن تحتل أفضل المواقع، وأن تتمتع بحد أدنى من أشعة الشمس، كما أن لغرض توفير مسطحات خضراء يجب أن تكون قواطع الاسكان رأسية ومتباعدة، وبغرض التقليل من زمن التنقل، فلقد تمت التوصية بمجاورة المناطق الصناعية للمناطق السكانية مع عزلها بالمناطق الرياضية والمنتزهات، وتكون عرض المسارات محصلة الحساب في تقدير نوع المواصلات وسرعتها!. إن ما يطرحه فان ايسترين van Esteren بأن التكوين التخطيطي يعكس تخطيط عمراني «علمي»، فهو كرؤية تخطيطية كانت قد استندت على البصيرة في إدراك أهم جوانب الحياة الاجتماعية واختزالها في إسكان، عمل« ترفيه ، وكلها مرتبطة بالمواصلات[٣]، يبدوا وكأنه التأسيس للمفهوم القائل بأن المدينة هي آلة للعيش الجماعي، وأن المدينة الوظيفية هي أحد مرادفاته اللغوية. إن الحس الآلي وليد منظومات التشغيل المديني، من بنى تحتية، تغذية وصرف، مواصلات وخلافه، جميعها سمات المدينة الحديثة كما يطرحها الفكر الحداثي.

المدينة والدور التقني في تشكيلها

شهدت ستينيات القرن الماضي حركة طلائعية عرفت بأطروحاتها الفكرية النظرية أكثر منها مشروعات حقيقية، هذه الحركة كان في قيادتها ستة معماريين بريطانيين أطلقت على نفسها اسم «أرشيغرام» Archigram (architecture + telegram)، حيث لا زالت رسوماتهم مصدر الهام كما كانت لفكرة المجمعات العملاقة mega-structures، هذا الفريق من المعماريين Peter Cook, Warren Chalk, Dennis Crompton, David Green, Ron Herron and Michael Webb عملوا على نشر

(3) Ibid, p.131

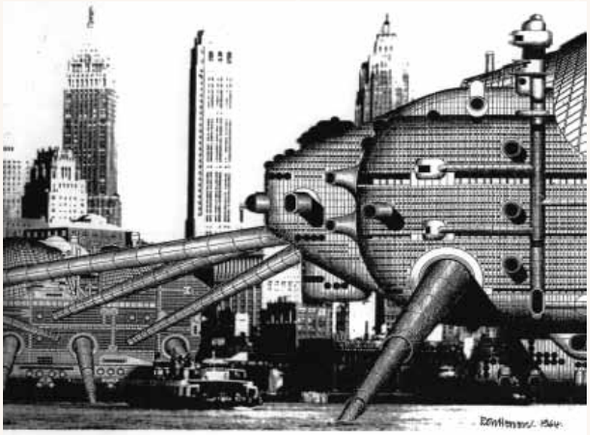

أفكارهم من خلال محلة أطلق عليها اسم أرشيغرام، لقد تجاوزت أفكارهم الحدود المألوفة للعمارة والعمران، وأثرت في عدد كبير من الحركات الثقافية من خلال التعبير عن افكارهم حتى بداية السبعينيات. عمرانيا، عرفت هذه الحركة بمشروع المدينة المتنقلة The Walking City سنة ١٩٦٤، التي تأتي كنتاج تقني يحاكي بيئة الحشرات ، متأثرة بمقولة لوكوربزييه «البيت آلة للعيش» من مباني ذكية قادرة على التنقل وبحجوم عملاقة يمكن لها أن تجوب الأرض، والمحيط الافتراضي كبيئة معيشية هو ذلك العالم الذي دمرته الحرب الكونية الذرية!. مشروع Plug-In City سنة ١٩٦٤، هو الأخر مقترح تقني من هيكل عملاق مهيأ لاستقبال خلايا أو مكونات معيشية قياسية ليتم نظمها في الهيكل آليا. المدينة الفورية Instant City، مشروع مدينة تقني تأتي كحدث متنقل يحط في مدن بائسة جوا بواسطة مناطيد بمنشاءات مؤقتة بغرض خلق حوافز لتنشيط «ثقافة» عامة بتوظيف جماليات الاعلان والدعاية، وعند الرحيل لا يبقى منها سوى مراسي تقنية متطورة. ولم يكن الاختلاف ظاهرا سوى في مشروع المدينة المعدلة Tuned City، الذي يقترح الإضافة والإقتران بعمران قائم بنسبة تكفل حضور دليل التطوير العمراني السالف بدلا من العمل على اخفاؤه كليا.

إن السمة التقنية التي صبغت محاولات الميتابوليزم كحركة فكرية (معمارية) عمرانية، يقدمها كيشو كوروكاوا Kisho Kurokawa، كأحد المنظرين لهذا الخط، الذين قدموا البيان «Metabolism

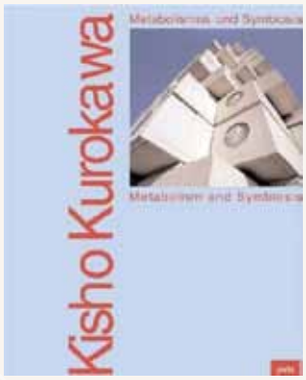

1960 – A Proposal for a new Urbanism» أن المسار الرئيسي لهذا البيان يتمحور حول مفهوم حيوية المجتمع الانساني في مسار التطور المستمر من النواة وحتى السديم.إن اختيار تعبير ميتابوليزم، مرده القناعة بأن التصميم والتقنية يجب أن يشكلان دلالة على حيوية الانسانية، هذا المبدأ على درجة من الأهمية لسببين رئيسيين كما يطرحهما كيشو كوروكاوا[٤]؛ أولهما انه يعكس الشعور بأن المجتمع الانساني يجب اعتباره كجزء من كيان طبيعي متكامل ومحيطه الحيواني والنباتي، وثانيهما إنه يعبر عن القناعة بأن التقنية هي امتداد للانسانية، وهو ما يخالف القناعة الغربية بأن الحداثة هي بمثابة التعارض المتكرر بين التقنية والانسانية. إن النمو الاقتصادي الياباني المتسارع، دفع بحركة الميتابوليزم بالدعوة للحاجة إلى خلق علاقة جديدة بين التقنية والانسان، وأخذ الحذر من التطور المستقل للتقنية إلى الحد الذي يمكن أن تتحكم فيه وتقود مسار الحياة الانسانية، فالحركة تطمح إلى خلق منظومة تكفل للانسان الحفاظ والسيطرة على المسار التقني. إن القلق التقني لدى الحركة دفع بتبني نظرية دورة التمثيل الغذائي التي تقترح إعادة التنظيم الذي يجزئ الفراغ المعماري والحضري ألى مستويات الرئيسي والتابع وبكيفية تمكن الإنسان من التحكم في عالمه المعيشي. إن حركة الميتابوليزم، تعني «بالعلاقة» بين الإنسان ومحيطه، لذا فإن توظيف التصنيع والعمارة سابقة التجهيز و إبتكار «الكبسولة» المعيشية، تطمح لتحفيز المشاركة بين الإنسان ومحيطه من خلال تكامل العلاقة كتلك التي بين الفنان والجمهور. إنها علاقة بين العمران والمجتمع والطبيعة ضمن أرضية تقنية. لم تأخذ المدينة التقنية منحا أشد تطرفا من أعمال الأرشيغرام والميتابوليزم، إلا أن التقنية من جانب آخر دفعت بالعمل المعماري لأن يرفض الهوية الثقافية، ويشكل لبنة معمارية تقنية في نسيج العمران. إن أعمال عدد كبير من المعماريين تبنت المدخل التقني كصيغة تعبيرية موروثة من رصيد الموجة الصناعية للحضارة الإنسانية على الأرض. إن محاولة باكمنستر فوللر Buckminster Fuller في مشروع Wichita house قراءة تبحث في تصميم مبنى صناعي، يمكن بموجبه محاكاة الانتاج الصناعي الكمي، وزرع هذه الوحدات السكنية في مواقعها بواسطة مروحيات. هذه الرؤية تفتقر إلى إدراك حقيقة أن المباني لا يمكن اختزالها إلى هيئة آلية صماء، فهى مكون وظيفي و ثقافي وإنساني، فالرؤية يمكن القبول بها على مستوى الوحدة المعمارية الواحدة ولكن تكرارها بالملايين يصيبنا بالذعر.

امتد الحضور التقني عبر القرن العشرين حتى يومنا هنا، وتباينت مستويات التوظيف له، إلا أن حضورها المكثف اليوم انحسر على حدود العمل المعماري، في إطار «تحوير» خلايا نسيج العمران إلى هيئة تعبيرية تقنية، وتبدوا إطلالتها كرأس حربة لتمهيد الحضور التقني «العمراني المعولم»، فالعمران «التقني» يعمل على إحلال محل الرصيد الثقافي القائم وطمس هويته. وبات الحال وكأن الخطاب التقني في العمران هو اللغة العالمية المشتركة، تلك اللغة التي قد تدفع إلى اللاوعي المكاني. من هنا كان جدلية رهيف فياض حول الملائمة، في ذلك، للمعطيات الطبيعية والاقتصادية والتقنية المحلية، بل يراها مدمرة للتراث المنتشر في معظم المدن العربية، متسائلا عن عمارة «المعولمة المعاصرة» كونها «تبدو غير معنية بوعي المكان حيث تقوم. تبدو في أمكنتها، وكأنها صممت لغير هذه الأمكنة. تبدو وكأنها غير مكترثة بالجواب على السؤال الذي يمثل بداية وعينا للمكان، وهو أين نبني ؟ أين نحن؟ ثم تبدو أيضا وكأنها صممت لناس آخرين، غير ناس المكان حيث تقوم، فتبدو أيضا وكأنها غير معنية بالجواب على السؤال الذي يكمل وعينا للمكان، وهو لمن نبني ؟ ومن نحن؟»[٥].

البعد التقني المديني، ذو براح كبير يمتد من مواد البناء وتقنيات التنفيذ إلى تقانة البنى التحتية إلى منظومات المواصلات والتواصل! والبون شاسع في البعد التقني المديني بين أوروبا الصناعية، قارة المدن، وبين عالمنا المديني المتذبذب، فالبعد التقني المديني وثيق الصلة ببيئة نشأته، فهو بُعد يولد وينمو ويتفاعل ويتكامل ومحيطه الحضاري في بيئته الحضرية، قيمة مدينية تشترط حالة تحقق الإنتماء لدى ساكنيه غير مفككة تمتلك بوصلتها ووضوح وجهتها. إن

(4) Kisho Kurokawa, Metabolism in Architecture, Studio Vista (London), 1977, p.27

(٥) رهيف فياض، العمارة ووعي المكان، دار الفارابي، (بيروت)، 2004، ص. ١٠٦.

الطرح التقني المديني الحداثي خلف تبعات سلبية على مستوى البيئة المعيشية وأثارها على المحيط الطبيعي، فكان بزوغ فكر الاستدامة العمرانية، ذات الفكر الذي يعمل جاهدا على رأب الصدع البيئي الذي سببه الحضور التقني العمراني، من خلال المعالجة التقنية للعمارة والعمران بمواد وتقنيات وحلول تعمل على احترام النظام الطبيعي البيئي[٦]. اليوم يفرض العمران المتنامي والمتسارع على أرض البسيطة تحديات جديدة لمعالجتها، فالمؤشرات تعزز القناعة بأن الموجة الصناعية التي ولدت منذ ١٥٠ عاما قد تحولت إلى موجة عمرانية عاتية، يدفع ثمنها بشكل فادح تلك المجتمعات النامية التي بأت تتكدس في البيئة العمرانية مهاجرة من الأرياف أو تعيش تحول بيئتها القروية الصغيرة إلى تجمعات عمرانية (لامدينية) فوضوية كبيرة، وبشكل يفتقر كليا إلى التوازن.

التوقعات العمرانية في تقرير «الموئل» للمستوطنات البشرية بالأمم المتحدة UN-HABITAT تشير إلى أن الكثير من الحواضر Metropolis بدأت تقترب وتتداخل من بعضها البعض لتخلق إقليم عمراني هائل [٧]«mega-region» أحدها تلك شواهد النمو المتسارع والغير منضبط في تلك الحواضر العمرانية الواقعة غرب أفريقيا حيث المدن لاجوس، ابيدان، لومي وأكرا على نحو يؤول إلى التحامها، والذي بدوره قد يؤدى إلى فيضان عمراني يتجاوز حدود نيجيريا وبنين والتوجو وغانا. لقد وصف التقرير هذا القرن «بقرن المدينة» وأن نصف سكان الأرض يقطنون المدن، ومع منتصف القرن سيشغل ٦٠٪ من سكان الأرض المدن، وأن النمو العمراني المتزايد متسارع في الدول النامية دون غيرها، حيث المدن تنمو بمعدل خمسة ملايين نسمة شهريا، وليس بغريب أن يتزايد التكدس السكاني والهجرة إلى أضواء المدينة في مدن لمجتمعات نامية ، ولكن الخطورة تكمن في عدم الاستعداد لهذه الهجرة إن لم يكن بالإمكان الحيلولة دون حدوثها. إن التقرير يشير إلى أن النمو العمراني هو نتيجة لعوامل مركبة كالموقع الجغرافي، ونسبة زيادة السكان، والهجرة من الريف إلى المدينة، تقنيات البنية التحتية، السياسات الوطنية، وتأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية والعولمة. فالمجتمعات الريفية الكبيرة في افريقيا وآسيا تتحول في الغالب إلى بيئات عمرانية فوضوية، كما يتوقع الكثافة السكانية العمرانية مع منتصف القرن ٥,٣ بليون نسمة، تأتي ٦٣٪ أي ٣,٣ بليون في أراضي آسيا، وربع العدد أي ١,٢ بليون في أفريقيا. واقع مروع لمدن لا تتوقف عن النمو المتسارع لتصبح أقاليم تموج بالسكان كتلك التي نرقبها في إقليم ريودي جانيرو وساوباولو بتعداد متوقع ٤٣ مليون نسمة، أو إقليم ناجويا، أوساكا، كيوتو، وكوب باليابان المتوقع ٦٠ مليون نسمة في ٢٠١٥، إنتهاء بظاهرة الممرات العمرانية، كتلك التي تمتد ٦٠٠ كيلومتر من العمران المتواصل بين نيجيريا، بنين، التوجو، وغانا، والمعروفة بقيادتها الإقتصادية الاقليمية.

بمقارنة الحال في قارة المدن والعالم الحديث يتوقع نموا بطيئا ان لم يكون معدوما، حيث يتوقع نمو سكان البيئة العمرانية من ٩٠٠ مليون نسمة تم احصاؤها في ٢٠٠٥ لتصبح ١,١ بليون نسمة في ٢٠٥٠، فالعديد من المدن تعيش ضمور سكاني، لتدني نسبة الزيادة السكانية ومعدل الـــولادات!. اليوم تعيش البشرية في مجموعة «الأطـــراف»[٨]، دون حراك يذكر بشأن مستقبلها، في حين نجد المحاولات الحداثية والمعاصرة على حد سواء ضمن حدود ثقافة «المركز» تعمل جاهدة على تعزيز التفرد وتأصيل لغة واحدة في ثقافة العمران الحديث و«المعولم المعاصر»، فكان معها ولادة مشروع «المدينة المنتج»[٩].

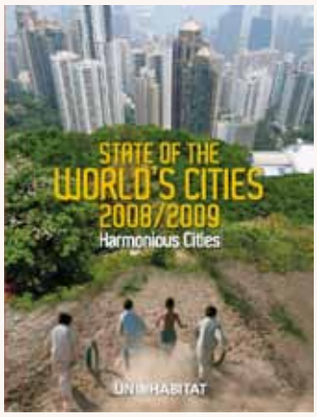

إن المؤشرات التاريخية الجديدة في عصر كان يوما صناعيا وتوقع له أن يكون معلوماتيا أصبح لسان حاله يقول بأنه عمرانياً، إلا أن هذا الواقع يبدوا غير مرئياً للمجتمعات العمرانية المتقدمة، فالمعاناة منحصرة في عمران المجتمعات النامية. إن قراءة المشهد على المقياس العربي، نجد التباين ظاهرا بين طرفي عمران آخذ في النمو العشوائي والاكتظاظ الغير متوازن خصوصا في العواصم، وعمران معاصر بديل ينشد قيم العمران المعاصر المعولم. يأتي الأخير في مدن تم تأسيسها على مقومات اقتصادية بحثة، ولا تجد ضيرا في أن يكون التنوع الثقافي والعرقي والديني لقاطنيها قائم، لا سيما وأن الخصائص المكانية والفراغية للعمران وعمارته لا تحمل هوية، بل تتنافس في الإعلان عن الحياد الثقافي، حتى أصبحت المحاولة في بعض عمائرها تأخذ السمة المسرحية الديكورية في ظل

(6) - McLennan, Jason F. The philosophy of sustainable design: the future of architecture. Kansas City, Mo.: Ecotone, 2004. p.6

(7) - State of the World»s Cities 2008/2009 HARMONIOUS CITIES, London, United Nations Human Settlements Programme, (UN-HABITAT). Earthscan, 2008.

(٨) يتسأل رهيف فياض عن تواجدنا في عالم متوازن، يكفل لنا حق الوجود كما نريد لا كما يراد لنا، سؤال العدالة هذا يقوده إلى قراءة العالم مجزأ إلى (مركز) و (أطراف). (المركز)، قطب واحد، يحتكر القوة والثروة والانتاج والتقنية والاعلام، وجوقة من ستة أو سبعة مصفقين. أما (الأطراف) هي ما تبقى من ثقافات لا تملك سوى الإفقار والاستهلاك والإلحاق والتبعية. رهيف فياض، العمارة ووعي المكان، دار الفارابي، (بيروت) ٢٠٠٤، ص. ١٠٩، ١١٠

(9) Justin McGuirk, guardian.co.uk, Monday 29 March 2010.

البحث عن شئ من المرجعية التاريخية للمكان وأصوله الثقافية. وُلِدَت بعض من نموذج هذا العمران على شواطئ الخليج، واليوم يرنو إلى أقطار أخرى منها ليبيا !.

هذا العمران «الحيادي» شكل مناخ آمن ومشجع لتجارب وجد فيها الفكر التخطيطي المعاصر فرصة تمويل حلول عمرانية «مستقبلية»، قد نجدها نتيجة لتشخيص عمراني غير واعٍ لجوهر قضاياه، وإمتداد للمنحى التقني وأبعاده العمرانية فعلى سبيل المثال تأتي مدينة مصدر[١٠] «الذكية»، و«المستقبلية»، بتوقيع نورمان فوستر، أحد نماذج مشروع «المدينة المنتج» التي تفترش أرض لا تحمل في طياتها عمق تقني، فهي بمثابة العمران التقني المشروط بتوافر مجتمع لا يضيره الاختلاف الديني أو الحضاري أو الثقافي، مجتمع يملك إدراك أهمية التنوع، إلا أنها تحمل في طياتها السؤال المحوري حول كونها الحل المستقبلي المنشود للعمران لاسيما وأنها تعتمد تقنيات التواصل والمعلومات ICT في توظيف الموارد، الأمر الذي يحقق اقتصاديات الطاقة، ويعمل على تحسين النمط المعيشي، وتحد من التأثر البيئي السلبي، ولكن هل ذلك كل ما تحتاجه مدينة المستقبل فعلا؟ تبدو مدينة (مصدر) حل تخطيطي ينشد الاستدامة بصيغة تقنية، كما أنه يقترح منظومة نقل عامة لا تختلف في المبدأ عن أطروحات البعد التقني في حلولا مشابهة، باستثناء أن البيئة الصحراوية المحيطة بالمدينة دفعت بالحلول التخطيطية الى تبني الحل الصحراوي الموروث في العمران التقليدي بمدن الصحراء من أزقة ضيقة مظللة تحث على

(10) "A Renewable Oasis,» Melissa Master Cavanaugh, strategy + business, Spring 2010.

مدينة مصدر مقترح مشروع مدينة مستدامة بمساحة ٦ كيلومتر مربع، ولسعة سكانية تصل إلى ٤٠،٠٠٠ نسمة، أختير موقع يتوسط حقول النفط بإمارة أبوظبي والواجهة الشاطئية، ويتم تشغيل كافة مرافقها بأسليب الطاقة المتجددة، الطاقة الشمسية، ،وإعادة تدوير المياه. من سمات فراغاتها العمرانية وحدائقها أنها تحاكي الموروث المحلي التقليدي في المنطقة العمرانية العربية بتوظيف الحلول السالبة للتبريد، وفي ظل العمل على تحقيق المدينة الذكية تم توظيف منظومة الاتصالات والمعلومات كشبكة رابطة بين كل مكونات المدينة.

السير على الأقدام.! والحال لم يختلف كثيرا عن ما تم تقديمه لمشروع الجبل الأخضر في إعلان شحات(١١) كأقليم مستدام بظاهر تقني وباطن لا يعير لثقافة المكان وبيئته السكانية ورصيده الحضاري إهتماما ! .

يتسأل المرء منا اليوم عن جدوى الدور التخطيطي «لمدينة المنتج» وهل فعلا تشكل إضافة تخطيطية نوعية لمواجهة واقع العمران المؤلم ؟ أليس من المجدي هو التفكير في تحقيق مستقبل عادل ومستدام لعمران قائم ومواجهة قضاياه الشائكة من نمو عمراني عشوائي فوضوي، وتكدس سكاني، واستنزاف للموارد ودمار بيئي، بدلا من تقديم مخططات لمدن «النخبة» المستقبلية الجديدة تحيطها الأسوار ولا تكترث إلى «بداية الوعي المكاني وإكتماله». فالمدينة ليست وعاء يكتظ بمحتواه السكاني فحسب، بل مكان للعيش الواعي، الآمن، والعادل، وبالعودة إلى طرف العمران الآخذ في النمو العشوائي والاكتظاظ الغير متوازن خصوصا في العواصم العربية، تضعنا أمام قراءة للتخطيط المكاني على أنه على درجة من التعقيد والمسؤولية بحيث يجب ان لا يترك الأمر للمخططين وحدهم، بل إشراك كافة التخصصات ذات العلاقة ببنيان المجتمعات العمرانية، وعلى فريق العمل أن يثق في الدور المناط بكل عضو، وأن يضع هدف تحقيق العدالة المدينية نصب عينيه، فالتجربة العمرانية بنهاية القرن الماضي شكلت مؤشرا لأهمية إعادة ترتيب أولويات الفكر التخطيطي من جديد، فقد تدفعنا الحاجة إلى تبني المدخل الجراحي المتوازن لعلاج جسم العمران العربي المتورم، بمراعاة الأبعاد الوظيفية والتقنية والثقافية على حد سواء.

البعد الثقافي للمدينة

تاريخيا، يمكن الجزم بأن كل العمران المديني الذي نشأ بشكل طبيعي، سكنت في ثناياه المادية أبعادا اجتماعية، واقتصادية ، وعقائدية، وسياسية، لتشكل في مجموعها الضفيرة الثقافية لإنسان ذلك العمران. إن الإشارة إلى البعد الثقافي الشمولي في العمران المديني هنا مرده إلى حقيقة تدني إدراك تأثير دوره على «القيمة الاستعمالية» لمكونات العمران الفراغية في أطروحات الحداثة التخطيطية تماما كما كان القصور في إدراك سلبيات البيئة التقنية للبني التحتية التي، بعد عقود من تطبيقاتها، أفرزت بيئة عمرانية منهارة تنؤ بقيمة استعمالية متدنية وبنتائج الإستنزاف الجائر للموارد. إن إدراك البعد الثقافي للمدينة يتطلب إستدراك الدور الثقافي المتمثل في شقيها المادي والمعنوي، فالأخير هو بعد لا مادي

(11) http://islamictourism.com/PDFs/Issue%2067/English/the%20green%20mountain.pdf

وغير ملموس بل يمكن قراءته بوضوح في جملة القيم والأعراف وأخلاقيات المجتمع المديني، وهي ما تشكل المحور الثقافي المرجعي، حيث يكون الشق المادي والملموس للجانب الثقافي المديني انعكاسا وقراءة بصرية لحقيقة الثقافة المدينية في التعبيرات الثقافية، بدأ من الصيغ التعبيرية التشكيلية الفنية نهاية بعمران المدينة وعمارتها. لذا يأتي إدراك البيئة المدينية وثيق الصلة بوعي القيمة الثقافية اللامادية لإنسان تلك البيئة، فالبيئة العمرانية وعمارتها هي تعبير مادي للثقافة السائدة بالمجتمع المديني وتأتي «كناتج مُتأثر، ومُنتج مؤثر»[١٢] في آن واحد .

من جانب آخر تشير منال ابو العلا في ورقتها بعنوان «الموروث العمراني بين الأصالة، القيم الانسانية والمعاصرة» إلى أطروحات[١٣] أموس رابوبورت Amos Rapoport حول قضية الجوهر الثقافي«culture core» للكيان الإجتماعي الذي يشكل بمكوناته المكانية والزمنية مرساة الاستقرار الثقافي cultural stability للمجتمع العمراني المديني. إن الجوهر الثقافي قيمة قياسية تحدد التباين في قدرة مجتمع ما على القبول بالجديد الثقافي وقابلية التأقلم معه. فالمكونات المكانية متمثلة في ناتج الموقع الجغرافي للوطن الاجتماعي واحداثياته وموارده الطبيعية والعلاقة بمحيطه المكاني المجاور، في حين يرتبط المكون الزمني بالعمق التاريخي لذلك الوطن وقيمة التراكم الثقافي وموروثه في الذاكرة الجماعية لسكان ذلك الوطن. إن العلاقة للمكونين تبادلية في التأثير والتأثر، تكاملية في سد الفجوات الثقافية وصدامها الحضاري أو الحواري. إن هذا الجانب على درجة من الأهمية لاسيما إذا ما تمت الإشارة إلى العمران المديني كشاهد ثقافي رابط لتواصل المجتمع بماضيه وحاضره ومستقبله ، وأن الفارق الثقافي القائم بين المجتمعات المدينية وتنوعه من حيث الرصيد المكاني والزمني، يضعنا أمام التساؤل حول المرونة في الجوهر الثقافي لمجتمعاتنا العربية للتأقلم مع ما قدمته نظريات الحداثة والضغط الصناعي والتقني بالأمس، وما تسوقه الموجة المعلوماتية اليوم ؟ إن مستوى قبول التغيير الثقافي رهين بقدرة التأقلم على قبوله، وما يشير إليه إروين ألتمان[١٤] Erwin Altman إن التغييرات الجديدة وتوافق سرعتها مع القدرة على قبولها قد تقود إلى بيئة عمرانية ذات بعد ثقافي جديد له امتداد طبيعي للشخصية الثقافية التعبيرية الموروثة، أما في حالة تجاوز سرعة التغيير للقدرة على القبول والتأقلم، فإن ذلك حتما يقود إلى الخلل العمراني التعبيري وتبدوا حالات الصراع والرفض في فجوة ثقافية ظاهرة. هذه الفجوة الثقافية تبدوا بوضوح من خلال القيمة الاستعمالية المكانية، ويكون مبعثها الشعور بحالة الاغتراب الثقافي المكاني.

(12) Manal Abou El-Ela\Desktop\DATA_PUBLICATIONS\PAPER

منال ابوالعلا تناقش في ورقتها « الموروث العمراني بين الأصالة، القيم الإنسانية والمعاصرة» العلاقة التفاعلية بين الإنسان وبيئته المدينية من خلال الصيغ الثقافية المعنوية والمادية. ص٣.

(13) Rapoprt, Amos. *Human Aspects of urban form Towards a Man, Environment to urban form and Design*, Pergamon Press, 1977.

(14) Altman, Irwin - chemers, Martin. Culture and environment, Cambridge University Press 1980

إن ظاهرة «العمارة الدولية» و «العولمة الثقافية» كان لهما حراكهما المتسارع الذي لم يمنح للإيقاع التوافقي بالقبول والتأقلم لدى مجتمعاتنا فرصة، فكان الإختراق التعبيري الثقافي، الأمر الذي لم يحقق مساحة التعايش بين المكان (بثقافته الجديدة) والإنسان. فقضايا المجتمع الصناعي والمعلوماتي لم تختبرها بيئتنا، فهي لم تكن يوما من صنعنا، بل تبدوا احيانا وكأن الالتحام بين بعدي الوظيفة والتقنية اليوم في قراءات المدن المستدامة يستهدف الإنسان والعمران في مجتمعاتنا على حد سواء. إن هذا الجدل يحث على اهمية اعتبار القيمة الثقافية المكتسبة عبر الزمن، فالحيز الزمني وعمقه التاريخي للمجتمع هو أداة التحكم في القبول والتأقلم بالقراءات التعبيرية الثقافية المكتسبة، لذا إن أية طرح فكري عمراني مستقبلي يسقط من حساباته هذا البعد سيفرز بيئة اغتراب معيشي عاكسة لموقف «الجوهر الثقافي» الرافض للتأقلم.

إن ما حدث في ثقافة «المركز» في ستينيات القرن الماضي وتحديدا في القرار الذي أخذ في شأن هدم المشروع الإسكاني في سانت لويس Pruitt-Igoe مع نهاية ستينيات القرن الماضي، هذا المشروع الذي، مع بداية الخمسينيات من القرن الماضي، قطنه عائلات مختلطة عرقيا من محدودي الدخل، أصبح علامة وصورة هدم المشروع متداولة دوليا، ولكن الجدير بالإشارة هو تباين الأراء حول دوافع تدني القيمة الاستعمالية وتجاذبها بين التمييز العنصري، إلى محدودية الميزانية وتقليصها وغياب الصيانة وسؤ إدارة المشروع ، إلى عدم فاعلية المدخل التخطيطي وعدم توافق المشروع ونسيج سانت لويس العمراني، ولكن الإتفاق حول تدني القيمة الاستعمالية حتى أضحى المشروع مركزا لبؤر الفساد، كان قائما، الأمر الذي شكل مؤشرا خطيرا أدى إلى القرار بهدمه. لم يملك مينورو ياماساكي Minoru Yamasaki، مصمم المشروع، أنذاك إلا الرثاء بقوله "لم أدرك بأن الناس على هذا المستوى من التدمير»، وليكتب[١٥] عنها كولين روو Colin Rowe في Collage City بوصفها كقراءة تمتد إلى مدينة لوكوربزييه، أحتفلت بها مجموعة CIAM وأعلن عنها في وثيقة أثينا كمدينة «الخلاص» أصبحت القناعة بعدم ملائمتها تتزايد كل يوم. ذات الحدث الذي أُعلِن فيه نهاية الحداثة، ولينتهز تشارلز جينكس Charles Jencks المقام، ويعلن في كتابه[١٦] «The Language of Post-Modern Architecture» أن نهاية العمارة الحديثة قد اقترنت بتاريخ هدم المشروع وتحديدا بميقاته.!

(15) Rowe, Colin, and Fred Koetter. *Collage city*. Cambridge, Mass.: MIT Press, 1998.

قراءة المدينة كحالة معمارية بدلا من عمرانية..

إنها أيضا إعلان لميلاد مرحلة «مابعد الحداثة»[١٧]، ثقافيا يبدو الأمر في «مابعد الحداثة»، وكأنه الدعوة المتحمسة في تبني المرجعيات الثقافية التي غابت في العمران الحديث، فكان منهج عمارة عمران «مابعد الحداثة» يبحث في استحضار الصور المادية لقيم تاريخية موروثة لعمران مرسوم في الذاكرة الجماعية لتلك

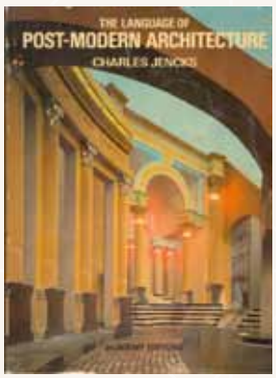

(16) Jencks, Charles. *The language of post-modern architecture*. London: Academy Editions, 1991.
Charles Jencks, in his 1977 book *The Language of Post-Modern Architecture*, declared the July 15, 1972, demolition of Pruitt-Igoe to be "the death of Modern architecture.» He even specified an exact time of death ("3:32 p.m.»), which, according to *The Guardian*, he later admitted to making up.

(١٧) يمكن إدراج كافة الحركات الفكرية التي جأت بعد الفكر الحداثي، من «مابعد الحداثة» و«التفكيكية»، و«التقنية العالية»، و«المستدامة، و«الخضراء» و«الميناميليزم» وغيرها تحت هذا العنوان حيث أنها جميعا في حالة اختبار ومعايشة معاصرة لم يتحقق لها العمر زمني الكافي لتبلورها واستقرارها.

المجتمعات، في إطار معاصر دون الإخلال بالرصيد الفكري الحداثي أو مظاهره التقنية للمجتمع الصناعي. هذا مؤشر بالوضوح الكافي للحاجة إلى عدم إغفال القيمة الثقافية في عمران المكان ذاته الذي أسقطه يوما بمناداته للعمران الآلي والحضور الوظيفي، فعلى من التوافق الكلي لسرعات التغيير والقبول به، إلا أن الاحساس بالاغتراب العمراني الذي بدأ يسود العالم الحديث ولد معه موقف «الجوهر الثقافي» الرافض له، والذي تتالت معها محاولات القراءات العمرانية والمعمارية تجوب جميعها في فلك البحث عن عمران بعمارة تلبي ما ينشده المستقبل دون إغفال توافقه والموروث الثقافي مكانيا وزمنيا. فالقراءة المعمارية للمدينة مدخل يتبنى مراجعة مركبات المدينة المادية عبر الزمن وعلاقتها بالمدلول الثقافي الذي ترسمه للذاكرة الجماعية وأثر ذلك على حال «الجوهر الثقافي» في طرفي الانتماء والاغتراب.

تبدوا قراءات ليو كراير Leo Krier المتعددة حول قضايا العمران المديني، قد تمحورت حول قضايا المعمار ومكونات العمران الفراغية الحضرية فهو يجد أن الشارع والميدان أو الساحة العمرانية المكونين الرئسيين لإعادة تكوين العمران المدينى العام، مؤكدا على أهمية العلاقة «الجدلية»[١٨] بين طابع البناء وتكوين الفراغ الحضري، وضمن هذه الجدلية تتبلور العلاقة السليمة بين «المعالم» في المباني العامة والنسيج العمراني الكمي المجهول من المباني الخاصة. عند الوقوف على دعوته[١٩] إلى إعادة تركيب المدينة بتنظيم عقلاني لمناطقها، نلمس إشارته إلى البعد الاجتماعي فمن خلال إعادة ترتيب المدينة على هيئة وحدات وظيفية مركبة ومتكاملة تأخذ شكل المناطق والأحياء، ومساحات متجانسة وظيفياً واجتماعياً.

إن قراءة ألدو روسي Aldo Rossi للمدينة كحالة تعمير (عمارة) مادي متنوع عبر الزمن، يراها بمثابة المدخل الشمولي لتحليل العمران المديني، الذي تسكن طياته الحقيقة المعرفة والمطلقة لحياة الجماعة، وخلق البيئة المدينية لها. فالعمارة المدينية ولدت مع أول أثر للمدينة، فهي متجذرة في تكون الحضارة، وهي الحقيقة الثابتة والشاملة والضرورية، كما أن النوايا الجمالية وبناء محيط عمراني بديع للحياة، خاصيتان ثابتتان في العمارة المدينية، وثيقتان الصلة بإدراك المدينة كحالة خلق انسانية. روسي يجد أن مع الزمن، المدينة تنمو، وهي بذلك تتطلب حالة من الوعي والذاكرة، فالسرد الأصلي للمدينة مثابر على البقاء إلا أنه خلال النمو عبر «التكرار»، يقوم بتعديل ذاتي يستوعب التغيير ويخدم قصتها.

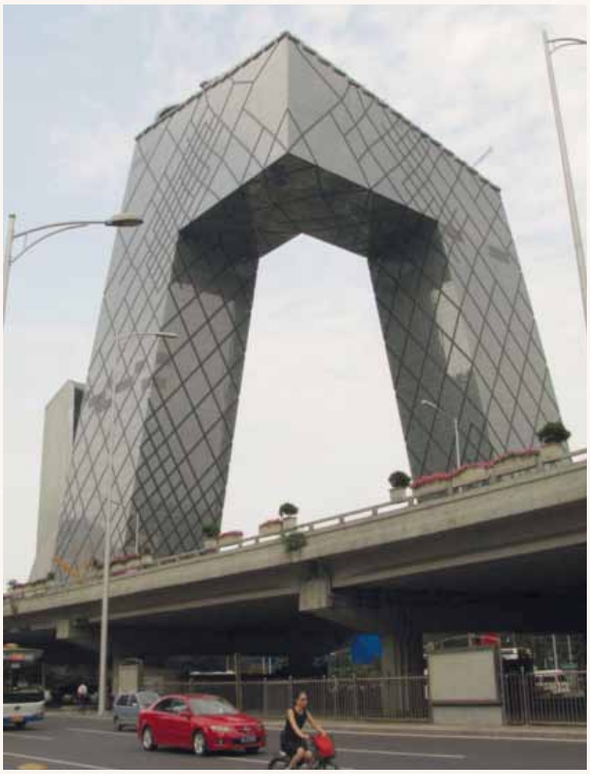

اليوم يطالعنا رم كولهاس[٢٠] Rem Koolhaas هو الأخر يرثي تارة ويبتهج تارة أخرى حول قراءته لعمارة وعمران اليوم، حتى أنه يجد حال العالم اليوم بدون عمران، ووحدها العمارة التي تفترش المكان. يجد موت العمران هو سر لجؤنا إلى الشعور بالأمان الطفيلي في العمارة. فالعمران الجديد لن يؤسس على وهم توأم النظام والقوة المطلقة، فالعمران سيمر بمراحل عدم اليقين، ولن يعنى بالمدينة بالقدر الذي يعمل فيه على تحوير البنى التحتية والتكثيف والتنوع، ولأن العمران المديني اليوم أصبح منتشرا، فالطرح الفكري لقراءته لن يعنى بالجديد بالقدر الذي ينشغل فيه

(18) - Vidler, Anthony, Krier, Leon, Scolari, Massimo, *Rational architecture rationnelle*., New York: Princeton Architectural, 1985. P. 58.

(19) - Ibid, pp.38-42

(20) Koolhaas, Rem, Jennifer Sigler, Bruce Mau, Hans Werlemann, and Office for Metropolitan Architecture. *S,M,L,XL: [small, medium, large, extra-large]*. New York: The Monacelli Press, 1995. pp 961-971

«بالكثير» و «التحوير»، ولأنه أيضا خارج حدود السيطرة، فسيكون العمران سهم التوجيه نحو الخيال، لن يكون مهنة بل منهج تفكير وأيديولوجية، للقبول بما هو قائم. لقد انشغلنا ببناء قصور من الرمال وها نحن اليوم نسبح في البحر الذي اجتاحتها مياهه.

يبدوا الحضور المعماري في المدينة كأداة تنظيم وإعادة ترتيب أمتد إلى البعد الإقتصادي الفاعل، من خلال توظيف المعلم الثقافي معماريا فهو قد يكون الكفيل بإيقاذ جذوة الحياة في نفس المدينة المحتضرة. Wilfried Wang في كتابه[٢١] «الثقافة:المدينة» Culture:City يطرح التساؤل حول الظاهرة التنافسية في تسعينيات القرن الماضي في شأن تشييد أعداد كبيرة من المعالم الثقافية في مدن كثيرة حول العالم، بغرض جذب الزوار لها، وهل الثقافة اليوم لازالت تتمتع بالدور القيادي في ذلك أم أنها لا تملك سوى الدور المساعد والمحفز لعمارة مذهلة ذات حضور مشهدي؟ وهل القطاع الإبداعي والثقافي هو المحرك لمستقبل المجتمعات «مابعد الصناعية»، وأن تلك المباني «الثقافية» تمثل قيدا أم أنها تعمل على التحرير الثقافي. لقد شكل ظاهرة «تأثير بلباو» «Bilbao effect» في إنبعاث المدينة من خلال متحف جوجنهايم بتوقيع فرانك جيري المبنى الثقافي ذو الحضور المشهدي، مثالا مقاربا لعدد كبير من المحاولات في مدن الدنيا تحمل ذات النوايا، جميعها تدفع بالقناعة بأن دور عمارة العمران اليوم فاعل ومؤثر في قراءة المدينة وسبل تجددها.

الواقع المديني اليوم .. مالذي يجب فعله ؟

إن ما يحدث بين أطروحات الحداثة، وقراءات اليوم؟. تباين وتنوع في الرؤى يملك كل منا الاتفاق عليها أو الاختلاف ! فالاختلاف مع ما نادت به الحداثة، مصدره تجاهل الطرح الآلى للقيم العمرانية الموروثة، ورصيدها الانساني، فبحث كيفن لينش Kevin Lynch في صورة المدينة ومحددات تبلورها في الذاكرة الجماعية، أطروحة تستند إلى القلق عن مدى آهلية المدينة التي تبنت منطق مجموعة CIAM المجرد، إضافة الى حتمية النمو العشوائي للعمران. ومناقشة كريستوفر الكساندر Christopher Alexander للفارق بين ما يطلق عليه «المدينة الطبيعية» و«المدينة الاصطناعية»، فالأولى كانت نشأتها عفوية عبر الزمن، في حين الثانية كانت نتاج إسهام المصمم والمخطط، حيث يجد المغالطة في توق المصممين والمخططين اليوم إلى الخواص المادية للمدينة الطبيعية بدلا من البحث عن مبادئ التنظيم لها.

هذه الخاصية التنظيمية التي تتمتع بها المدينة الطبيعية، والتي نفتقدها في العمران المديني «الاصطناعي»، يشبهها كريستوفر الكساندر باستعارته بنظام شبه شبكي semi-lattice[٢٢]، في حين يجد المدينة الاصطناعية تخضع لنظام شجري. كلا النظامين مناهج فكرية، إلا أن التحفظ يبدوا واضحا على منهج المدينة الاصطناعية التي تأتي نتاج فكر إنساني يجد في منظومة الشجرة وسيلة تعبيرية سهلة للفكر المركب والمعقد، ولكن المدينة ليست ولا يمكن أن تكون شجرة، فالمدينة وعاء للحياة، وإذا ما كان هذا الوعاء يفصل بين الفروع المتداخلة ويجزئها فالمدينة بذلك ستعمل على تجزئة الحياة فيها إلى قطع. إن تشبيه منظومة المدينة بالشجرة يبدوا اختزال مجحف للإنسانية وثراء العيش المديني إلى بساطة الطرح الذي يخدم المصممين والمخططين والإداريين والمطورين فقط، فكانت مقالته بعنوان «المدينة ليست شجرة»، التي تأتي مباشرة كحالة يفند فيها قراءته الأولى للقرية الهندية Indian Village. يقارب ذلك «قرية القرنة» التي ترجمت شغف حسن فتحي في إحياء تقاليدها كمحاولة للإجابة عن سؤال البيئة العمرانية الملائمة ثقافياً! فهل يجب أن تقهر الثقافة كل مظاهر التقنية بحلم التقاليد كما وجدها حسن فتحي في القرنة؟ أم يجب أن يكون البحث عن سبل التعايش معها؟

أضحى العمران المديني الدولي بانفجاره السكاني، ونموه العشوائي قضية تشغل الطرح الفكري المعاصر، وكان معها تنوع وتباين القراءات المعاصرة انطلاقا من طرف نظريات معقدة كتلك التي تقف على ظاهرة محاكاة النمو العمراني ومراقبته من خلال منظومات رقمية، بكيفية بحثية تنشد فيه، أن ما ساد القرن العشرون من نمو عمراني مديني، خاضع للتنظيم والنظام، فالتوقعات التخطيطية يرجوا لها توافقها ووقائعها العمرانية، هذه القراءة العلمية العقلانية «المعقدة» المعاصرة قد لا تجد بيئتها الرقابية في مجتمعات عمرانية جامحة تفككت فيها لحمتها الإنسانية المكانية بفعل الاغتراب الذي شاب الجوهر الثقافي المديني بها. إن الطرح الذي يتبنى البحث في «تبصر» نظام نمو المدينة

(21) Wang, Wilfried, and Germany) Akademie der Kuˆnste (Berlin. *Culture: city*. Baden, Switzerland: Lars Muˆller, 2013.

(22) Christopher Alexander, «A City is Not a Tree», Part one in Architecural Forum (April 1965), pp. 58-62.

وحالات التغير التي تشوبه سيكون أجدى من «توقعه»، فهو يسعى إلى شرح ظاهرة النظام المعقد من مكونات بسيطة وموضوعية، بغية الوصول إلى توقع واقعي لمستقبل المجتمع العمراني المدينى. تباين بين موروث محلي تنامي عبر المحاولة والخطأ ومحكوم بالعُرف ، وصيغة الحضور الفكري العمراني الحداثي الذي صاحب الموجة الكونيالية الاستعمارية، كل ذلك أفرز بيئة عمرانية ذات فؤاد محلي وهيئة حداثية، أمثلة تباينت صيغ نسجها، لتصنع غربة ثقافية وهيئة عمرانية تضعنا اليوم في تساؤل محير أين نحن من كل هذا المحيط؟ متناسين إننا يجب أن نعمل على صقل مهارتنا في إدارة الأشرعة لمواجهة الرياح حتى لا تغمرنا تيارات العولمة بكل عنفوان أمواجها فاقدين معها بوصلة رحلتنا مؤملين يوما أن تلمس أقدامنا يابسة الملائمة.

المعذرة .. ولكنها مقارنة تأبى إلا أن تكون لها إطلالتها .. لاسيما عندما يذكرنا ألدو روسي بأن من يدير ظهره للأموات لا يمكن أن يكون من الأحياء، فحضور الأموات بين الأحياء في أي مجتمع بمثابة حقيقة تشجع الأحياء على الحياة يوميا. اليوم بات النمو العمراني في كثير من المدن قد طال الأخضر واليابس، وصار غافلا عن حقوق الأموات في الاستيطان أيضا، بل دفع بهجرتهم إلى مقابر خارج المدن بعد إكتضاض القديم منها، وصارت معايشة هذه الحقيقة تهجرنا، ونخشى مع الزمن فقدان إدراكنا لمعاني الحياة أيضا.

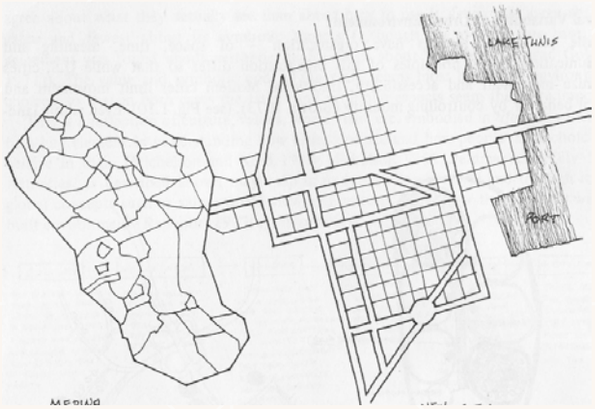

اليوم الثاني؛ المحور الثالث: المدينة والفلسفة

أنا ونيتشه وزياد... أطفال مدينة.. بها يلعبون ويعبثون

الدكتور: فريد يونس
أستاذ العمارة والنظريات المعمارية، جامعة سيدة اللويزة ـ لبنان

زملائي المهندسين، أيُّها المنتدونَ الكرام..

في مداخلتي الأخيرة في تونسَ في ورشةِ عملٍ لهيئة المعماريين العرب، عام ٢٠٠٨، ادَّعيتُ أن كلَّ النظريات المتعلِّقة بعلم العمارة منسوخةٌ ومسروقةٌ من حقول مختلفة، واقترَحْتُ خطواتٍ لاكتشافِ هذا العلم. وادَّعيتُ أيضًا أنَّنا متى ما اكتشفناه، نجيبُ عن أسئلةِ كلِّ فلسفات العالم: من أينَ أتيتُ؟ وماذا أفعلُ؟ وإلى أين أذهبُ؟ لأنَّنا إذا تأمَّلنا عماراتنا المتنوِّعَة، نحن البشرَ، بدءًا من رحمِ أمَّهاتنا، قبلَ الولادة، مرورًا بمنازلنا الأرضيةِ وصولًا إلى مساكننا الأبديَّة، يمكننا الإجابةُ عن هذه الأسئلة.

وبما أنَّنا لم نكتشف علمَ العمارة، حتى الآن، أكتفي بالتَّصدي للسُّؤالِ الثاني، وهو: ماذا أفعلُ؟ واستطرادًا: ماذا أفعلُ في المدينة؟ إذ إن لكلِّ سلوكٍ إنساني دوافعَ شخصيةً، بحسب أبراهام مازلو الذي يفترضُ أن الحاجاتِ والدوافعَ الإنسانية تنتظمُ في تدرُّجٍ مُتصاعد. فعندما تُشبَعُ الحاجاتُ الأكثرُ أولويةً، تبرزُ الحاجاتُ التي تليها. الحاجاتُ تبدأُ فيزيولوجيةً، حبًّا بالبقاء، تَعْقِبُها حاجاتُ الأمان، بدافعِ من الخوف، ثم حاجاتُ الانتماء، تحاشيًا للعُزلة. وهذه الحاجاتُ الثلاثُ يشارِكُنا فيها الحيوان.

ويضيف مازلو: ثم تبرزُ حاجاتُ التقدير، تقديرُ الذات وتقديرُ الآخرين لك، بدافعٍ من شكٍّ دائمٍ يعتريك، لِتَحُلَّ أخيرًا حاجاتُ تحقيقِ الذَّات، خوفًا من الموت.

وبهذه الهرميَّة لخَّصَ مازلو كل السلوكَ الإنساني، ضمن ما يُعرَف بنظرية الحوافز أو الدوافع الإنسانية.

ولكن كيف أصفُ هذا السلوك ودوافعَه، وأنا المعروف أن لديَّ أسئلةً أكثر منها أجوبة، فقرَّرت الاستعانةَ بمفكِّرَينِ لم أعُدْ أقرأُ لغيرهما وأستمع، هما: ويليام فريدريك نيتشه، وزياد عاصي الرحباني.

قصدتُ منزلَ نيتشه، فإذ بي أقرأُ على عتبةِ بابه: «أقطنُ بيتيَ الخاص، ولم أقلِّدْ أحدًا في شيء قَطّ. وأسخرُ من كلِّ معلِّمٍ لم يعرفْ كيف يسخرُ من نفسِه».

J'habite ma propre demeure,
Jamais je n'ai imité personne,
Et je me ris de tous les maîtres
Qui ne se moquent pas d'eux-mêmes.
Écrit au-dessus de ma porte

طرقتُ الباب وبادرتُه بالسلام: يا مُعلِّم. قاطعني وقال: لا يعترفُ التلميذ اعترافًا تامًّا بفضل أستاذِه، إذا ما بقي له تلميذًا أبدًا.

On paie mal un maître en ne restant toujours que l'élève

On n'a que peu de reconnaissance pour un maître, quand on reste

toujours élève

دخلتُ، وإذا بي أُفاجأُ بزياد في الداخل يعاونُه في إحراقِ كتب. فسألتُ نيتشه: أَوَتَحْرُقُ الكتب؟ أجابني: «أنَّى للمرءِ أن يصيرَ مفكرًا، إذا لم يُمْضِ على الأقلِّ ثلثَ يومِه، بعيدًا من الأهواءِ والنَّاسِ والكتب»؟

BECOMING A THINKER. How can any one become a thinker if he does not spend at least a third part of the day without passions, men, and books

فَرَمَقَنَا زياد وقال: لأنَّن بيجيبو صراصير.

فاستنتجتُ أن الحيوانَ عمومًا، والصرصارَ خصوصًا، لا يرغبانِ في أن يُصبحا مفكِّرَيْن.

سألتهُما مرافقتي إلى المدينة لنُعاينَ، عن كثَب، سلوكَ الإنسانِ فيها، لأنَّ ثمةَ أسئلةً لا إجاباتَ واضحةً عنها بعدُ، ومعضلات لم تُحَلّ، وأريدُ منكما، وأنتما مفكِّرانِ ناضجان، بالتَّالي مساعدتي.

ردَّ نيتشه: نُضجُ الرجلِ يعني استرجاعُه الجدِّيةَ في اللَّعب، آنَ كان طفلًا يلهو.

P 1 « La maturité de l'homme, c'est quand il a retrouvé le sérieux qu'il avait au jeu quand il était enfant. »

فيما علقَ زياد: أشياءٌ ما حلت ولن تُحلَّ، هي أن الطفلَ يودُّ لو يلعبُ على مدى الأيام ويمنعونَه. وأضاف: الطفلُ متى صار يعرف كيف يرسم المهندسُ البيتَ، هربتْ من صُوَرِه خطوطُ الحبّ والجمالِ الصغير.

ويحَنا... ها نحن ثلاثةُ أطفالٍ في المدينة، بها يلعبونَ ويعبثون. دخلناها. وبدأتُ أسألُ عن علةِ وجودها. ماذا؟ وجود؟ هل هي موجودة؟ هل نحن موجودون؟ ألم يقلْ أينشتاين بتمدُّدِ الوقت؟ فمثلما يمكنُنا أن نتجهَ نحوَ المستقبلِ، نستطيعُ العودةَ إلى الماضي، أي إنِّني أصبحُ قادرًا على العودةِ إلى فراشِ والديَّ، فـ«أحركشُ» بهما لأحولَ دونَ أن يُنجباني.

وأعود أسألُ: هل نحنُ موجودونَ أم لا؟ وهل الوجودُ، أيُّ وجود، حتميٌّ أم افتراضي؟

ردَّ عليّ نيتشه: إن الإنسانَ، في وعي الحقيقة التي يدركها، لا يرى أينما كان إلَّا الفظاعاتِ أو عبثيةَ الوجود.

In the consciousness of the truth he has perceived, man now sees everywhere only the awfulness or the absurdity of existence ... and loathing seizes him.

أما زياد فقال: مأكد دايمًا من كل شي وما في شي أكيد! وبتحكيلي عن الوقت والوجود؟ ما كل سنة بتقدمو الساعة ساعة وبتأخرونا

عشر سنين لورا بنفس الوقت، ما إنتو انتبهوع السنين كمان مش بس ع الساعات...

تابَعْنا سيرَنا، والأسئلةُ على خطانا: ما هي المدينةُ؟ إنها أسواقٌ ومبانٍ حكومية وإدارية، صروحٌ دينية وعلمية وتعليمية، مؤسساتٌ صناعية وسياحية وتجارية وتكنولوجية. ولكن ما هي علةُ وجودِ المدينة؟

ثمةَ من يرى أن المرفأَ هو هذه العلَّة.

آخرون يذهبون إلى أنَّ العلة تكمنُ في توطيدِ العلاقاتِ الاجتماعية والاقتصادية.

ثالثون يقولون بتقريبِ المسافاتِ وتسريعِ التَّنقُّلات، من أجلِ تحسينِ الإنتاج.

أمّا رابعونَ فيَعْزَوْنَ السَّبَبَ إلى المهنة،

وخامسون إلى استغلالِ بَواطنِ الأرض ومناجمِها.

وثمة بعدُ من يربُط العِلَّةَ بأسبابٍ دينية لممارسة العبادة والحاجة إلى بناءِ قبورٍ جماعية تكونُ على الأرضِ انعكاسًا لمسكنِ الآلهةِ في السماء.

وبعضٌ ينظر إلى المدينة جسمًا، تتقلبُ هجينةً في مكوناتِها وفي تعريفِها.

وأخيرونَ يكتفون بالقول إنها شبكةٌ متواصلةٌ من الأحداث.

لا شكَّ في أن المدينةَ هي مظاهرُ قيم للعلاقاتِ الاجتماعية والسلوكِ الإنساني، وغالبيةُ فلسفاتِ العالَم انبثقَتْ من معاينةِ هذه القيمِ والعلاقات، ومن مراقبةِ سلوكِ الناس.

مين قال مثلاً إنّو «مَن راقب الناس مات همًّا»؟.. هاي مظبوطة يا ترى؟ سأل زياد. وأضاف: طيّب إذا مظبوطة، كان يفترض كل سنة سنتين، تفقد الدولة معظم عناصر مخابراتها! وطبعًا الأولويّة للأقدمين. وهيدا الشي مش حاصل أبدًا، ما بحياتو حدث إنو واحد مخابرات توعَّك حتّى من ورا المراقبة، بالعكس أنا ملاحظهن كلّهن صحّة وعافية...

وعليه أسترسلُ في طرحِ الأسئلة: أهي المدينةُ مَنْ أنتجَ الفلسفة، أم الفلسفةُ مَنْ أنتجَ المدينةَ؟

فالفلسفةُ كظاهرةٍ حَضَرية ازدهرَتْ في أسواق أثينا (Agora) وأطلَقَتْ أماكنَ منها على مذاهبَ فلسفية، من مثل: بستان الزيتون (Academos) لأفلاطون، المشاؤون لأرسطو، الرُّواقيون لزينون. في حين استلهم كيركيغارد من شوارعِ كوبنهاغن، وسارتر من مقاهي باريس، وفدغنشتاين من حشودِ فيينا وكمبريدج.

انتفضَ نيتشه وقال: أنا أفضِّلُ الجبال. لأنَّ التنقُّلَ، في الأعالي، بين قمةٍ وذُروة، هو أقصرُ الطُّرق. وعليه، يجبُ أن تكونَ ماردًا أبدًا.

«In the mountains, the shortest way is from peak to peak, but for that you must have long legs...»

أبعدُ من ذلكَ، ثمَّةَ مدنٌ تُنعَتُ بمذاهبَ فلسفية. ألم تسمعوا مثلًا بالمدنِ البراغماتية، حيث يتكاثفُ النَّاسُ منصرفينَ إلى العملِ وحدَهُ.

مهلًا، قال نيتشه: أنا أرى أنَّ الرجالَ النَّشطين يتدحرجونَ مثلما تتدحرجُ الصخرةُ، طبقًا لعبثيَّة الميكانيكية. وقد لاحظتُ أن مجتمعَنا لا يعرفُ من الغرائزِ سوى غريزةِ القطيع، أي إنَّنا أمامَ مجموعةِ أصفارٍ، لكلٍّ منها حقوقٌ متساوية، وهو فخورٌ بأنَّهُ صفر.

Les hommes d'action roulent comme roule la pierre, conformément à l'absurdité de la mécanique.

Toute notre sociologie ne connaît pas d'autre instinct que celui du troupeau, c'est-à-dire de zéros additionnés 1 ... où chaque zéro a des « droits égaux », où il est vertueux d'être un zéro...

لحظة شباب. قال زياد: سألني واحد: بدي إسألك سؤال! كيف هالعالم رايحة جايي؟؟؟

قلتلو: مش كلّا! في عالم بتكون رايحة ما بتعود جايي.

وهناك أيضًا مدنٌ ماركسية. أكيد، قال زياد، الطبقات العاملة بدك تشوف شو عاملة لتعرف كيف بعدا عايشة. أكيد عاملة شي مش منيح.

كذلك هناك مدنٌ ليبرالية ديمقراطية رأسمالية، حيث يتنافسُ التجارُ ظاهريًّا على خفضِ أسعارِ المأكولات، ويتسابقُ الناسُ على شراءِ الأرخصِ بينها. فالتجارُ بذلك، ديمقراطيًّا، لا يتحكَّمون بما يدخلُ المعدة، فحسب، بل وبلونِ المجاريرِ. أي إنَّهم يتحكَّمون بالمدينة، سواء أكانت الأرضُ فوقَها، أم كانت هي فوقَ الأرض. فهلْ تحدِّدُ ألوانُ المجاريرِ فلسفةَ المدينة؟

سماع، قال زياد: إنّ كلَّ شعبٍ يعتبرُ كلمة «شَغّيل» إهانة هو شعبٌ سينقرض، وقد بدأ بالفعل. لماذا؟ لأنّه، لفراغ وقته وإساءةِ استعمالِه للوقت، سَيُساق. قد يُشرى، قد يُباع. وسيستخدمُه الآخرونَ حاملو الساعات المخطِّطون على عددِ الثواني.

وإضافةً إلى ما ذكرنا من مدنٍ، هناك مدنٌ فوضوية شواشية. قهقه زياد: يا أخي المشعل بأميركا والحرية عنا. نحنا مأجّرين المشعل للأميركان، حدا معه عند ربنا؟ بس تاركين الحرية هون.

وهناك مدنٌ روحانية دينية. ومدنٌ ما بعد حداثية. فعلق زياد: زادو الضريبة ع المشروبات الروحية، يللي نحن بالأساس منشرب منها تا ننسى الضرايب!!

وما بالُك بالمدنِ الما بعد بُنيوية التقويضية؟ فلاحظ زياد أن: في ناس بيناضلوع التوصاية.

وما قولُك يا زياد، بالمدنِ المثلية؟ أجاب: مين قال إنه ضروري لازم يكون في حرية ولك خيي. هلأ في بغال سارحة، بتعطيها حرية؟

وتابعوا معي، هناك مدن كلبيــة ديوجونية (Cynicism). نيتشه يترك التعليــق لزياد أيضًا: السّطل بيســاع إشيا كتيرة مش دايمًا هــوي بــدّو ياها، إنمــا واجباتو بتقتضــي يستوعبا، هيــدي صفّت مصــيرو. وبيعبّوه وبيدبّــوا فيه إشيا ما بيتمنّوهــا لحالُن. السطل بلا مخ، السطل ما عندو إلا إنو يتوقّع شو رح يدبّوا فيه، ومش هوي بيفضّي نفسو، هني بيرجعوا اللــي عبّوه بيفضّوه. فلنحمد الخالق خلــق السطل بلا مــخ، لأنو إذا بلا مخ وهيك، لــو في مخ أكيد كان بيسوسنا... يعني بيحكمنا.

وأخلُصُ إلى وجودِ مــدنٍ أفلاطونية، على الــورقِ فحسب، ومدنٌ لاعُنفيَّــة، حيادية، كمثلِ سويسرا التــي أستغرب كيف أن المنتصرَ في جولاتِ الحروب العالميــة لم يدخُلْها، ولم يضعْ يدَه بالتالي على مدَّخراتِ عدوِّه التي أودَعَها قبلًا مصارفَها.

وهكــذا، فإن ما يُسبغُ على هــذه المدن تسميــاتٍ ونعوتًا، ما هو إلا الحاجاتُ والدوافعُ والسلوكُ الإنساني.

وإذا كانَ، كمــا يقــالُ، إن وراءَ كلِّ سلوكٍ دافعًا، ولكلِّ دافعٍ حاجةً، ولكلِّ حاجةٍ عَوَزًا، فإنَّك تصلُ في نهايةِ هذا التَّسلسل، إلى الوعي/ الضمــير. وأســألُ: هــل مــن عُضــوٍ في الجســم اسْمُهُ الوعــي، أو الضمــير؟ لا يوجد. فأستنتجُ أن هذا اللاموجــودَ هو المسؤولُ عن تصرفَّاتنا.

وهــزئَ نيتشه معلِّقًا إنَّ «الوعيَ أو الضميرَ هو آخرُ تطورٍ لاحقٍ من الحياةِ العُضويةِ وبالتالي هو الأقلُّ اكتمالًا والأكثرُ هشاشةً».

« La conscience est la dernière et la plus tardive évolution de la vie organique, et par conséquent ce qu'il y a de moins accompli et de plus fragile en elle. »

لنَعُدْ إلى مازلو ونظريته عن هرميَّةِ الحاجات. إذا راقَبْتَ المدينة، تــرى أنَّ فيها مَنْ يعمــلُ ومن لا يعمل. فمَن يعملُ قد يتساءلُ: كيف يحــدُثُ أنَّني أعملُ بعيدًا عن عائلتــي، كُرمى لعائلتي؟ أما الذي لا يعملُ، فقل لي، بربِّك، كيف يعيش؟

كيــف يعيش؟ أجاب زيــاد: شوع بالك، إنت معصوم لحد هلق عن كل أنواع الغلط، بس لسبب واحد. لسبب إنك مقبور مش عم تعمل شي تقبرني.

يخالفــه نيتشه، «لأنَّ الذي لا يملكُ ثلثي الوقتِ من يومِه، هو عبدٌ، وليكُنْ ما يشاء: رجلَ دولة، بائعًا، موظفًا، أو عالمًا».

« Celui qui ne dispose pas des deux tiers de sa journée pour lui-même est un esclave, qu'il soit d'ailleurs ce qu'il veut : politique, marchand, fonctionnaire, érudit»

ويوضح زياد: «إذا في هيدا المجتمع كل واحد بيتعب شويّ ما بيعود حدا يتعب ولا نتفي...».

لاحظــوا معــي أن الناسَ في المدينةِ يأكلــون ويشربون، مــن أجلِ البقــاء، مــن دونِ أيِّ اعتبارٍ آخــر. نبَّهَ زياد: بكــرا بيكبروا الولاد وبيخففــوا تدريجيًّا الكاتشــب... وبيعرفوا انــو الهمبرغر الطيب داخللو كاوتشوك. بكرا بيكبروا الولاد وبيعرفوا أنو البطاطا أحسن وأطيب من الفريت. وبيعرفوا إنو بعد ما في شوكولا ع لوبية ورز.

وثمةَ بعدُ بــين الناس نوعان: نباتيُّونَ، بمعنى أنهــم يَرْعَوْن. وأكلةُ لحوم، من الحيــوانِ الأليفِ إلى الحشراتِ والصراصير، بما يثيرُ فينــاً الاشمئــزازَ والغثيان. أي إنَّنا كبشــر، لا نختلفُ في شيءٍ عن الحيــوانِ، مع فارقٍ لافت، هــو أنَّ الإنسانَ يصــلُ وجباتِه، بعضِها ببعض، طَوالَ ساعات.

ولفــتَ بالتالي نيتشه إلى أن ثمةَ خطأً أوجدَ الإنسانَ من الحيوان، فهل تكونُ الحقيقةُ في أن يعودَ الإنسانُ حيوانًا؟

«Error has made animals into men; is truth in a position to make men into animals again?»

وأســألُ أيضًــا: إذا كان الإنســانُ يشربُ المــاءَ، وإذا كان الماءُ غيرَ عُضــوي، كيف يُدخلُ إلى جسمِــه العُضوي مادةً غيرَ عضويةٍ يقالُ إنهــا مصدرُ الحيــاة. وكما الماءُ، الملحُ غيرُ عضــويٍّ أيضًا. وعليه، يكونُ اللَّاعضويُّ علةَ وجودِ العُضوي.

لمَ الاستغــراب؟ يســأل نيتشــه ويقــولُ: ليست عبثيةُ شــيءٍ ما، أو لاعقلانيتُه، حجةً لعدمِ وجودِه، بل هي شرطٌ لوجودِه.

The irrationality of a thing is no argument against its existence, rather a condition of it.

لم ننتــه بعدُ من سيــل الأسئلة. كيف ننمو، علمًــا أن خلايانا التي تمــوتُ، تَحُــلُّ محلَّها خلايا أخرى مختلفةٌ عنهــا تمامًا؟ أي إنَّ كلَّ عضوٍ في جسمِنا يتغيرُ عن آخرِه، فكيفَ نعودُ نعرفُ أن هذا العضوَ لنا؟

وعلَّق زياد: بدّك ترجَع لَ تشوف، وبَدّك تشوف إذا فيك ترجَع...!!!

وأضاف: كتير ناس بتعرف إنو حلو الواحد يرجع لأصلو...

بس قليلٍ من الناس بتعرف إنو صعب الواحد يرجع لأصلو.

والأســوأُ أن عــددَ البكتيريا الموجودة في جسمنــا هو أكثرُ من عددِ خلايانا. مما يعني، ديمقراطيًّا، أنَّ البكتيريا هي التي تتحكمُ بنا، ونحنُ نخضعُ لها.

معقــول؟ يســأل زيــاد: «الله خلقَــكْ إنســان... ليش مُصِــرّ عَ الحيونة...!».

لنتأملْ، في مجالِ الأسئلة، تطوُّرَ لباسِ الإنسان. لماذا ليَّةُ الشروالِ واسعــةٌ بهذا القَدْرِ؟ ولمــاذا يطولُ شكلُ القبعــةِ أحيانًا أو يقصرُ؟ ولماذا يتَّسعُ أو يضيقُ؟

ولنتأملْ ماذا يرتدي الناسُ، علمًا أنَّ لكلِّ مناسبةٍ ثيابًا خاصةً بها؟ لماذا نلبسُ البنطالَ الضيقَ؟ ولمـاذا نشدُّ على خصورِنا الأحزمة؟ ولمـاذا نخنقُ أنفسَنا بربطاتِ العنق؟ ولماذا ننتعلُ الأحذيةَ الضيِّقةَ التي تعضُّ على أرجلنا؟ فهل ينتعلُ الحيوانُ كعبًا عاليًا مثلًا؟

ولنلاحِظْ أيضًـا كيف تطورَ حديثًـا لباسُ الأنثـى. اخترَعوا لها، بـادئَ ذي بَـدء، التنـورةَ الطويلـة (Maxi)، ثم أخـذوا يُعلونها لتصبحَ قصيرةً (Jupe)، فأقصرَ (Mini Jupe) فأكثرَ قصرًا (Micro Jupe)، ومن ثم البنطالَ القصيرَ (Short)، الذي راح يقصرُ شيئًا فشيئًا حتى أصبحَ يُزعجُ المرأةَ، فابتدعوا لها حينذاكَ الخصرَ المخفوض (Taille Basse)، بمعنى أن العجزَ أن الإعلاءِ أكثرَ ولَّد نظريَّةَ الإخفاض.

فعـزا نيتشه هـذا السلوك إلى أنَّ «أسفلَ البطـن هو السببُ الذي يمنعُ الإنسانَ من أن يستسهلَ حسبانَ نفسِه إلهًا».

C'est la partie de son corps qui est au-dessous de la ceinture qui fait que l'homme ne se prend pas si facilement pour un dieu.

Le bas-ventre est cause que l'homme ait quelque peine à se prendre pour un dieu.»

لننتقلَ في بحثنا إلى الحاجة الثانية في تراتبيةِ مازلو. لأن الإنسانَ يخـافُ، بطبعِه، يبغي الأمانَ، مـن دونِ أن نتحدثَ عن الأمانِ الما ورائيِّ، لنحصرَ الكلامَ بالأمانِ الأرضيِّ الذي هو العمارةُ.

ولكـنْ قبلُ، بينَ قوسين، عندما كان الإنسـانُ البدائيُّ يهربُ خوفًا مـن الحيوانِ، كانَ يلجأُ إلى الكهوفِ والمغـاور، لأنَّه كانَ يدركُ أنه سيتـأذّى أو يتـألمُ أو يُجرحُ أو يموتُ، إذا هاجمَـه وحشٌ ما. ولكنْ لمـاذا يهـربُ الحيـوانُ من الوحشِ الـذي يهاجمُه؟ هـل يَعي أنه سيُجرحُ أو يتألمُ أو يموتُ؟

والغريبُ في الأمرِ أنْ حـينَ يتفرَّدُ وحشٌ بفريستِه من بينِ القطيعِ، يُقلعُ القطيعُ عن الهربِ.

وأزيـدُ بين قوسين أيضًا: لمـاذا أطلقَنا على المحميَّةِ اسم المحميَّة؟ لنحميَ مَن مِمَّنْ؟

وبينَ قوسينِ يجيب نيتشه: «القرودُ أكثرُ طيبةً من أن يكونَ الإنسانُ قد تحدَّرَ منها».

Les singes sont bien trop bons pour que l'homme puisse descendre d'eux.»

ويخاطـبُ زيـاد الإنسانَ، بعدما خـبرَه جيدًا: «إنـتَ أكبَر سعدان عرفو التاريخ... لَو شافَك دارون كان وَفَّر وَقت الله».

زياد الرحباني

ونعودُ إلى الأمانِ الأرضيِّ المتمثلِ بالعمارة، وأنا أستاذٌ في تاريخها ونظرياتها. كنَّا دائمًا نتساءلُ عن تطورِ العمارة، ونجدُ تبريراتٍ مختلفةً لتنوُّعِها وتبدُّلِها. وكنتُ شخصيًّا أنتشي بالتبريراتِ الفلسفيةِ والإيديولوجية. ولكنْ بعد تأمُّلٍ، اكتشفتُ سببًا جديدًا وبسيطًا لتطوُّرِ العَمارة. فعندما بنى الإنسانُ الأولُ بيتًا، نسيَ أو لم يعرفْ أن يوقعَ فيه بابًا. فكانَ يَدخلُه من السقف. ولكنْ بعدَ حين، فَطِنَ واحدٌ من سلالته إلى الأمرِ، فكان البابُ، ليأتيَ سليلٌ آخرُ ويضيفَ النافذةَ التي لم يستدركْها سلفُه. وجاء آخرُ ثم آخرُ فآخرُ، يضيفونَ تحسيناتٍ لم يلحَظْها السابقون. ألا يمكنُ أن يكونَ سببُ تطوُّرِ العمارةِ... الغباءَ؟

بلى يمكنُ، يقول نيتشه: «ما إنْ يُتَّخذَ القرارُ حتى تُصمَّ الآذانُ أمام أفضلِ حجةٍ مضادة: تلك هي سِمَةُ الطبعِ القويِّ وتاليًا إرادةُ ارتكابِ حماقةٍ بين حينٍ وآخرَ».

«Once the decision has been reached, close your ears even to the best counter-argument: a sign of strong character. Thus an occasional will to stupidity.»

ندخلُ المدينةَ، فنجدُ عماراتٍ مختلفةً بعضَها عن بعض، وبينها طرقٌ. والسؤالُ: هل شيَّدنا العماراتِ وشقَقْنا من ثَمَّ الطرقَ بما يوافقُها، أم أنَّنا شقَقْنا الطرقَ وبنَيْنا عن جوانبها العماراتِ؟ وعليه، إذا شقَقْنا الطرقَ ومن ثَمَّ بنينا العماراتِ، يكونُ الطوبوغرافُ هو من يُحدِّدُ شكلَ البناياتِ وحدودَها، لا المعمارُ.

وفي معاينةٍ للعماراتِ، نجدُ أن ثمةَ جوامعَ مشتركةً في ما بينها، أي أنَّ من يشيِّدُ عمارةً جديدةً، يأخذُ مسبقًا في الحُسبانِ، الإطارَ المحيطَ بها. وبالتالي فإذا كانتِ العمارةُ الجديدةُ تتبعُ الأقدمَ منها التي إذا احتوتْ أخطاءً، هل ينبغي لنا أن نعتمدَ الأخطاءَ نفسها؟

وبعدُ، هناكَ مدنٌ منظمةٌ، شوارعُها مستقيمةٌ، تتقاطعُ بزوايا قائمة، وعماراتُها تتبعُ الاتجاهاتِ نفسَها. في مقابلِ مدنٍ اعتباطيةٍ، شوارعُها غيرُ مستقيمة، فيما عماراتُها عشوائيةُ الاتجاهاتِ. أفيكون طفلُ المدينةِ المنظَّمةِ ابنَ الشارع، وطفلُ المدينةِ العشوائيةِ ابنَ الحيِّ؟

وبالانتقالِ إلى الأماكنِ العامَّة، كالمطاعمِ التي تعتمدُ الأنوارَ الخافتةَ، ربما لإخفاءِ الغبارِ والأوساخِ عن الطاولاتِ والأواني، أكثرَ منه لإضفاءِ جوٍّ حميمٍ على مُرتاديها.

وهناك الحماماتُ العموميةُ. ونستذكرُ الحماماتِ الرومانية وشهرتَها الطافقةَ، حيث تصطفُّ المراحيضُ بعضُها قربَ بعض، ويتفاعلُ قاصدوها اجتماعيًّا وهم يتبادلونَ الأحاديثَ، خلالَ قضائِهم حاجتَهم. فتتداخلُ أربعُ حواسَّ معًا في هذه الجلسة: النَّظرُ والسَّمْعُ والشَّمُّ واللَّمسُ... ولا ينقصُ إلَّا حاسةُ الذَّوقِ.

وقد اكتشفتُ لماذا يضعُ المعمارُ الحديثُ المرحاضَ قربَ البابِ، في الحماماتِ العموميةِ، إذ إن القفلَ كثيرًا ما يكونُ مخلوعًا، مما يدفعُ قاصدَه إلى أن يسندَ البابَ برجلِه حين يبوِّلُ. والأنكى أنك حينَ تريدُ أن تغسلَ يديك، بعد قضاءِ حاجتك، وعليكَ أن تفتحَ البابَ لتَخرجَ، تُحاولُ فتحَه بكوعِك أو برجلِك، لعلَّ الذي قضى حاجتَه قبلَك لم يغسلْ يديه.

وهنا أسألُ لماذا يحبُّ الإنسانُ رائحتَه الكريهة؟ تدخلُ المرحاضَ وتشمئزُّ مما خلَّفَه من سبقَك إليه من رائحة. لكنَّك تجلسُ على كرسيِّ المرحاضِ طويلًا، مثلًا، وتتنشقُ رائحةَ فضلاتِكَ وتقرأُ الجريدةَ كاملةً أحيانًا هناكَ.

هناك أشخاصٌ يستمتعونَ برائحةِ عرقِهم، خصوصًا تحت الإبط، وآخرونَ يمرِّرونَ أصابعَهُم في أماكنَ مقيتةٍ من أجسامِهم، ويشتَمُّونَها.

يوافقُ زياد على ما سبق، فيقول: «ع فكرة الانسان هو اكتر واحد بيشم ريحته»، مستدركًا: «في واحد بس بيقدر يشمله ريحته أكتر منه... يللي بيكرهه».

ولكنْ أيها الإنسانُ لماذا تدَّعي الاشمئزازَ، ونراكَ في حوضِ السباحةِ تستلذُّ غطسًا، وتبتلعُ ماءَه أحيانًا، فيما ماؤُه يحتوي كلَّ أوساخِ الناس.

وفي المدينةِ أماكنُ خاصة هي منازلُنا. فمنازلُنا الحديثةُ منسوخةٌ عن منازلِ الغربِ، منذ ما يقاربُ السنواتِ السبعين، ولم نزلْ نحاولُ التكيفَ معها، ولا أدري هل نجحنا في ذلك أم لا. فغرفةُ الطعامِ يجبُ أن تكونَ قربَ المطبخِ مباشرةً، فيما نحنُ لا نتناولُ الطعامَ فيها إلا في المناسباتِ والأعياد. أما الدَّارُ وغرفةُ الطعامِ فهما يحتلانِ المساحةَ الكبرى في المنزلِ، ولا نستخدمُهُما إلا حينَ يقصدُنا ضيوفٌ. ونختارُ أصغرَ الغرفِ لنجعلَها غرفةَ جلوسٍ أو سهرةٍ، هي التي تشهدُ أكثرَ النشاطاتِ المنزلية من أكلٍ وشربٍ وتسليةٍ ولَعبٍ ودرسٍ وأعمالٍ منزلية، وحتَّى نوم.

صحيح، يعلق زياد: «الإسم للحمار والصيت لغَيرو...».

والأنكى أيضًا أننا حينَ نصمِّمُ عماراتِنا وبيوتَنا، نتحاشى أن نرسمَ الأشكالَ بزوايا غيرِ قائمة، لأن تأثيثَها صعبٌ. ليصبحَ بذلك علمُ العمارةِ خاضعًا لإنتاجِ النَّجَّارِ وذوقِه ومزاجِه.

وفي المدينةِ أماكنُ عبادة، حيثُ مزاراتُها مصمَّمةٌ بطريقة تحثُّ المؤمنَ على أن يضعَ فيها نُقودًا، ولكنْ لا يستطيعُ أن يأخذَ منها نقودًا.

ألا تعلمُ، يقول نيتشه، أنَّ الناسَ لا يَخجلون، وهم يفكِّرون في أيِّ شيءٍ دنس، لكنهم يخجلونَ من أن نظنَّهم قادرين على هذهِ الأفكارِ الدَّنِسَة».

«People are not ashamed to think about dirty things, but they are ashamed when they imagine that others believe them capable of having these dirty thoughts.»

وهناك أماكنُ سياحية حيث يسيحُ الناس كما لاحظ نيتشه: «إنهم يتسلَّقون الجبلَ مثل البهائم، أغبياءً وعرقى، ولكن لم يكلِّف خاطرَه أحدٌ ليُعْلِمَهُمْ أن هناكَ مناظرَ جميلةً على طولِ طريقِهِمْ».

They climb the mountain like beasts, stupid and sweating; it seems that no one bothered to tell them that there are beautiful vistas along the way.

وثمةَ أماكنُ في المدينة لا نعرفُ مَنْ صمَّمَها أو شيَّدها. أَهُوَ المعمارُ من دونِ أن يُدركَ، أم الناسُ بأنفسِهِمْ؟ من مثلِ الزُّقاق والمَلْطش والبؤرة وتحت الجسر، في خارجِ المنزل، أما داخلَه فتحتَ الدرج ووراءَ البابِ وتحت الكنبةِ والعلِّيَّة التي أسألُ أيًّا منكم هل يعرفُ ماذا تحوي؟

وهناك أماكنُ نشيِّدُها ولا نعرفُ كيف نتصرَّفُ فيها. خُذ المصعدَ مثلًا، يدخلُه شخصٌ معنا، فلا نعرفُ أين نتطلَّعُ أو كيف نتعاملُ معه. وعندما نلتقيه ثانيةً نومئُ برأسنَا أحدُنا للآخر، لنبدأَ في المرة الثالثة بالكلام على الطقس مثلًا، وصولًا إلى شَتْم الدولة.

وخذْ أيضًا مساندَ الكراسي في الصالات العامة، مَنْ يتَّفقُ مسبقًا معَ مَنْ، أيَّ جهة منها يستخدمُ للاتِّكاء؟

وسألتُ نيتشه أخيرًا: ماذا ينقصُ المدينة من حَيِّزات؟ أجاب: «يجبُ أن نوجدَ أمكنةً نَتَبَصَّرُ فيها في أفكارِنا الخاصة».

Espace pour penser nos propres pensées

ونصلُ إلى الحاجة الثالثة في منظومة مازلو، وهي حاجةُ الانتماء والتواصل. فالناسُ يتواصلونَ في المدينة، في ما بينهم، وَفْقَ أنظمة مختلفة، الأفعلُ بينَها هو اللغةُ.

فقد ارتكزت الكتابةُ الأولى المسماريةُ والهيروغليفيةُ على مبدإ رسم الأشكالِ الحقيقية، إلى أن جاءَ الفينيقيونَ فجعلوا تجسيدَ كلِّ حرف بصوت مختلف، أساسًا لأبجديتِهِمْ.

وهكذا تطوَّرت اللغةُ ونحن مطمئنونَ إلى فاعليتها، حتى القرن التاسع عشر، حين تساءَلْنا عن صدقيَّتها في نقلِ الواقع. فقبلَ أربعينَ سنةً أثبتَ الما بعدَ بُنيويين عدمَ فاعليتها، من حيثُ عدمُ وجودِ معانٍ محددة للكلمات والجُمل، إذ إنَّ كلَّ نصٍّ يحتوي عددًا لامتناهيًا منَ المعاني. وهنا أسألُ كيف تفهمونَ عليَّ الآنَ؟ وكيفَ يتفاهمُ الناسُ في ما بينَهُمْ؟

كيف؟ يقول زياد: «إذا قررت واحد ما تسمعلو، ما تقلو سكوت ما تحكي... لا أفضل تقلو إحكي إحكي خيي إحكي، وإنت بهـ الوقت ما تسمعلو».

ويضيف: مش ضروري تضل عم تشرح شي لناس معتبرين حالن بيعرفوه...

لا بل بيعرفو كل شي. مش ضروري تحاول تشرح لأشخاص موضوع مش هاممن بلغتو الأساسية.

مش ضروري تضل تعمل إشارات لعالم عم يتطلعوا على غير محل يا خيي

ليك مش ضروري تضل سهران على جماعة نامو زمان وفي واحد قشط راسو بصحن التبولة. روح اضهار... تمشى، استاجر بسكليت».

أما الحاجةُ الرابعةُ في نظريةِ مازلو فهي تقديرُ الذاتِ وتقديرُ الآخرين لنا. فأسألُ لماذا يسعى الإنسانُ إلى إيذاءِ نفسه، بدلًا من تقديرِها؟ أهي حاجةٌ لديه إلى إيذاءِ نفسه؟ لنضربْ مثلًا عن زميلين على مقعد الدراسة، أحدُهُما مُجَلٌّ أكثرُ من الآخر. فحينَ ينالُ المُجلي علامةً تفوقُ ما ناله الآخرُ، يقول في نفسه: ألا أستأهلُ أكثرَ منها؟ أما إذا حدثَ أن نال الآخر علامةً أعلى، يبدأُ المُجلي بتهنئته وتشجيعه، ويُبدي كلَّ مشاعرِ الإعجاب والثناء، لكنهُ في قرارةِ نفسه يغضبُ ويستاءُ ويتساءلُ: كيفَ حدثَ ذلكَ؟

يُجيب نيتشه: «إن من يحيطُ به لهيبُ الحسد، تنتهي به الحالُ إلى ما ينتهي العقربُ إليه، فيوجِّهُ حمَّتَه المسمومةُ إلى نَحْرِه».

« Celui qu'entoure la flamme de la jalousie, celui-là en fin de compte, pareil au scorpion, tourne contre lui-même son dard empoisonné. »

ولماذا يفرحُ البعضُ عندما يتأذَّى أحدُ أصدقائهم؟ يجيب زياد: «في ناس تربت ع أخلاق حميدة. بس للأسف حميدة طلعت رقاصة»...

أو «لك فهمنا إنها بنت بيت، بس يا خيي البيت بيت دعارة»!

أما نيتشه فقال بأسلوبه: «كلَّما ارتفَعْنا، بَدَوْنا صغارًا لِمَنْ لا يقدرونَ على التَّحليق».

«The higher we rise up, the smaller we appear to those who are unable to fly.»

ولماذا، أيها المنتدونَ الكرام، نخترعُ أشياءً ندَّعي أنها لمصلحتنا، لكنَّها تؤذينا بالمقدارِ نفسه الذي تُفيدنا به. وسأضربُ مثلًا على برامجِ الكومبيوتر التي لا تنفكُّ تتجدَّد باستمرار، كالويندوز والوورد (Windows - Word)، فتُهدرُ وقتَك في الاطلاع على ما حُدِّث ولا حاجةَ لك به، فضلًا عن أن التغييراتِ الطارئةَ عليه تجعلُك تضيعُ أكثرَ وأكثرَ، وأنتَ العالمُ به.

فيقول زياد: «أوقات بيتهيألك إنو خفَ الاستغلال. ما بيكون خف. بتكون حضرة جنابك تعوّدت عليه».

لاحظوا أن ثمةَ مايكروويف يتضمَّنُ خِيارًا يجعلُه مبرمَجًا شهرًا

كاملًا. مَـن ذا الذي سيضعُ قبل سفره، طبقَ طعامه ليعودَ بعد شهرٍ ويكونَ جاهزًا ليتناولَهُ.

والتفسيرُ واضحٌ لدى نيتشه الذي قال: «ليس انتصارُ العلم هو الذي ميَّـزَ القـرنَ التاسعَ عشـر، إنما هو انتصـارُ المنهجيـةِ العلميةِ على العلم».

Ce n'est pas la victoire de la science qui distingue notre XIXe siècle, mais la victoire de la méthode scientifique sur la science

ولنضحَـكْ قليـلًا. يسعـى أحدُهـم إلى الحصـولِ على رَقـم للوحة سيارتـه من ثلاثةِ أعدادٍ، ويدفعُ ثمنَـه باهظًا، ليستمتعَ به مَن يسيرُ خلفَه في السيارة.

يتدخـل زياد: «هلـق ليش بيحطوع باكيت الدخـان تاريخ صلاحية؟ إنـو يعني إذا خلصت صلاحيتـو ودخَّنتو شو بيعمـل؟ بيصير مُضر بالصحة وسبب رئيسي لأمراض القلب والسرطان؟».

وهـل يشعرُ الإنسـانُ أنه يحتـاجُ إلى ادعاءِ المعرفة؟ فثمـةَ مَن حينَ تطـرحُ عليه سؤالًا يجيبُك من دونِ أن يفكرَ، أو يحتالُ عليه بإيهامِكَ أنه فكَّرَ قبل أن يجيبَ.

وكـمْ مـن أطباءٍ في الغـربِ عندما يَعجـزونَ عن تشخيصِ مَرَضٍ، يقولـونَ إنه فيروس. وماذا عن دواءِ الفيروس هذا يا دكتور؟ يجيبُ: لا لزومَ للدواءِ، سيختفي الفيروس من تلقائه.

أما الطبيبُ اللبنـاني، فيهوِّنُ على مرضاه فيتذاكـى أنَّها حَسَاسِيَة، بدلًا من الفيروس.

نص الألف خمسمية، في رأي زياد: أي يا خيي مظبوطة. هلأ الحكيم ع راسـي الحكيم. بس انـو شو بْيتمنّالـك الحكيم؟ إنّـو تضلّك متل النّمـر يعني؟ ما في، مـا، ما بدو يشتغل هوّي كمـان. إيه والمستشفى شو بالله؟ إنـو المستشفى بتتمنّى تضلّ فاتحا ليل نهار وهـ العالم عم تتغندر حواليها متل الأحصنة؟ ماه إيه يعني، إذا بْتشلّي إمّك ع جنب، بْيطلع آخرة النهار ما في إلا هول جماعة التأمين هنّي اللي بْيتمنّولك كلّ خير... ما تدقك شوكة... شو بعملّك؟... بس مظبوطة!!!

ونخلصُ إلى آخرِ حاجةٍ من نظامِ مازلـو، وهي تحقيقُ الذاتِ خوفًا من الموت. فالإنسانُ باتَ يموتُ، في عصرنا، في سنٍّ متقدِّمة، مكتَنزًا طَوالَ عمرِه المديدِ هذا معلوماتٍ أكثر، وكلَّما تقدَّمَ العلمُ، طالَ عمرُه وازدادَتْ معرفتُـه. وهنا أسأل: هلْ ما تطلبُهُ السماءُ للسماءِ من أهلِ الأرضِ، هو كَثرةُ المعرفةِ؟ ولماذا؟

يجيب نيتشه: «حذارِ القـول إن الموتَ نقيضٌ للحياة. فالحيُّ ليسَ إلا نوعًا مما هو مَيْت، ونوعًا نادرًا جدًّا».

« La vie n'est qu'une variété de la mort, et une variété très rare. »

ويعقِّـب زياد: «مـا النوم بروفا للموت». مع إنـو بس يموت الواحد ما بياخـد معو شي هيك علمونا. في ناس ما زالـوا عم بيخبّوا ويضبّوا. الأرجـح مش قاطعين الأمل وبرأيي إنو أكيد مش بسبب الإيمان يعني هني رأيْن إنو ربما هلق وع مضض يعني بعد ما بيقدر ياخد معو شي الواحـد بس من هلق لوقـت ما هني يتوفوا إلا مـا يلتَقى شي طريقة بالعلـم بالتكنولوجيـا، ياخد معو الواحـد مش بس شـي، ياخد معو كـل شي، بس لوين؟ وكيف؟ وبأيا طابـق الجماعة؟ شحن ما شحن، تخليص، بوالص، ولشو رح بيعوزُوُن؟ بأيا منطقة؟ ما بعرف ما هوي اللي بيبقى هيك مَنّو قاطع الأمل. هو مفروض يعرف. إنت بهـ الوقت عيشـ وإذا معك قرش، قرش واحد، عمول جهدك تصرفو خلال هـ الحياة الجارية. ما القرش نصو نص قرش.

وهنـاك من يسعى كي يمـوتَ، بإرادته، شهيـدًا أو مناضِلًا في سبيلِ قضيةٍ أو مبدإ.

فعلَّق نيتشه: أتباعُ الشهيدِ يعانون أكثرَ ممَّا عانى هُوَ.

A martyr's disciples suffer more than the martyr.

وحذَّر زياد: «ممنوع حدا يبكي أكتر من أهل الفقيد». ويضيف: «بدنا نكفي باللي بقيوا. مش بدنا نكفي ع اللي بقيوا».

ليُلخِّصَ نيتشـه الأمـر بالقول: كثيرًا مـا يكونُ المـرء في حاجة إلى التعـازي إثر حدوثِ وفاة، ولا يكونُ ذلكَ بقصـدِ التخفيفِ من شدَّة الحُـزنِ، بقَـدْرِ ما يكونُ بقصـدِ تبريرِ شعـورِه بكَوْنِ ألَمِـه قد تراجعَ بسهولةٍ بالغة».

When somebody dies we usually need reasons for consolation, not so much to alleviate our pain as to excuse ourselves for so readily feeling consoled.

ختامًـا، وبعدما عَرَضْتُ لحاجات الإنسـانِ ولبعضٍ من تصرفاته في المدينة، يَهُمُّني أن نتبادلَ أسئلةً نَتَجَتْ عنها:

أهـيَ حاجةٌ فيزيولوجيـة، بمعنى حبِّ البقاءِ، أن نمـلأ رئاتِنا دخانًا ملوَّثًا،

أنْ نأكلَ في مطاعمَ لا ندري مدى نظافتها وصحَّةَ مطابخِها،

أن نسمعَ أبواقَ السياراتِ والضجيجَ في شكلٍ دائم،

أن نقودَ سيارتَنا مُجْهَدين متوتِّرينَ مضغوطينَ في زحامِ السَّيرِ،

أن نحيـا بقلقٍ في بيئةٍ ملوثـة صحيًّا وبصريًّا وسمْعيًّـا... كأننا نحيا في مزبلة.

وينك رايح؟ يعلق زياد:

«أنت عم تحكيني عن الزبالة الوسخة

لا في زبالـة نظيفـة ومحترمة في زبالـة بتحط كولونيـا إذا ما معك خبر».

لكـي يتقبلَ الإنسـانُ حياةً في بيئةٍ كهذه يجب أن تكونَ لديه حاجةٌ ما أو دافعٌ أو حافزٌ، مضادٌ لعلةِ وجودِ الحاجةِ الأصلية.

وهنـا أيضًا يعلِّقُ زيـاد: «ما بيشيـل الزيت إلا الصابـون، علمًا بإنو

الصابون كلو زيت، فكيف رح ينشال الزيت؟».
ومـن حيثُ الحاجـةُ إلى الأمانِ، هل من لـزوم لأن نبقى مراقَبين طَوالَ النَّهار، في مكاتبِنا ومنازلِنا وعلى الطرقِ.
«بعلمـك، يقول زيـاد، بيكون الواحد ناطور البنايـة بيصفّي فجأة ناطور عليك شخصيًّا، ويا ريت ناطور منشانك. ناطور ع أخبارك اللي انتي كتير حريص إنك تبعِّدا عن كل النواطير».
ويضيف: ليك... شغلة النسوان، يتفرجوا ع النسوان
وشغلة النسوان.. يبصبصوا ويفَلّوا النسوان
وشغلة الرجال... يتفرجوا ع النسوان،
هني وعم بيتفرجوا ع النسوان،
وع النسوان اللي النسوان عم بيتفرجوا علين
يعني ع كل النسوان
من هيك... ولا مرة النسوان بيلقطوا الرجال عم بيتفرجوا ع النسوان
مشغولين لأنو ملهيين دايمًا بالنسوان».
أمـا بالنسبـةِ إلى الانتماءِ، أهي حاجةٌ أن نـتركَ محيطَنا العائليَّ ونتبادلَ العلاقاتِ وشؤونَ الحياةِ مع أغرابٍ قد لا نتشاركُ وإياهم ذاكرةً جماعيةً واحدة، ولا عاداتٍ وتقاليدَ وطقوسًا؟
أهي حاجـةٌ أن نتخلى عن انتماءاتِنا ونسعى إلى انتماءاتٍ جديدةٍ باستمرار، خصوصًا أن وجوهَ المدينةِ لا تنفكُّ تتبدَّلُ؟
أهي حاجةٌ، في عصـرِ التكنولوجيا الرقميَّة والعوالمِ الافتراضيةِ، أن نفقدَ الحياءَ؟
وأمَّـا من حيثُ التقديـرُ، أهي حاجةٌ أن ننشـرَ غسيلَنا على الملأ، بالمعنَيَـيْنِ المَجازي والواقعي؟ كأنَّنا نخشـى أن نقومَ بهذه الأعمالِ كلِّها، فرديًّا، فتصبحُ مقبولةً إذا مارسناها جَماعيًّا.
يقـولُ نيتشـه: «الجنـونُ نادرٌ لـدى الأفـرادِ، لكنَّهُ القاعـدةُ لدى المجموعاتِ والأحزابِ والشعوبِ والعصور».
La démence, chez l'individu, est quelque chose de rare - chez les groupes, les partis, les peuples, les époques, c'est la règle.
وأما من حيثُ تحقيقُ الذاتِ، خوفًا من الموتِ، أهي حاجةٌ في بعضِ الأحيانِ أن تَنْشُدَ الموتَ؟
يقـول زيـاد: «هلق كيـف واحد بيلقـى مصرعو؟ هَيْ أنـا مش عم بفهمهـا، إنو هـوي شخصيًّا بيلقـى مصرعو؟... شـو كان عايش كـل الوقت مقضّيها عم بيفتش عليـه؟ وإذا مزبوط هوي اللي لقي مصرعه يعني كاين عم بيدوّر عليه فـ ع القليلة ما يموت، شو حمار هوي؟
وبعـد، أهي حاجةٌ أن تخرجَ من منزلِـكَ وتَهيمَ من دونِ أن تعرفَ وُجهتَكَ؟
يقول نيتشه: «من ليسَ لديه شيءٌ يفعلُهُ، يُشغلُهُ اللَّاشيءُ».
« Qui n'a rien à faire, un rien suffit à l'occuper. »
ويلاحـظ زياد: بيكون الواحد ضاهـر وبيحط جل ع راسو، ولابس جاكيت جلد سودا، وبتسألو لوين؟ بيقلك والله ما عندي فكرة.
طرحتُ السؤال على زياد: ألهذا قُلْتَ: أوقات الأمل بيطلع من ملل.
لم يُجِبْنـي، فأكمل: «كـان في واحد هيك بعرفو أنـا... عندو أمل، بيضل عندو أمل يعني
إنو رغم كل شي صار بهـ البلاد كان بعدو عندو أمل فبلَّغت عنو...
صراحـة يعني ما طاوعني ضمـيري، بلَّغت عنو، لقطـوه وحبسوه وبسجن إنفرادي يعني
أفضـل ما إنو يتعاطـى أو لا سمح الله يختلط مـع موقوفين تانيين يائسين مثلا
ويقوموا يزغزغولو النوايا.
طبعًا زلمة عندو أمل... ضبوه
ضبوه لما يضيع الأمل
ضبوه ليربى الأمل بمخو».
أما نيتشه فأردفَ: أسوأُ الشرورِ الأملُ لأنَّهُ يُطيلُ عذابَ الإنسان.
«Hope in reality is the worst of all evils because it prolongs the torments of man.»!!!
ثُمَّ أجادَ في الشرحِ قائلًا إنَّ الإنسانَ اخترعَ عالمًا مثاليًّا وآخرَ غيرَ مثالي. الكريمُ أفضلُ من البخيلِ، والنَّشطُ من الكسولِ، والشجاعُ مـن الجبانِ، ولائحـةُ المفاضلـةِ تطول. ولكـن أسألُ: هـل أفضلُ للإنسـانِ أن يعطيَ مـالًا لشحَّاذٍ بدلًا من أن يحتفـظَ بكلِّ نقودِه؟ وهـل أفضلُ لـه أن يَغْدُوَ إلى عملِه أو يظلَّ في فراشِه يتجدَّبُ؟ وهل أفضـلُ له أن يدافـعَ عن كرامتِـه ويتعرضَ للضَّربِ، بـدلًا من أن يعتمدَ مَثَلَكُمُ الشرقيَّ: مية كلمة جبان، وولا مرة ألله يرحمو؟
وتابع نيتشه: طبعًا إن العالمَ غيرَ المثالي هو لمصلحةِ الإنسان، لكنَّ الإنسانَ اخترعَ العالَم المثاليَّ ليحتقرَ الإنسانَ.
l'Homme a crée l'Idéal pour mépriser l'Homme.»
سألـتُ البروفسور فردريك، نيتشه طبعًا: لكـنَّ المجتمعات تحتاجُ إلى مثاليـاتٍ لتتفاعـلَ في ما بينهـا، لأنَّ الإنسـانَ لا يُمكنُهُ العيشَ وحيدًا.
أجابني: في مجتمعاتٍ أَكَلَة لُحومِ البشرِ، الوحيدُ فيها يقضُمُ قلبَهُ.
أما بين الجماعةِ، فالناس هُمْ مَنْ يأكلونَكَ. الخيارُ لك.
وتابع: لأنَّ الجماهيرَ مجمـوعُ أخطاءٍ يجبُ تصحيحُها. وإذا كنتَ تريدُ أن تزدادَ عَشَرَةَ أضعافٍ أو مئةَ ضَعْفٍ، إبحثْ عن أصفارٍ.
Du pays des anthropophages: Dans la solitude le solitaire se ronge le coeur; dans la multitude c'est la foule qui le lui ronge. Choisis donc!

« La foule est une somme d'erreurs qu'il faut corriger»

« Tu veux te décupler, te centupler ? Trouve des zéros. »

هنـا أدركـتُ شخصيًّا لمـاذا يرتادُ امـرؤٌ مسارحَ ليحضُـرَ عرضًا مسرحيًّا أو موسيقيًّـا، بدلًا من أن يشاهدَهُ وهو مستلق على أريكة في منزله يستمـعُ إليه مسجَّلًا بأفضل تقْنيَّـات الصَّوْت والصورة والعـزف والأداء... الممكنـة. هـذا لأنَّهُ ينتظرُ أن يرتكـبَ أحدٌ ما خطأً.

مـن ناحيـة أخرى، نعـرفُ أن ثمةَ مُدنًـا يبنيها سكانُهـا، وأخرى يصنعُهـا منظِّرون. وتحضُرُني الآنَ صـورٌ لـ لو كوربوزييه وفرانك لويدرايت أمامَ مجسَّمات ضخمة، يَظهران فيها، وفي يد كلٍّ منهما عصـا يدلُّان إلى أماكنَ في المدينـة على تلكَ المجسَّمات، يشرحان ويفصـلان ما صنعـت أيديهما، مدَّعيَـيْن أنهما يَكْنَهـان حاجات النَّاس.

سأل نيتشه: ما الفارقُ بين إنسانٍ مقتنعٍ وآخرَ مخدوعٍ؟ وأجاب: لا شيءَ إلا إذا كانَ مخدوعًا جدًّا.

« Quelle différence reste-t-il entre un homme convaincu et un homme trompé ? Aucune s'il a été bien trompé. »

ومـا عليـكَ، يضيفُ نيتشـه، إلا أن تبصقَ على المدينـة وتعودَ من حيثُ أتيتَ.

crache sur la grande ville et fais demi tour

إذا كنـا لا نوافـقُ على أن العالمينَ بموضوعٍ مـا يُحيطونَ به من كلِّ جوانبـه، وفي المقابـل إذا اعتمدنـا المنهجيّات الأكـثرَ حداثةً التي تلجأُ إلى الناس للوقوف على حاجاتهمْ، مَنْ يُمكنُه أن يعرفَ ماذا يريدُ النـاسُ، وما هو الأنسبُ لَهُمْ؟

يجيبُ نيتشه: أريدُ، لمـرة واحدة، ألَّا أعرفَ أشياءً كثيرة. الحكمةُ أيضًا تضعُ حدودًا للمعرفة.

I want, once and for all, not to know many things. Wisdom sets limits to knowledge too.

ويقول زياد: «في بعض الأمور بيكون أحسن إنو ما تعرفا
بيكون أحسن إذا ما عرفت عنا شي
منشان مخك بالدرجة الأولى
ومنشان حقوق الإنسان بالدرجة التانية».

وبعدُ، إذا كانتِ الحلـولُ كامنةً لدى الناسِ، فلماذا حصَّلتُمُ العلمَ إذًا؟

يقول نيتشه: «إنَّ عدوَّ الحقيقة ليسَ الكذبَ إنَّما هو الاقتناعُ».

« L'ennemi de la vérité, ce n'est pas le mensonge, ce sont les convictions. »

ختامًـا، عندما نأتـي أيَّ تصرف على أنه الصحيـحُ، وَفْقَ معاييرَ معرفيـة أو تربويـة أو أخلاقيـة نَشَأْنا عليها، فـإذا أَنْعَمْنا النَّظرَ، نَـرى أنَّ عَكْسَها هوَ الصحيحُ، وإذا شئنا إكمالَ البحثِ وصولًا إلى المعرفـة المُطلقة وحسنِ التصرف، نجدُ أننا كلَّما عَرَفْنا أكثرَ، زادَ جهلُنا أكثرَ، وزادَتْ أسئلتُنا. كأنَّكَ تسعى بملءِ إرادتك إلى البحثِ عن عدم المعرفة.

يختُـمُ نيتشه: «ما دُمْتَ تختبرُ النجومَ كأنَّها تعتليكَ فحسب، تبقى مفتقرًا إلى وُجهةِ نظرٍ أخرى من المعرفة».

As long as you still experience the stars as something «above you,» you still lack viewpoint of knowledge.

ويختـمُ زياد: «إذا مش رح تصير طعمـة الثقافة متل المنقوشة رح يضلـوا بس المثقفين مثقفين وما عارفين شـو يعملوا بهـ البلوة الي انبلـوا فيهـا. هلَّق جـد، أي هوي أطيـب؟ الثقافـة والّا المناقيش؟ المناقيش».

أيهـا المنتـدون الكرام، كـانَ لديَّ بعضُ معرفة وكثـيرُ أسئلة، لم يبـقَ لديَّ بعـدَ هذا العرضِ سوى أسئلـة. أَوْصَلْـتُ نيتشه وزياد، كـلًّا إلى منزله. أحدُهُما يهزأُ، والآخَرُ يسخـرُ. واحدٌ يلهو، وآخرُ يعبَـثُ... وقبـلَ أن أودِّعَهُما، التفتَ نيتشه إليَّ وقـالَ: «هل بِبَحْثِنا عنِ الحقيقة، نَبْلُغُ إلى السعادة؟

« Notre chasse à la vérité est-elle une chasse au bonheur? »

هيئة المعماريين العرب

اتحاد المهندسين العرب

هيئة المهندسين المعماريين التونسيين

تونس

ورشة العمل الثانية

تعليم العمارة في الوطن العربي

6 ـ 7 كانون الأول 2013

المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية والتعمير، جامعة قرطاج

نظمت **هيئة المعماريين العرب وهيئة المهندسين المعماريين التونسيين** ورشة العمل الثانية حول «تعليم العمارة في الوطن العربي» برعاية **وزير التعليم والبحث العلمي التونسي المنصف بن سالم**. واستضافت الورشة «المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية والتعمير جامعة قرطاج» حيث امتدت على مدى يومين في ٦ و٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٣.

افتتحت الورشة بكلمات لكل من المعمار أيمن زريبة رئيس هيئة المعماريين التونسيين والمعمار اميل العكرا رئيس هيئة المعماريين العرب والدكتور عادل الحديثي امين عام اتحاد المهندسين العرب، وكلمة الوزير المنصف بن سالم.

تضمنت اربعة محاور وطاولة مستديرة :

المحور الأول: تعليم العمارة في تونس والجزائر والمملكة المغربية وليبيا من بداياته حتى اليوم . تحدث فيه كل من : فاخر الخراط من تونس، منصوري الحاج من الجزائر، د.محمد الشاوي من المغرب، ود. رمضان الطاهر ابو القاسم واسامة عبد المجيد عبد الهادي من ليبيا.

المحور الثاني: تعليم العمارة في الوطن العربي التحولات وتعليم العمارة اليوم. تحدث فيه كل من د. حاتم علي جبر من مصر، أيمن زعيتر من الأردن ،د. محمود شرف الدين من لبنان، ود. عقبة فاكوش من سورية .

المحور الثالث: مضمون تعليم العمارة دور الأبحاث في عملية التعليم، أي معمار عربي نريد ؟ لأية ممارسة مهنية؟ تحدث فيه كل من د. يسار عابدين من سورية، د. سهير حواس من مصر.

المحور الرابع: تعليم العمارة في الوطن العربي في ظل العولمة وعلاقته بالعماترة والفنون والتقنيات الرقمية. تحدث فيه كل من د. منير ذويب من تونس، د. ايلي حداد من لبنان (القى الدراسة عنه د. عبد الله كحيل)، د. نظير ابوعبيد من الأردن.

والطاولة المستديرة حملت عنوان: «جودة تعليم العمارة في الوطن العربي» ناقش فيها الدكتور محمد الصعيدي من لبنان وادارها المعمار الدكتور رهيف فياض.

كما ادار محاور الورشة كل من المعمار الحبيب المهني (تونس) د. سهير حواس (مصر) محمد دندشلي (لبنان) والمعمار د. عقبة فاكوش (سورية).

م. اميل العكرا، م. د. فاخر الخراط مدير جامعة قرطاج، والوزير المنصف بن سالم، و م. أيمن زريبة رئيس هيئة المعماريين التونسيين ود. عادل الحديثي.

الإفتتاح
ورشة عمل «تعليم العمارة في الوطن العربي»
كلمة رئيس هيئة المعماريين العرب المعمار اميل العكرا

يمرّ وطننا العربي بظروف صعبة بسبب عدوان خارجي همجي يستعمل الأمراض الخطيرة الموجودة في مجتمعاتنا ويسعى، من خلال تأجيج جراثيمها، إلى تفكيك دولنا كيانات هزيلة متحاربة تقضي على ما تبقى من حيوية هائلة كامنة في أفراد و جماعات هذه المجتمعات... وإذا كانت ردّة الفعل على هذا العدوان، في أكثر من مكان، تشير إلى صلابة «الدولة العميقة» المتجذرة في تلك الأمكنة بسبب عراقة المجتمعات المدينية القائمة فيها، فإنّ هذه التباشير تستثير فينا إرادة تغيير واقع أليم متردٍّ نحو حالة صلبة من الوجود الذاتي الذي يستمدّ وجوده من ذاته، مع انفتاح لا محدود على العلوم والمعارف التي تضجّ بها مجتمعات الأرض المنتجة، ومع استعداد لا محدود أيضاً للمساهمة في جعل البشر أكثر إنسانية، وفي جعل الأرض التي عليها نحيا أكثر أماناً وأكثر توازناً وأكثر جمالاً.

وممّا لا شك فيه أنّ العالم العربي موجود بالفعل، بفعل تواصل أرض يحيا عليها سكان يتكلمون لغة عربية واحدة هي من أغنى لغات العالم؛ ويدينون بدين الإسلام الواحد، ذلك أنّنا «كلنا مسلمون، منّا مَن أسلم لله بالقرآن ومنّا مَن أسلم لله بالإنجيل ومنّا مَن أسلم لله بالحكمة»؛ يتعلمون تراثاً فكرياً واحداً مبنياً على أربعة عشر قرناً ونيّف من التفاعل مع الذات ومع الأرض ومع المجتمعات المحيطة، وهو تراث يستند ويغرف من تراث حضاري مبدع يمتدّ ماضياً إلى مطلع الألف الرابع قبل الميلاد؛ ولا زالوا يعيشون على أرضهم التي شهدت مع أجدادهم ولادة إثنين من الحضارات المدينية الثلاث التي أسّست لعالم اليوم، وهي حضارات الأودية الثلاث: وادي الرافدين ووادي النيل ووادي الهندوس... وإذ نكتفي بذكر هذا البعض من الأسباب الكبرى، فإنّنا نعتقد بالمقابل أنّ هذه الأسباب وغيرها هي ضرورية لتأكيد وجود عالمنا العربي، لكنّها لا تكفي لتأكيد وجودنا كوطن عربي، ذلك أنّ هذا الوجود يستلزم، دعماً للإيمان به، عملاً متواصلاً يبلور الأهداف المشتركة ويرسّخ المصالح المشتركة ويعتمد الآليات المناسبة.

وُلدت جامعة الدول العربية، بالمبدأ، لتجمع الدول التي تعلن عن نفسها أنّها عربية ولترعى مصالحها المشتركة، ولتعمل على زيادة المساحات المشتركة بين مجتمعاتنا ممّا يعزّز اجتماع دولنا حول مصالح شعوبها المشتركة، ويبني فعلاً ما نتوق إليه من وطن عربي. ويبدو أنّه لا يزال أمامنا طريق طويل ووعر للوصول إلى هذه الأهداف التي تقودنا حتماً نحو تواجدنا بقوّة في إطار أمم راشدة قوية بذاتها على أرض وطننا العربي المترامي الأطراف والإمكانات.

يشكّل العمران، من ناحية أخـرى، مرتكزاً أساسياً لتقارب البشر، جماعات ومجتمعات، وخصوصاً عند مَن يتمتّع بالمعطيات السالفة الذكر. ويشكّل فنّ البناء عصب أيّ عمران يطمح إليه أيّ مجتمع... فـنّ البناء، بما معنى تعلّم معـادلات النواميس الطبيعية والوضعية التي تنتـج عمارة تعبّر عن أبعاد في الإنسـان تتعدّى الحصول على مـأوى وعلى حصن وعلى مدينة : أنّه فـنّ ابتكار مكان الحياة. إذا كانـت خصائصـ العمارة في القاهـرة على ضفـاف النيل تختلف بعضـ الشيء عن تلك التي في طرابلس الغرب الموجودة على طرف البادية الطرابلسية وعلى الشاطىء الجنوبي للمتوسّط، أو عن تلك التي في تونس العاصمة، الخضراء، وريثة قرطاجة العظيمة، والتي تستقبـل الشمس يومياً من بحرهـا و تودّعها من على يابستها؛ فإنّ الفوارق تلـك تزول في المساحات الحدودية بـين هذه البلدان حيث الحـدود المصطنعـة بين كلّ بلـد وآخر: أفلا يجـوز لنا البحث عن عمـارة واحدة في تلك المساحات تعبّر فعلاً عن وحدة مفقودة بفعل تلك الحدود المصطنعة، وتعيد إلى الوجود التواصل السكاني، أحد العناصـر الأساسيـة التي ترسّـخ انتماءنا إلى وطـن عربي فعلي؟ ومـا هو صحيح في المثل الذي ذكرت، هـو أيضاً صحيح بين المغرب والجزائـر وبـين الجزائـر وتونس؛ وهـو صحيح أيضاً بـين العراق وسوريا والأردن ولبنان وفلسطين، كذلك بين دول الجزيرة العربية. وكمـا يبدو مـن حصيلـة آلاف السنين مـن التجـارب البشرية في الحياة العامة، فأنّ الأمر يبدأ بالتربية التي تنتقل من النظري إلى التطبيقي حيناً والعكس حيناً آخر، لكن ما يبقى ركناً أساسياً دائماً في عمليـة التربية هو التعليم؛ فهـو الذي يزوّد الفرد بكمية المعارف اللازمـة للدخـول في الجماعـة عنصـراً مفيـداً منتجـاً وحاضراً للإضافة، بالإنجاز وبالتجربة، شيئاً ولو يسيراً، إلى البنيان الهائل الذي صنعته البشرية بالتراكم خلال تاريخ وجودها الواعي.

في ورشتنـا هـذه، وهـي الثانيـة بنفـس الموضـوع بعـد الأولى التي انعقـدت في بـيروت في آذار/ مارس سنـة 2006، نطمح إلى إلقاء الضوء على ما تغيّر خلال السنوات السبع ونصف المنصرمة؛ وهي سنوات ملأى بالتطوّرات الكبيرة السياسية والثقافية والاقتصادية وبالتـالي الاجتماعيـة. هنالـك دول تقدّمـت علميـاً وإقتصاديـاً وسياسيـاً، وهنالك أخرى تراجعت وغرقت بخسائرها الاقتصادية ذات الأسبـاب الإستكباريـة المتغطرسة المتفلتة مـن مبادىء الحق والعدل و التضامن. وهنالـك محاور جديدة نشأت للتصدّي لحالة العهـر التـي سادت بعـد الحرب العالميـة الثانية، وكـان سبب هذا النشوء إدراك، ولو متأخر، للهاوية التي تتّجه نحوها البشرية بفعل اعتماد شريعة الغاب خلال النصف قرن المنصرم... ما يهمّنا من هـذه الخطوط العريضة هو موقعنا منهـا في المعرفة وفي الاقتصاد وفي السياسة، فهي ترسم الأطر التي تثبت العمارة في كنفها.

إذا استعرضنـا ما ورد في توصيات ورشـة العمل الأولى حول تعليم العمارة في الوطن العربي نجد ما يلي:

- إستنتـاج يؤكـد ضعـف وتـردّي العمـران والعمـارة في الوطن العربي.
- تحميـل الجسم المهني قسطاً كبيراً من مسؤولية هذين الضعف و التردّي.
- إعتبار أي نهضة في مجال العمران والعمارة تبدأ بتعليم المعمار وتربيته وتكوينه.
- علـى أن يكـون هـذا التكوين وتلـك التربية مبنيين علـى ثقافة موسوعيـة تتناول كافة المعارف الضرورية من تقنية وإجتماعية وفلسفية ووطنية.
- يتبع ذلـك ويسبق منـح إجازة ممارسـة المهنـة، تدريب مهنيّ إلزاميّ في المجال العملي.
- إعتبار عمليـة التكوين والتربية عملية مستمرّة استمرار الحياة ممّا يوجب ابتكار نظام ملائم لذلك.
- إعتمـاد التربية على أهمّية العمران والعمـارة في التعليم العام بدءاً من الإبتدائي وحتى الثانوي.
- متابعـة قضية تعليـم العمارة في الوطن العربـي دورياً في سبيل نهوض فعلي في مجالَي العمران والعمارة.

قـد يكـون من المفيـد أن يتكـرّر هذا الموضـوع خلال كـلّ دورة من دورات هيئة المعماريين العرب التي تمتدّ لثلاث سنوات، وذلك إسوة بموضوع «مدن عربية»، الـذي سيتمّ العمل حوله في دورتنا الحالية أواخر السنة المقبلة.

سيّداتـي سادتي، أعتقد أنّ ورشتنا هـذه ستضيف، ولو يسيراً، إلى مكوّنـات قضيتنـا الكبرى المهتمّة بتربية وتكويـن أحد أهمّ عناصر النجـاح المجتمعـي، ألا وهو المعمـار العربي، فأهـلاً وسهلاً بكم في تونس ركنٌ أساسيّ من أركان الوطن العربي.

اليوم الأول؛ المحور الأول:
تعليم العمارة في تونس والجزائر والمغرب وليبيا من بداياته إلى اليوم
البدايات: برامج ومصادر ومعلمون في الجزائر، تعليم العمارة اليوم

المعمار: أ. منصوري صادق الحاج

الجزائر

ألقى الدكتور منصوري صادق محاضرة حول تدريس الهندسة المعمارية في الجزائر استعرض فيها المراحل التاريخية التي مرّت بها مراحل التدريس منذ ما قبل الاستقلال حيث كان تعليم الهندسة المعمارية في الجزائر ابان الاستعمار محصور في الجزائر العاصمة فقط، و- وكان البرنامج المتبع مماثل لمدرسة الفنون الجميلة في باريس عاصمة فرنسا

أضاف أنه في مرحلة ما بعد الاستقلال فقد تمت أبان الاستقلال في سنة ١٩٦٢ ولادة اول مدرسة للعمارة و الفنون الجميلة في الجزائر، وفي ١٩٧٠، تم إنشاء المدرسة الأولى والوحيدة حتى الآن للهندسة المعمارية في الجزائر و مقرها الجزائر العاصمة و التي تسمى) المدرسة المتعددة التقنيات في الهندسة المعمارية والعمران). منذ عام ١٩٧٣ تم إنشاء العديد من معاهد عمارة الهندسة المعمارية والعمران في الكثير من الولايات عبر التراب الوطني تدريجيا أذكر منها : (قسنطينة، وهران ، البليدة ، سطيف ، بسكرة، تيزي وزو وبشار و عنابة ، تبسة و باتنة ...) تحت إشراف وزارة التعليم العالي والبحث العلمي التي أنشئت هي الاخرى في عام ١٩٧٠.

وأشار إلى المهمات المنوطة لهذه المؤسسات كالتالي:

- التدريس والبحث العلمي في مجال العمارة و العمران .
- البحوث في مجال البناء والتخطيط و الترميم.
- جمع و ثائق مركزية للتدريب والبحوث داخل المؤسسة .الجزائر
- دراسة و انجاز المشاريع الوطنية في اطار منضم وتعليمي لفائدة مؤسسات الدولة.
- توفير وثائق علمية و تقنية خاصة بالمؤسسة او المدرسة محددة من اجل متطلبات البحث .
- تكوين اطارات اكفاء من اجل انتاج نسيج معماري و عمراني لائق .

وأوضح أن اهداف هذه المؤسسات هي تكوين اطارات وطنية لمدة خمسة سنوات من اجل الحصول على شهادة كفاءات تؤهلهم في خوض غمار ثورة البناء و التشييد،.وتسليم شهادة مهندس دولة في الهندسة المعمارية لكل من أتم مدة التكوين التي تؤهله الى الوصول إلى مناصب عليا و توفر له مستويات رفيعة في المجتمع.

ثم أعطى لمحة تاريخية عن تطور المؤسسات التعليمية للهندسة المعمارية و العمران في الجزائر أشار فيها إلى أنه حتى العام ١٩٦٢ كان يتم التكوين في المدرسة الإقليمية للفنون الجميلة بباريس فرنسا حيث كان عدد المهندسين الجزائريين يقدر باثنين.

وأضاف أنه في العام ١٩٦٣ كان تاريخ استقلالية هذه المدرسة ثم في العام ١٩٦٨ تم بناء مدرسة الهندسة المعمارية والفنون الجميلة وشهادات الدولة.

وفي العام ١٩٧٠ تم إنشاء المدرسة المتعددة التقنيات للهندسة المعمارية والعمران بالجزائر العاصمة ثم في العام ١٩٧٤ تم إنشاء المعهد الوطني للهندسة المعمارية والعمران والبناء بقسنطينة عاصمة الشرق الجزائري، وفي العام ١٩٧٨ تم إنشاء جامعة العلوم و التكنولوجيا بوهران عاصمة الغرب الجزائري. وفي العام ١٩٧٩ تم إنشاء معهد الهندسة المعمارية بسطيف عاصمة الهضاب العليا، ثم في العام ١٩٨١ افتتحت معاهد للهندسة المعمارية والعمران في كل من الولايات تزي وزوو البليدة وبشار.

وفي العام ١٩٨٤ تم فتح معهد الهندسة المعمارية والعمران في ولاية بسكرة وبعد العام ١٩٨٤ تم افتتاح معاهد للهندسة المعمارية والعمران في كل من الولايات عنابة تبسة باتنة جيجل بجاية ام البواقي قالمة. و قبل العام ٢٠٠٦ كانت كل هده المعاهد تتبع في تدريسها النظام الكلاسيكي، لكن بدءاً من العام ٢٠٠٦ تمت إعادة هيكلة التعليم المعماري في الجزائرمع المتطلبات الجديدة التي فرضتها العولمة (نظام ال «ل م د»). وفي العام ٢٠٠٨ تم التوقيف الاجباري للنظام الكلاسيكي القديم والبدء تدريجيا في تطبيق نظام ال (ل م د)، حيث شهت فترة ما بعد العام ٢٠٠٨ خروج الدفعات الاولى من حاملي شهادات الليسانس والماستر. وفي العام٢٠١٢ تم افتتاح مدارس دكتوراه للهندسة المعمارية و العمران وفق النظام الجديد ال (ل م د). وفي العام ٢٠١٣ تم توديع النظام الكلاسيكي القديم تربع نظام ال (ل م د) في جل معاهد للهندسة المعمارية و العمران عبر التراب الوطني.

Dr. Mohammad Al-Chawi

L'Ecole Nationale d'Architecture de Rabat (ENA)

ECOLE NATIONALE D'ARCHITECTURE

L'Ecole Nationale d'Architecture de Rabat (ENA) est la seule école nationale d'architecture publique du Maroc. Placée sous la tutelle du ministère chargé de l'urbanisme, l'ENA est créée par le décret n°2-89-56 du 30hija 1409 (3 août 1989).

Elle est considérée, à ce titre comme un établissement public ne relevant pas de l'université ; un établissement qui fait partie du réseau des 70 établissements de formation fait partie du bouquet des 70 écoles publiques marocaines de formation des cadres du royaume. Il y occupe une place de choix de par sa spécificité, son rayonnement à l'échelle nationale et ses domaines de spécialisation.

Un nouveau projet de réorganisation des statuts de l'école conformément aux dispositions de la loi n°01.00 est soumis depuis 11 févier 2012 au Secrétariat Général du Gouvernement pour approbation.

A titre de rappel de quelques étapes clés de l'historique de l'établissement, il convient de mentionner que l'Ecole Nationale d'Architecture a ouvert ses portes à la rentrée universitaire de 1980, mais ce n'est qu'à la rentrée universitaire de 1998-99, qu'elle dispose de ses propres locaux actuels.

Le choix de son implantation dans la capitale du royaume est dicté par la forte volonté des pouvoirs publics d'ancrer la formation sur les spécificités nationales en développant des activités tournées vers les problématiques socioculturelles du milieu.

Cette localisation est d'autant plus significative au plan symbolique que le projet stratégique initial de l'école a du s'appuyer sur cette singularité pour mieux tirer bénéfice du paysage universitaire de la capitale du Royaume et de sa relation avec son environnement sociopolitique et culturel immédiat.

La création d'un établissement d'enseignement de l'architecture au Maroc qui en était jusque-là dépourvu, s'imposait. D'une part les besoins en matière d'architectes étaient clairement identifiés pour accompagner le développement économique et urbain d'un pays en pleine expansion. D'autre part, nombreux étaient les jeunes marocains à présenter leur candidature dans les écoles d'architecture à l'étranger, notamment dans les pays francophones et principalement en France où l'on dénombrait plus de 400 demandes d'inscriptions annuelles pour les seules institutions délivrant le diplôme DPLG. Par ailleurs, les spécificités culturelles fortes des traditions architecturales marocaines ne figuraient pratiquement jamais dans les programmes des écoles étrangères. Enfin, cette création s'insérait dans l'effort d'ensemble accompli par le Maroc pour se doter d'un appareil de formation couvrant la quasi-totalité des domaines de l'enseignement supérieur.

Au fait le CSIC croit que le meilleur système d'éducation supérieure est le monde anglo-saxon. Et pour revenir au classement, la première position revient bien évidement à Harvard aux Etats-Unis, suivie par l'Université Stanford à San Francisco. Toujours aux Etas-Unis, le Massachusetts Institute of Technology (situé au Campus de Cambridge détient la quatrième position). Le système éducatif chinois est aussi bien classé avec l'université de Shanghai.

QUELLE EST LA STRATEGIE DE L'ETABLISSEMENT ?

La stratégie pédagogique de l'ENA s'envisage à partir du contexte actuel, des défis à relever, et des valeurs propres que l'établissement est censée incarner. Aujourd'hui les attendus de la société se sont transformés. Dans le contexte actuel, l'intérêt national et public de l'architecture doit être confirmé et les valeurs de cette discipline pourraient être mises à profit pour répondre aux exigences nouvelles de la formation.

A cet effet on retiendra les énoncées stratégiques suivants:

L'ENA a pour vocation de former les acteurs susceptibles d'intervenir dans tous les champs professionnels conduisant à la production de l'architecture, de la ville et de l'espace.

Parce que cette formation prépare à exercer des responsabilités sociales importantes, et qu'elle se veut un enseignement supérieur ouvrant sur des qualifications de haut niveau, nourries par les activités de recherche, elle intègre nécessairement une dimension critique.

La diversité des profils d'architectes implique, à notre sens, de privilégier un enseignement transdisciplinaire, orienté par l'apprentissage du projet, qui permette des spécialisations ouvertes à des objectifs professionnels larges. Dans cet esprit, les enseignants de l'ENA s'affirment comme enseignants en architecture, même s'ils ne sont pas tous architectes.

QUELLES SONT LES EVOLUTIONS A PREVOIR POUR NOTRE ECOLE ?

Pour répondre au contexte de leur exercice professionnel, la formation des architectes doit permettre de :

disposer des capacités d'expertise et de positionnement dans tous types de contexte;

disposer de capacités de prospective et d'innovation au plan conceptuel comme au plan technique;

disposer de capacités à accompagner les stratégies nationales de développement dans différentes postures professionnelles;

anticiper sur les mutations socioprofessionnelles afin d'accompagner la profession à se préparer à la mondialisation des compétences en devenant un lieu de ressource et de ressourcement pour la profession

QULLES SONT LES COMPETENCES VISEES ?

Pour répondre au contexte de leur exercice professionnel, la formation des architectes doit nécessairement être fondé sur un référentiel des compétences qui permet de :

donner aux futurs architectes les moyens de trouver les fondements qui leur sont propres pour consolider leur compétence première de généraliste qu'est la conception à toutes les échelles ;

développer des capacités d'analyse et d'expertise quel que soit le cadre institutionnel de leur intervention;

renforcer leur compétence en ingénierie et en construction, et leur capacité de collaboration avec les milieux de l'ingénierie et de la construction, afin de les exploiter au mieux dans le cadre de leur compétence prioritaire qu'est la conception ;

préparer les architectes à une diversité de modes d'exercice, sans oublier la recherche scientifique et les partenariats internationaux, dans leur statut et leur rôle de cadre supérieur, porteur de compétence décisionnelle et responsable, quel que soit leur lieu d'exercice.

C'est en se fondant sur référentiel, comme un socle de valeurs, aux moyens desquels se forgera l'identité de l'école et l'esprit de sa charte tant attendue.

Deux caractères essentiels de l'ENA lui viennent de son histoire et se confortent mutuellement : le premier, d'ordre intellectuel, est son approche, ouverte, pluraliste et critique, le second, d'ordre institutionnel, tient à l'importance à son importance nationale et de son ouverture sur l'internationale, compte tenu de ses effectifs composés de nationaux et étudiants venus de l'étranger.

Dans un même mouvement, l'ENA se veut être un lieu universitaire de production et de diffusion des connaissances, un lieu de formation professionnelle et un lieu de préparation des futurs acteurs à leurs responsabilités sociales. En particulier, dès son origine, elle a développé des approches nouvelles notamment en articulant l'architecture à la création plastique, aux sciences humaines et sociales et aux sciences et technologies. Sur cette base, l'ENA a élaboré un certain nombre de champs de savoirs qui fondent ses compétences et son identité

C'est donc en s'appuyant sur cette tradition d'ouverture culturelle, de liberté intellectuelle, de critique sociale, de diversité et de tolérance, alliée à de hautes exigences de qualification des formations que l'ENA entend relever le défi de l' accréditation à l'internationale dans le sillage de la réforme de l'enseignement de l'architecture.

Celle-ci constitue l'occasion de restructurer en profondeur les champs disciplinaires de ses enseignements de façon à renforcer ses pôles de compétences et à affiner ses objectifs et ses méthodes, afin de continuer à répondre efficacement aux enjeux qui naissent de l'évolution et des attendus de la société marocaine contemporaine.

C'est sur la base de ces principes que L'ENA mettra en œuvre des orientations nouvelles pour son projet pédagogique, en affirmant un certain nombre de positions cardinales qui se spécifient par la réponse à trois questions essentielles :

Ses domaines d'intérêt sont les arts et techniques de l'architecture, la construction, l'urbanisme, la restauration des monuments et la sauvegarde des centres anciens, le paysage, la maîtrise d'ouvrage et le design.

Avec environ près de neuf cent étudiants inscrits en 2013, 29 enseignants permanents (composés d'enseignants statutaires et d'architectes de l'administration) et 74 intervenants extérieurs constitués de vacataires et de consultants étrangers (le personnel administratif comprenant 49 personnes dont 19 cadres et 29 agents) l'école assure :

La formation initiale destinée aux architectes

la formation continue destine aux professionnels du secteur.

un master en spécialisation " architecture du patrimoine " en partenariat avec l'école des hautes études de Chaillot (Paris) .Ce master est actuellement en cours d'accréditation.

Pour le gouvernement de son administration, l'école dispose depuis 2008, outre du poste du Directeur, de trois postes de directeurs adjoints (chargés respectivement de la pédagogie, de la formation continue et la recherche) et un secrétaire général

Le Directeur de l'école, désormais, nommée par décret du chef du gouvernement, met en œuvre l'ensemble de la politique de l'établissement, en concertation avec le conseil de coordination nationale et le conseil d'établissement.

A l'heure actuelle, l'ENA vise à se conformer, tant dans son organisation que dans son fonctionnement, de la réforme LMD de l'enseignement supérieur tel que stipulé par la loi 01.00.

Dans la région MENA

Dans la région MENA (Middle East & North Africa), le Maroc se positionne dans le top 100 avec l'Ecole Nationale d'Architecture (ENA) à Rabat à la 53ème place.

Tandis que l'Université Mohammed V-Agdal est dans la 62ème place. L'Université privée Al Akhawayn à Ifrane détient la 81 ème place. L'université Ain-Chock à Casablanca arrive à la 83ème place.

م. أسامة عبد الهادي، م. رمضان أبو القاسم، م. د. فاخر الخراط، م. محمد الشاوي، و د. منير ذويب.

اليوم الأول؛ المحور الأول:
تعليم العمارة في تونس والجزائر والمغرب وليبيا من بداياته إلى اليوم
البدايات: برامج ومصادر ومعلمون في ليبيا، تعليم العمارة اليوم

المعمار: رمضان الطاهر أبو القاسم

المعمار: أسامة عبد المجيد عبد الهادي

مسيرة التعليم المعماري في ليبيا: الواقع، التحديات والفرص

يوجد في ليبيا عدد من مؤسسات التعليم العالي العامة والاهلية والخاصة الموزعة على كافة انحاء ليبيا تقريباً وتحتضن ما يقارب من ٣٤٢٠٠٠ طالب وطالبة خلال السنة الجامعية ٢٠١٠/٢٠١١ (٥٩٪ اناث و٤١٪ذكور) حسب تقرير الاتحاد الاوروبي عن التعليم في ليبيا والصادر في ٢٠١٢.

مؤسسات التعليم العالي الحكومية

- جامعات
- كليات تقنية
- معاهد عليا
- مراكز التدريب المهني

وصل عدد الجامعات العامة الى ١٢ جامعة عامة (اثنتين ذات طبيعة خاصة مثل الجامعة المفتوحة والجامعة الاسمرية).

مدة الدراسة بهذه الجامعات من ٤-٥ سنوات الا ان متوسط مدة التي يقضيها الطالب في دراسته الجامعية من ٥-٧ سنوات

الجهات الحكومية المشرفة على التعليم في ليبيا هي وزارة التعليم العالي والبحث العلمي وتخضع الجامعات الخاصة لادارة الجامعات بالوزارة

مؤسسات التعليم العالي الليبية التي بها برامج لتدريس العمارة:

- جامعة طرابلس: كلية الهندسة-قسم العمارة والتخطيط العمراني
- جامعة بنغازي: كلية الهندسة - قسم العمارة وتخطيط المدن
- جامعة عمر المختار: كلية الفنون والعمارة - درنة
- جامعة المرقب: كلية الهندسة-قسم العمارة والتخطيط العمراني.
- جامعة الجبل الغربي: كلية الهندسة – قسم العمارة والتخطيط العمراني – جادو
- جامعة الزاوية: كلية الهندسة-قسم العمارة والتخطيط العمراني
- جامعة مصراتة: كلية الهندسة - قسم العمارة
- جامعة عمر المختار: كلية الهندسة - قسم العمارة - البيضاء
- جامعة طرابلس: كلية الفنون والاعلام - قسم الفنون الجميلة والتطبيقية - شعبة التصميم الداخلي
- كلية الدراسات العليا وتمنح درجة الاجازة العالية «الماجستير» في مجالات العمارة والتخطيط العمراني
- المعاهد العيا للعلوم الشاملة
- الجامعات الاهلية الخاصة مثل جامعة طرابلس وجامعة الرفاق

- االمشروع الطموح لاكاديمية الليبية للتصميم LDA

التعليم المعماري الجامعي في ليبيا

بـدأ التعليم المعماري الجامعي في ليبيا سنة ١٩٦٩، وارتبط التعليم المعمـاري بالتعليم الهندسي وجاءت اقسام العمـارة في ليبيا تابعة لكليـات الهندسـة، وقد ساهـم في وضع المناهـج التعليمية اساتذة أفاضل من الدول العربية والاجنبية.

ومـن ضمـن الاساتـذة الافاضـل الذيـن اسسـوا قسـم العمـارة والتخطيـط العمراني بكلية الهندسة جامعة طرابلس السيد الكتور أمام شلبي والسيد الدكتور المعماري عادل اسماعيل.

تـوالى افتتاح اقسام للعمـارة والتخطيط في جامعات خارج جامعة طرابلس وكانت التجربة الاولى مع قسم العمارة وتخطيط المدن في جامعـة بنغازي وقد افتتح هذا القسم بالتعاون مع الجامعة التقنية في هلسنكي.

اعتنى القسم بتدريس التخطيط العمراني بمستوياته المختلفة.

ان استمراريـة هـذا القسـم بهـذا التخصـص كـان سيوفـر على ليبيـا عدد مـن الخريجين الذين كـان سيكون لهـم دورا في توفير الخـبرات اللازمـة التي تحتاجهـا المجالس البلديـة المحلية وفروع مصلحـة التخطيـط العمـراني المنتشـرة في مختلف ارجـاء ليبيا واحـداث التغيـير والتغلـب علـى كثير مـن التحديات التـي شابت المشهـد العمراني مثل تاخر تطبيق المخططـات وما ترتب عليه من انتشار البناء العشوائي والتلوث البصري وفقدان الهوية وغيره من المظاهر العمرانية السلبية.

لم يستمر طويلاً وتم تعديل نظام الدراسي ليشابه قسم العمارة في جامعـة طرابلس تعتبر كلية العمارة والفنـون بمدينة درنة والتابعة لكليـة الهندسـة بجامعة عمر المختار محاولة جيـدة لاعداد كوادر متخصصة في مجالات العمارة والفنون خاصة وانها احتوت اقسام للعمـارة والفنون والنحت والاعلام. لكن العجز في توفير المتطلبات الرئيسة التـي تحتاجها هذه الكوادر من بيئـة تعليمية مناسبة الى مناهج متطورة واعـداد كافية من اعضاء هيئة تدريس اكفاء وقف عـثرة امام هـذه المحاولة وبـرز امامها عدة تحديـات حالتت دون تحقيق كافة الاهداف المنشاءة من اجلها هذه المؤسسة المهمة.

التجربـة الثانيـة تمثلت في افتتـاح عدد من الجامعـات في مناطق مختلفـة والتي من ضمنهـا كلية الفنـون والعمـارة في مدينة درنة ويشمل البرنامج الفنون التطبيق كالرسم والنحت والعمارة.

ضمن خطة الحكومة المتعلقة بتطوير التعليم العالي والتوسع الأفقي في انشـاء الجامعـات استمـر افتتاح اقسـام للعمـارة والتخطيط العمراني

- قسم العمارة كلية الهندسة جامعة المرقب الخمس
- قسم العمارة كلية الهندسة جامعة الجبل الغربي
- قسم العمارة كلية الهندسة جامعة الزاوية
- قسم العمارة كلية الهندسة جامعة مصراتة

ومن الملاحظ على هذه الاقسام:

- شموليـة برامجها التعليمية وتشابهها مـع البرنامج الاكاديمي لقسـم العمـارة والتخطيـط العمـراني بجامعـة طرابلس كلية الهندسة.
- حداثة نشأتها
- عدم اكتمال معطيات العملية التعليمية.
- عدم وجود نهج محدد لتوجيه البرامج التعليمية لهذه المدارس.

التحديات التي تواجه تدريس العمارة

- عدم وضـوح الرؤيـة الخاصة لبرامـج التدريـس ومستهدفات البرامج التعليمية وعلاقتها بسوق العمل
- هشاشة متطلبات العملية التعليمية
- التواصل الفاعل مع المحيط وانتشار الثقافة المعمارية

تراجع دور المعماري في عملية تغيير المحيط

- التطوير
- الرسالة
- الوعي بطبيعة قسم العمارة
- صياغة الرؤية
- تحديد الاهداف
- الألية وبرنامج العمل

رسالة قسم العمارة

العمارة من أهم مقومـات الحياة البشرية كما أنها من أبرز معالم التعبـير الثقـافي للمجتمعـات. نسبـة كبـيرة من المحيـط المعيشي تشكلـه البيئة العمرانية. وتاريخ العمـارة المكاني هو تاريخ الإنسان بمضمونـه الاجتماعـي والثقـافي والبيئي. كمـا أن واقـع ومستقبل العمارة هـو انعكاس لواقع الإنسان نفسه ورؤيته لمستقبله ولذا فإن

الاهتمام الذي تلقاه العمارة يجب يوازي تلك الأهمية.

بنـاء على مـا تم استعراضـه في اجتماعات مجلس قسـم العمارة والتخطيـط العمراني بضـرورة المحافظة علـى استمرارية التعليم المعمـاري بجامعة طرابلـس ضمن منظومة التعليـم الهندسي فان الرؤيا العامة للقسم للعقد القادم يمكن صياغتها فيما يلي:

الرؤيـا: تاهيل الطالب ليكون مهندسا معماريا له شخصيته وقادرا علـى المنافسة و تطوير نفسه وبناء مهاراته التخصصية له في احد المجالات التالية:

- التصميم المعماري (وفق منظـور الاحتياجات المحلية والمحيط البيئي والتقدم التقني)
- الاشـراف وتنفيـذ المباني) وفق نمـط تنفيذ المبـاني والتطور الحديث في مواد ونظم البناء والتشييد الملائمة)
- التخطيـط العمراني وتطوير الاراضي (وفـق سياسات وبرامج التنمية المحلية والتطوير المستقبلي)

الاهداف:

وفـق الرؤيا العامة للقسم يمكـن صياغة اهداف القسم في النقاط التالية:

- تنقيح وتطوير برنامج القسم التعليمي بما يتوافق والرؤيا
- توافق البرنامج المعماري ومستجدات التعليم المعماري
- تطويع التقنية والاستعانة بها في تكامل ونجاح العملية التعليمية
- الاهتمام بالتدريب العملي اثناء مراحل الدراسة
- توافـق مخرجـات البرنامـج المعمـاري ومتطلبات سـوق العمل (تصميم معماري، اشراف على التنفيذ، تخطيط عمراني)
- واستراتيجية الدولة لتطوير التعليم المعماري.

الالية:

تحقيـق اهداف القسـم التعليمية يمكـن الوصول اليهـا من خلال آليـات لتنمية العقل وصقل الشخصية واكتساب المهارات من خلال الجـد والاجتهاد وبعـث روح العمـل الجماعي المنظـم والاستعداد الدائم لتطوير الذات وكسب المعارف المختلفة.

اليوم الأول؛ المحور الثاني:
تعليم العمارة في الوطن العربي: التحولات وتعليم العمارة اليوم
التجربة المصرية في التعليم المعماري

المعمار: أ. د. علي حاتم جبر
قسم العمارة، كلية الهندسة، جامعة القاهرة

القى أستاذ العمارة ووكيل كلية الهندسة لشئون التعليم والطلاب في جامعة القاهرة الأستاذ على حاتم جبر محاضرة تناول فيها التجربة المصرية بالجامعات الحكومية في التعليم المعماري، حيث فنّد أنواع المؤسسات التعليمية التى تمنح بكالوريوس العمارة فى مصر كالتالي:

- الجامعات الحكومية التي تنتمي للقطاع الهندسي (٢٨)
- المعاهد الحكومية التي تنتمي للقطاع الهندسي (٤٢)
- الجامعات الحكومية التي لا تنتمي للقطاع الهندسي (الفنون الجميلة) (٣)
- الجامعات الخاصة (٢٠)
- الجامعات الأهلية (غير قاصدة الربح) (٢)

وأشار إلى بعض الإحصائيات والتحديات المتمثلة بعدد طلاب كليات الهندسة بالجامعات الحكومية ١٠١٢٥٠ طالب وطالبة، وعدد طلاب أقسام الهندسة المعمارية بالجامعات الحكومية ١١٢٥٠ طالب وطالبة، وعدد الخريجين المعماريين من كليات الهندسة بالمؤسسات الحكومية سنوياً ٢٢٥٠ خريج، و كل هؤلاء يتلقون تعليماً يكاد يكون مجانياً (الرسوم الدراسية ٢٣,٥$ للعام الجامعي ٢٠١٣-٢٠١٤) بينما التكلفة الحقيقية المتوسطة للطالب تتراوح بين (٢١٠٠-٢٥٠٠) سنوياً.

وأوضح أن المتطلبات العامة للتخرّج ببكالوريوس الهندسة المعمارية هي ٥ سنوات و٣٠٠ ساعة اتصال (سنة إعدادية + ٤ سنوات بالتخصص) تنتهي بمشروع البكالوريوس، وتدريب عملى خلال صيف السنة الأولى والثانية والثالثة.

وأضاف أن مشاكل المتطلبات العامة للتخرج ببكالوريوس عمارة، تكمن في السنة الإعدادية التي تمثل ٥/١ مما يكتسبه طالب كلية الهندسة، لكن فعلياً السنة الإعدادية (٦٠ ساعة) مهدرة ولا تسهم فى تنمية القدرات المعمارية (رياضة – فيزياء – ميكانيكا – كيمياء – هندسة إنتاج – الرسم الهندسى الميكانيكي – تاريخ العلوم الهندسية – لغة).

وبعدما عرض المقررات الرسمية المطلوبة في دراسة الهندسة المعمارية، أشار إلى أن مشاكل المتطلبات العامة لمشروع التخرج (البكالوريوس) على الرغم من توزيع ساعاته على فصل دراسي كامل، إلا أنه يتم التركيز عليه فى ١٦ أسبوع فقط، ويتم التدريس فيه عن طريق إختيار الطلاب لمجموعات التدريس وبذلك طريقة التصحيح تكون مستقلة وتؤدي فى بعض الأحيان إلى مزايدات

تصوبها لجـان ممتحنين خارجية. كما أوضـح أن أهداف مشروع التخـرّج غالباً ما تكـون غير واضحة وتتباين مـع التيمة التي يتفق عليهـا كـل عـام دراسي لذلـك تم اقـتراح تقنين وإعـلان أهداف مشـروع التخرج. وأخيراً لا يتم تقديم تقرير مكتوب Thesis ضمن مخرجاته لذلك تم وضع درجة لتقييمه بحيث صار ملزماً.

وأشـار إلى أن مشاكـل التدريـب العملي الصيفي هـي أنه لا يدخل فـى التقييم وأصبح غير ملزم لعدم قدرة الكليات على توفير فرص تدريـب لكل الطلاب، والمقترح تعديل لائحـة الكليات ليصبح مادة تدخل فى التقييم لكن بدون درجات (Pass/Fail).

وفي الخلاصة، قـال إن القضايا الرئيسية المرتبطة بعملية التطوير تبـدأ أولاً بتحديد هوية برنامج الهندسة المعمارية، حيث يصار إلى مراجعة رسالة البرنامج والأهداف التعليمية وعلاقتها بمواصفات الخريـج، وتقنين الوزن النسبي للمعارف الهندسية العامة بالنسبة إلى المعـارف المعمارية كما تقنين الـوزن النسبي للمعارف المكتسبة من القنوات التخصصية عبر سنوات الدراسة.

ثانياً في إدارة البرنامج من إدارة المقررات (أنظمة الجودة ـ ملفات المقررات وتطوير محتواها ـ تقييم الأداء التدريسي) وإدارة الموارد البشرية (ديموغرافية القسم ـ التخصصات ـ الأعباء التدريسية) إلى إدارة المـوارد المكانيـة وإدارة المـوارد الماليـة (خلـق مجـالات للإتصال بخدمة المجتمع عن طريق عمل مراكز تصميمية ودورات توعية وغيرها).

ثالثاً في المقررات الأساسيـة والإختيارية، حيث يصار إلى مراجعة (الأهـداف التعليمية ـ المحتوى ـ عدد الساعـات ـ أسلوب التقييم) فـى ضوء أهداف البرنامـج، و التنسيق الرأسـي بمراعاة القنوات التخصصيـة، والتنسيـق الأفقـي بمراعاة حجم المعـارف الواجب تحصيلهـا عبر السنـوات مع ربطها فـى السنة نفسهـا، ومراجعة المقـررات من خارج القسم (إعدادي ـ إنشائية ـ علوم أساسية) ثم إدارة المقـررات الإختيارية من حيـث توزيعها عبر السنوات وتفعيل دورها للتأهيل في تخصص معين.

رابعـاً، في استوديو التصميم ومشـروع التخرج حيث يجب مراجعة الأهـداف التعليميـة والمعـارف المكتسبـة خـلال الاستوديـو وعبر السنـوات الدراسيـة، والتأهل للمستـوى التصميمـي الأعلى الذي يعتمد علـى اجتياز المستـوى الأدنى بنجاح، وتقنين نظـام التقييم بالاستوديوهـات ومشـروع التخرج، وتفعيل نظـام لجان الممتحنين الخارجيـين في استوديوهـات التصميم المختلفـة (وليس فقط فى مشـروع التخرج) ثـم وضع ضوابط لمشروع التخـرج (المخرجات ـ التقييم ـ توزيع الطلبة بتجانس على المجموعات).

خامسـاً وأخـيراً في ربـط الإطار الأكاديمـي بإطـار الممارسة، من حيث تفعيل الزيارات الخارجية Field trips في مختلف المقررات، وتوفـير المعامل والورش ذات الصلة بمـواد وتقنيات البناء، وتفعيل منظومـة التدريـب الصيفي إلى جانـب الإستعانـة بالممارسين في بعض المقررات كمحكمين وكموجهين.

اليوم الأول؛ المحور الثاني:
تعليم العمارة في الوطن العربي: التحولات وتعليم العمارة اليوم
تعليم العمارة في الجامعة اللبنانية وفق النظام الاوروبي ECTS ، المكونات، المضمون والاهداف

المعمار: أ. د. محمود شرف الدين

منسق منهج تعليم العمارة في الجامعة اللبنانية

الخارطة المعمارية في لبنان

يعتبر لبنان واحداً من أكثر دول العالم في عدد مؤسسات التعليم العالي نسبة الى السكان فهناك حوالي ٤٢ مؤسسة تعليم عالي بمستوى جامعات او معاهد او كليات باختصاصات مختلفة.

ونظراً لخصوصية تعليم العمارة لارتباطها بسوق العمل كمهنة حرة ولخضوعها لشروط مزاولة المهنة ولشروط النقابات، فان سبعة جامعات فقط تدرس العمارة وتعتمد أنظمة تعليمية متنوعة، لها جذورها الفرنسية والأميركية.

في سنة ٢٠١٣ كان عدد طلاب العمارة في كل جامعة كما يلي:

	عددالطلاب المسجلين لهذا العام	عدد الخريجين ٢٠١٣
الجامعة اللبنانية بفروعها الاربعة	٩٥٢	١٠٤
الجامعة اللبنانية الاميركية بفرعيها	٤٧٢	٤٥
الجامعة الاميركية	١٧٠	٢٨
جامعة سيدة اللويزة	٦٣٠	٣٩
جامعة بيروت العربية بفرعيها	٥٠٩	٨٠
جامعة المنار	١٨٠	٩
جامعة البلمند بفرعيها	٦٩٨	٢٧
جامعة الروح القدس – الكسليك	١٣٢٧	٤٦

أي ما مجموعه ٤٩٣٨ طالب عمارة في الجامعات المحلية . وقد بلغ عدد الخريجين للسنة الاكاديمية ٢٠١٢-٢٠١٣ مامجموعه ٣٧٨ معمارياً، يضاف اليهم أعداداً كبيرة أيضاً ممن يتابعون دراستهم المعمارية في الخارج.

كما تجدر الاشارة الى ان هناك عدة جامعات لبنانية اخرى قد تقدمت من مديرية التعليم العالي في لبنان بطلب ترخيص انشاء كليات عمارة اضافية لم يوافق عليها حتى الان.

هذا الكم الكبير من كليات العمارة، أوفد لسوق العمل المحلي والإقليمي اعداداً كبيرة من أصحاب المهنة فاقت بأضعاف حاجة السوق اللبنانية.

ينتسب المعمار (او المهندس المعماري) عند تخرجه الى احدى نقابتي المهندسين في بيروت او في طرابلس، بعد ان يكون قد حصل على إذن بمزاولة المهنة من وزارة الاشغال العامة.

عدد المعماريين المسجلين في نقابتي المهندسين في لبنان حتى تاريخه، في بيروت ٦٨٧٤ معمار، وفي طرابلس ١٢٠٩ معمار، المجموع ٨٠٥٦ معمار، أي مانسبته معماريان لكل ١٠٠٠ شخص في لبنان. مما يعتبر نسبة عالية جداً تعزز المنافسة في سوق العمل الضيق أصلا ، و يلقي بمسؤوليات كبيرة على عاتق الجامعات لرفع مستواها الأكاديمي وتطويره بشكل دائم.

تعليم العمارة في الجامعة اللبنانية

تم انشاء قسم الهندسة المعمارية في الجامعة اللبنانية ضمن هيكلية معهد الفنون الجميلة سنة ١٩٦٥ وكانت الدفعة الاولى من الخريجين سنة ١٩٧٠، و مع بدايات الحرب الاهلية سنة ١٩٧٦ انقسمت كليات الجامعة اللبنانية الى فروع وتشظى معهد الفنون الجميلة إلى أربع :

- الفرع الاول : الروشة - بيروت ، ثم في الحدث - قضاء بعبدا - جبل لبنان
- الفرع الثاني : جبل لبنان - فرن الشباك - جبل لبنان
- الفرع الثالث : طرابلس
- الفرع الرابع : دير القمر - منطقة الشوف - جبل لبنان

بنتيجته اصبحت العمارة تدرس في الجامعة اللبنانية في اربعة اقسام منفصلة ومتباعدة جغرافيا وادارياً ولوجستياً ، يجمعها فقط مركز العمادة والبرامج التعليمية الاكاديمية الموحدة.

عند تاسيس هذا القسم، اعتمدت الجامعة اللبنانية نظام التعليم السنوي المقتبس عن نظام Beaux arts الفرنسي ، حيث كان عدد السنوات التعليمية الاجمالية

٦ سنوات، موزعة على سنة تحضيرية وخمس سنوات اختصاص، بحيث تكون السنة الاخيرة (أي السادسة) مخصصة لمشروع التخرج.

بقي هذا النظام قائما من سنة ١٩٦٥ حتى سنة ٢٠٠٤ ، ولم يجري عليه طوال هذه الفترة اية تعديلات جوهرية تذكر.

سنة ٢٠٠٣ كلفت رئاسة الجامعة اللبنانية لجنة من الاساتذة باعداد مناهج اكاديمية جديدة لتعليم العمارة ودائماً حسب النظام السنوي.

انطلقت اللجنة من دراسة واقع التعليم المعماري في حوالي ٢٠ جامعة عالمية، ومن دراسة متطلبات سوق العمل المحلي والإقليمي، واعدت بناء عليه وثيقة نظرية وفلسفية كانت بمثابة خارطة طريق لما يجب ان تبنى عليه هيكلية ومضمون المنهج الأكاديمي لتعليم العمارة في الجامعة اللبنانية وكيفية مقاربة تعليمه وتقويمه.

من أهم أسس هذا المنهاج كان تحديد الإجابة عن السؤال المركزي:

أي معمار نريد؟ ولأية ممارسة مهنية ؟

وهوماتم تعريفه من خلال تعريف الشخصية المهنية للمعماري العتيد بعد تخرجه :

- إعداد معماري مثقف
- إعداد معماري مؤهل لممارسة مهنية مرنة
  - فهي ممارسة حرة (ليبرالية) لمهنة المعماري
  - أو هي ممارسة متخصصة، لمعماري وتقني مختص
  - أو هي ممارسة تتجه نحو الدراسات العليا والابحاث في العمارة.

انطلاقاً من هذا المفهوم جرى التأكيد على اعتبار المشروع المعماري أو محترف العمارة هو محور التعليم والإطار الذي يجب أن تلتقي عنده مختلف المعارف الفنية والعلمية والثقافية في باقي المقررات..

مع نهاية عمل اللجنة وقبل المباشرة بتطبيق الهيكلية الجديدة، أقرت الجامعة اعتماد نظام الأرصدة الأوروبي ECTS المعروف بنظام LMD ، بدلا من نظام السنوات وذلك في جميع كليات ومعاهد الجامعة اللبنانية البالغة ١٨ وحدة، وتركت الخيار لهذه الوحدات لتحديد الوقت المناسب للانتقال الى النظام الجديد.

اختار مجلس الوحدة في معهد الفنون الجميلة الانتقال الى نظام الارصدة بعد سنة واحدة من تعميم رئاسة الجامعة اي في العام ٢٠٠٤، متوخياً تطوير التعليم الجامد منذ أربعة عقود تقريباً، وبنظرة تفاؤلية نحو المستقبل.

بناء عليه قامت لجنة البرامج بعملية موائمة (Synchronisation) بين ماتمته في عملها السابق وبين متطلبات النظام الجديد، ورفعت برنامجا جديدا متكاملا لمجلس الوحدة الذي اقره للتطبيق سنة ٢٠٠٤ .

ولا شك أنه كان لهذا الإنتقال انعكاساتة الكبيرة على طبيعة التعليم أكاديمياً وإدارياً وسبب إرباكات كثيرة خاصة في السنوات الأولى لتطبيقه، نظراً لعدم توافر الآلية الإدارية المؤهلة لمواكبة هذا التغيير.

إن المقارنة بين النظامين ادارياًهي من البديهيات التي يعرفها جميع الأساتذة العاملين في الحقل الأكاديمي وخاصة المعماري، ولكنه لا بد في هذا السياق من الإشارة الى أهم المتغيرات العملية التي أثرت على المسار الأكاديمي في قسم الهندسة المعمارية في الجامعة اللبنانية:

- بقي المشروع المعماري هو محور التعليم والوعاء الذي تتفاعل فيه مختلف للمعارف، مما استوجب الحفاظ على قسم واحد أساسي يسمى قسم الهندسة المعمارية، مشتملاً جميع المقرارات الأساسية والرديفة.
- انخفضت سنوات التدريس من ٦ سنوات الى ٥ سنوات (١٠ فصول) مع الحفاظ على نفس عدد الاسابيع التعليمية وهي بمجموعها تساوي ١٥٠ اسبوعاً في النظامين.
- استبدال نظام التعليم التراكمي طوال ٦ سنوات بتقسيم المعارف الى مرحلتين: ٦ فصول للاجازة و٤ فصول للماستر.
- اختلاف معايير تقييم المستوى التعليمي للطالب، من مستوى سنته الاكاديمية الى مستوى مرتبط بعدد الارصدة، وعدم الاطمئنان الى طبيعة التزامن بين النضوج العلمي المعماري للطالب مع مضامين المقررات المكملة.
- لم يكن نظام السنوات يحوي أية مقررات اختيارية، وهي التي

أصبحت مطلوبة في نظام الأرصدة بما لا يقل عن ٢٣ رصيداً من أصل ١٨٠ رصيداً في مرحلة الإجازة

- يتطلب تطبيق النظام الانتقال بالمفهوم التعليمي من التلقين الى اكتساب المعارف عن طريق البحث والمقارنة. وهذا المفهوم يتطلب جهودا كبيرة من الاستاذ والطالب على السواء كل من موقعه.
- في المرحلة الأولى من تطبيق نظام الأرصدة ECTS، اعتمدت لجنة البرامج تقسيم المقررات الى مجموعتين :

- تعليم العمارة: وتضم محترف العمارة وتاريخ ونظريات العمارة
- التعليم الأساسي المكمل: وتضم جميع المعارف الاخرى.

جرت المراجعة الاولى الاساسية للبرامج الجديدة في عام ٢٠٠٦، وقد جاءت نتيجة لتجربة ثلاث سنوات من التطبيق واكتشاف الثغر وإعادة تقييم مضمون المقررات وتداخلها بالإضافة للملاحظات الهامة التي راكمها الجهازين الاكاديمي والاداري في المرحلة الانتقالية.

أما المراجعة الثانية فقد بدات منذ العام ٢٠١٠ وقد اقرت وبدأ تطبيقها هذه السنة مع بداية العام الجامعي.

في هذه المراجعة الثانية جرى توزيع المقررات على مسارات تعليمية شاملة لعدة فصول متتالية، وهي مفصلة حسب البرنامج التالي:

في مرحلة الاجازة: عدد ساعات التعليم الاجمالية ٢٢٥٥ ساعة.

وفي مرحلة الماستر: عدد ساعات التعليم الاجمالية ٩٣٤ ساعة.

مجموع المرحلتين: عدد ساعات التعليم الاجمالية ٣١٨٩ ساعة.

و لمحدودية الوقت المعطى لنا لهذه المداخلة ، لن نستطيع الولوج الى المضامين العلمية للمقررات ولكيفية ترابطها ولكن لا بد من الاشارة الى مجموعة من الايجابيات والاشكاليات التي لمسناها على مدى عشر سنوات من تطبيق نظام الأرصدة موضوع بحثنا.

عند اعتماد هذا النظام في اوروبا كان الهدف الاساس منه هو تسهيل تحركات الطلاب (mobilisation) بين الجامعات الاوروبية التي تنضوي ضمن معاهدة ماسترخت... وبالتالي الدفع باتجاه الدمج بين الشباب الاوروبي وافساح المجال امامهم لاختيار ما يناسبهم من تخصصات وعلوم في أية مدينة أوروبية مناسبة. وذلك تحت شار سام هو ديمقراطية التعلم والتعليم.

لم يكن هذا البعد الجغرافي- الثقافي من ضمن مكتسبات الجامعة اللبنانية عندما اعتمدت هذا النظام، ولكن كان هدفها تهيئة طلابها للإستفادة من الجامعات الأوروبية عبر إبرام الإتفاقيات التي تسهل انتقالهم من لبنان الى أوروبا دون خسارة المقررات التي نجحوا بها.

أما من خلال التجربة التعليمية فإننا نستطيع توصف الاشكاليات

المجمع الجامعي في الحدث

الاساسية في تعليم العمارة حسب ال ECTS بالعناوين التالية:

- لم يوجد حتى تاريخه أي تقييم أو إدراج لشهادة الاجازة في دراسات الهندسة المعمارية في منظومة العمل المهني الذي يتطلب حكما شهادة الماستر في العمارة للولوج الى سوق العمل كمهندس معمار.

بناء عليه، فإن هدف وجود هذه الشهادة المفترض وهو إتاحة الفرصة أمام الطلاب للإنتقال الى مسار أكاديمي آخر أو الى سوق العمل لم يتحقق بعد. بالمقابل فإن وجودهذه الشهادة ضمن البرنامج الحالي يتيح للطلاب الذين يودون متابعة دراستهم في أوروبا، الإنتقال بسهولة إلى هناك إذا ما توافرت الإتفاقيات مع الجامعات الاوروبية.

- بما أنه من المسلمات أن التعليم المعماري هو تعليم تراكمي من الفصل الاول حتى الفصل الاخير عبر محترفات العمارة المرتبطة بالاسبقية، لذلك لم نجد بدا من تخطي نظام الارصدة الفصلي في هذه المحترفات واعتماد معدل النجاح على مدى السنة وليس على مدى الفصل.
- ضيق الوقت المخصص لمشروع التخرج على مدى فصل واحد (١٥ اسبوع)، لا يعطي الفرصة للطالب لابراز معارفه العلمية في مختلف مراحل المشروع بدءاً من البحث وانتهاء بالمشروع النهائي.
- الجهد الاداري الذي يبذل مع بداية كل فصل لتنظيم عملية التسجيل الاكاديمي، في مختلف المقررات، نظراً لتشعب حالات ووضعيات الطلاب كل حسب الأرصدة التي استحصل عليها .

الخاتمة

بناء لما تقدم يبرز السؤال البديهي: هل المعمار المتخرج حاليا هو افضل مستوى أو العكس ؟

ان عملية التقييم تعتمد اساسا على مستوى المعارف والثقافة العامة والمعلومات العلمية والتقنية التي يؤمنها البرنامج الأكاديمي من خلال التعليم المباشر أو الموجه. وللعامل الشخصي لدى الطالب من حيث اهليته الابداعية، مايشكل عامل التقييم الاساسي الاخر. شخصيا ، لدي قناعة كبيرة بان نظام الارصدة هو نظام تطويري كبير للتعليم المعماري الجامعي ، ولا شك ان نتائجه يمكن ان تكون افضل بكثير من نظام السنوات اذا توافرت الحلول للاشكاليات التي ذكرت قسما منه.خاصة وأن مرونته تسمح بإضافة أو إلغاء أو تقوية أي من المقررات حسب تطور العلوم بشكل عام.

أما بخصوص الإنتقال من الجامعة الى سوق العمل، فإنني أشدد على وجوب العمل لإيجاد هيكلية ما لحلقة تعليمية ما بين ماستر العمارة والعمل المهني الحر، وذلك لتمكين الخريجين الجدد من تحمل المسؤولية الكبيرة في إنتاج العمارة وزرعها في مدننا وقرانا كما يجب أن تكون.

واود هنا الاشارة الى انه في النظام الفرنسي المشابه ، يفرض على المعمار متابعة دبلوم تاهيل بعد الماستر (حوالي ستة شهور) للسماح له بالانتساب الى النقابة ومزاولة العمل المهني الحر.

د. عقبة فاكوش، د. سهير حواس، د. يسار عابدين.

اليوم الأول؛ المحور الثاني:
تعليم العمارة في الوطن العربي: التحولات وتعليم العمارة اليوم
تعليم العمارة اليوم في سوريا مع نشوء الجامعات الخاصة

المعمار: أ. د. عقبة نافع فاكوش

أستاذ العمارة والتصميم المعماري في كلية الهندسة المعمارية

جامعة دمشق

ألقى المعمار الأستاذ عقبة نافع كوش محاضرة عن تعليم العمارة في سوريا بعد نشوء الجامعات الخاصة فيها، واستهلها بعرض لتاريخ إنشاء الجامعات الخاصة، حيث أشار إلى أنه «صدر القانون الذي يسمح بافتتاح جامعات خاصة في سوريا في النصف الثاني من عام ٢٠٠٢ وتم الترخيص بافتتاح أول جامعة خاصة في عام ٢٠٠٣ تبعتها عدة جامعات واليوم يوجد أكثر من 17 جامعة خاصة وستة معاهد عليا وشرعية في سوريا منها ١١ جامعة تدرس العمارة والتصميم... علاوة عن الأربع جامعات الحكومية التي تقبل سنويا حوالي ٩٠٠ طالب وطالبة كل عام يصل منهم إلى التخرج أكثر من أربعمائة وخمسون خريجا بقليل!!»

واعتبر أنه «تلبية لاحتياجات المجتمع من الكفاءات العلمية وتعزيزاً للمشاركة المجتمعية في التعليم وتوسيعاً لفرص القبول الجامعي وتنويعه وتحقيقاً لمتطلبات الخطط التنموية للدولة، تحدد وزارة التعليم العالي المناطق الجغرافية ذات الأولوية في الترخيص بإحداث جامعات خاصة وفقاً لأحكام المرسوم التشريعي رقم 36 لعام 2001 وتعليماته التنفيذية».

وأشار إلى أنه «يتركز أكثر من ٥٠٪ من هذه الجامعات في ريف دمشق وهي التي تستقطب العدد الأكبر من الطلبة في مختلف الاختصاصات»، معتبراً إن «هذه الإحصائية تعطينا مؤشراً واضحاً حول اهتمام سوق العمل بهذه المهنة وعن الأهمية الواضحة لمهنة العمارة في سوريا بشكل خاص؟ ولو قارنا ان عدد سكان الجمهورية العربية السورية هو حوالي ٢٣ مليون نسمة وفق آخر إحصائية وان فيها هذا العدد من الكليات في مجال العمارة، وقارناه بالمغرب مثلا حيث عدد السكان أكثر من ٣٠ مليوناً وفيها مدرسة وطنية واحدة تقبل مائة طالب في العمارة كل عام؟ إن هذا الأمر يعتبر أمرا خطيرا للمهنة بالمطلق. فتخريج مهندسين معماريين بهذا الكم كل عام أمر يؤثر على المهنة وعلى الجودة والمعايير العالمية التي يجب ان تتوفر في المهندس المعماري!!!»

واعتبر أن «الهدف من إقامة الجامعات الخاصة، كان أمر له معانٍ وأهداف سامية والقوانين والضوابط جيدة في هذا الإطار، إلا أن التهاون في تطبيق الشروط والمتطلبات عند إنشاء الجامعات الخاصة أفرغت الهدف الرئيس من محتواه وانعكست سلباً على مهنة العمارة بشكل خاص، وهنا أود أن أنوه بعدة نقاط في هذا الجانب: إن أهم شرط عند افتتاح جامعة خاصة هو أن تتبنى

إحدى الجامعات العريقة والمعترف بها الجامعة الخاصة المفتتحة حديثاً؟ لكن سوء تطبيق هذا الشرط أدى إلى النيل من المستوى لبعض هذه الجامعات الخاصة. الموضوع الآخر المؤثر في مهنة العمارة في سوريا هو انتقاء الإناث لهذه المهنة والدراسة فتكاد نسبة الإناث تتجاوز ٧٠٪ من العدد الإجمالي للدارسين في كليات وأقسام العمارة... وفي مجتمع شرقي كمجتمعنا معظم المهندسات المعماريات لا يتابعن في المهنة وبالتالي يكون هناك ضياع كبير من مهندسي العمارة الإناث من سوق العمل».

الفرق بين التعليم في الجامعات الحكومية والخاصة!

أكّد أنه «عندما بدأت الجامعات الخاصة انطلاقتها كانت تختار وتنتقي أهم الكوادر التدريسية وأفضلها وكذلك كانت تنتقي من سوق العمل من الدول العربية المجاورة (والأجنبية)، ولكن هذا الأمر انخفض تدريجياً بسبب غلاء الأجور في الدول المجاورة والأجنبية والذي ترافق بازدياد أعداد الطلاب الراغبين في دراسة الهندسة المعمارية في الجامعات الحكومية والخاصة، وبالأحرى كان له تأثيرا أكبر على الجامعات الخاصة بسبب قلة أعضاء الهيئة التدريسية في العمارة بشكل عام. إن ازدياد أعداد الطلبة الدارسين في أقسام العمارة أدى إلى تراجع في المستوى العام للخريجين (والذي كان بالأساس متأثرا كما هو في أغلب الدول لهذا الاختصاص) لأن توافق الإبداع مع العلم (كما أسلفت) هو أمر صعب وينطبق على فئة قليلة من الخريجين».

أضاف «ومما لا شك فيه أن الأزمة الحالية التي يمر بها البلد الحبيب أثرت كثيراً على الجامعات الحكومية ولكن على الجامعات الخاصة بشكل أكبر نظراً لفقدان أعضاء الهيئة التدريسية العرب والأجانب وبالتالي الاعتماد الكلي على الأساتذة من الجامعات الحكومية الذين هم بالأساس يعانون من نقص في الكادر التدريسي».

جامعة دمشق

استطرد موضحاً ما يبرز أهمية جامعة دمشق بشكل عام قبل الانتقال إلى تدريس العمارة فيها، وقال «جامعة دمشق تضم ٢٠٠ ألف طالب، وفيها ٣٠٠٠ عضو هيئة تدريس، وتتألف من ٤٠ كلية ومعهد عال، وفي عام ١٩٠١ أقر إنشاء مكتب مدرسة للطب في دمشق، وقد افتتحت هذه المدرسة التي تعد النواة الأولى للجامعة في عام ١٩٠٣ وضمت فرع الطب البشري وفرع الصيدلة وكانت لغة التدريس فيها اللغة التركية».

أضاف «في عام ١٩١٣ افتتحت في بيروت مدرسة للحقوق كان معظم أساتذتها من العرب ولغة التدريس فيها اللغة العربية، ثم نقلت هذا المدرسة عام ١٩١٤ إلى دمشق كمان نقلت في عام ١٩١٥ مدرسة الطب إلى بيروت وأعيدت مدرسة الحقوق إلى بيروت في أواخر سني الحرب العالمية الأولى. وتم افتتاح معهد الطب ومدرسة للحقوق في دمشق عام ١٩١٩ الأول من شهر كانون الثاني والثانية في شهر أيلول. وفي عام ١٩٢٣ سميت مدرسة الحقوق معهد الحقوق، وربط معهدا الحقوق والطب والمجمع العربي ودار الآثار العربية بمؤسسة واحدة تحت اسم الجامعة السورية، ثم فصل في عام ١٩٢٦ المجمع العربي ودار الآثار عن الجامعة. وفي عام ١٩٢٨ أنشئت مدرسة الدروس الأدبية العليا وربطت إدارتها بالجامعة ثم أصبح اسمها عام ١٩٢٩ مدرسة الآداب العليا التي أغلقت عام ١٩٣٥/١٩٣٦».

كليّة الهندسة المعماريّة في جامعة دمشق

أوجز قصة تسمية كلية الهندسة المعمارية بالقول «بوشر بتدريس العمارة في بداية الستينات في جامعة دمشق كانت العمارة جزءا من المعهد العالي للفنون الجميلة وكانت قسما بعد ذلك وعندما افتتحت كلية الهندسة بنيت على أساس ان تخرج المهندسون المدنيون والمعماريون اتجهت الجامعة باتجاه ان تكون العمارة هندسة وليس فنا وبالتالي نقل قسم العمارة من الفنون الجميلة إلى كلية الهندسة ١٩٧٠ وأصبحت تضم قسمان للهندسة المدنية والهندسة المعمارية استمر ذلك حتى ١٩٨٤ عندما صدر المرسوم بتحويل قسم العمارة في كلية الهندسة إلى كلية مستقلة باسم كلية الهندسة المعمارية في جامعة دمشق وصدرت لوائحها الداخليّة الخاصة لتضم كافة الأقسام بدرجاتها العلمية من إجازة ودراسات عليا (دبلوم، ماجستير ودكتوراه).

تابع «والسبب في إضافة كلمة هندسة إلى الاسم يعود إلى أمر هام يتعلق بممارسة المهنة فلكل مهنة نقابة تنظم وتضبط قواعد المهنة ونقابة المهندسين منذ تأسيسها كانت تضم الهندسة المدنية والهندسة المعمارية ثم تطورت لتشمل أنواع أخرى، كالهندسة الكهربائية والميكانيكية والآن الكثير من الاختصاصات الهندسية الأخرى. في بداية تدريس العمارة في جامعة دمشق، اعتمد التدريس على النظام السائد في المدارس الفرنسية للعمارة بسبب وجود أغلبية للأساتذة المتخرجين من هذه المدارس في فرنسا. إضافة إلى وجود عدد من الأساتذة الفرنسيين الزائرين لفترات كبيرة ضمن أعضاء هيئة التدريس أمثال جيلبيرت - كونان - غي روتييه حيث كان لهم أهمية كبيرة في تأسيس وتدريس الخريجين الأوائل في العمارة».

وعرض لمحة سريعة عن بعض المعماريين اللذين شاركوا بالتدريس

في كلية الهندسة المعمارية مشيراً إلى أنه شارك في تدريس العمارة في المراحل الأولى من التأسيس وحتى الثمانينيات كل من:

Georgy BANSHOYA. JAPAN
Jean Noel CONAN. FRANCE
Jean Pierre Dumond. BELGIUM
Raymond GHOUSSON. LEBANON
Wiadislaw GLINSKI. POLAND
Kadiush A GORSKI. USA
Michel Mahbub HUSSEIN. FRANCE
Roland JANISH. Germany
Carol JARSKI. POLAND
Claude JILBERT. FRANCE
Gerhard JUST. GERMANY
Barbara KNAPP. POLAND
Irene LABEIRIE. FRANCE
Hussein MAJED.EGYPT
Jean Jacque MEISSNER.POLAND
MOZOROF. BULGARY
Jean Pierre POCACHARD. FRANCE
Hartmut PROBST.GERMANY
Guy ROTTIER. FRANCE
Dorothea SACK. GERMANY
John WITMAR. SWITZERLAND

كما أوضح أنه «زار الكلية معماريون من كافة أنحاء العالم وبعضهم ألقى محاضرات فيها أمثال:

Georges Candelis. FRANCE
Francoise CHOAY. FRANCE
Roger DABAT. FRANCE
Mario BOTTA. SWITZERLAND
Michel ECOCHARD. FRANCE
Yasu FUJIMOTO. JAPAN
Andrzej GRUSZECKI. POLAND
Zaha HADID. GB
Hans HANISCH. GERMANY
Susumu HYOGA. JAPAN
Gerhard KURDES. GERMANY
Lutz LEHMAN. GERMANY
Pierre Le BIGRE. FRANCE
Hammurabi NAFOURI. ARGENTINA
Serge SANTELLI. FRANCE
Heinz SCHWARZBACH. GERMANY
Paolo SOLERI. USA
Daniel STRESGOOS. GERMANY
Kenzo TANGUE. JAPAN
Heinz NAGLAR. GERMANY
Richard ROGERS. GB
Rem KOOLHASS. Netherlands

أضاف «ظل هذا الأمر سائدا حتى رجوع عدد من الموفدين من بعض الدول الأخرى: بريطانيا ألمانيا الغربية وأمريكا وكانوا قلة، وذلك حتى بداية الثمانينيات. وفي منتصف الثمانينيات قامت وزارة التعليم العالي بإيفاد العديد من الموفدين للحصول على الدكتوراه من الاتحاد السوفييتي السابق وألمانيا الشرقية سابقا وبولونيا (بالنسبة لهندسة العمارة) مع إيفاد عدد قليل منهم إلى الدول الغربية بما فيها فرنسا.... وعدد قليل إلى جمهورية مصر العربية. وبدأ هذا العدد بالقدوم والعودة ليصبحوا في عضوية هيئة التدريس في بداية التسعينيات حيث عادو إلى الجامعة وانخرطوا في التدريس ولكن الهوة الكبيرة بين المؤسسين والقادمين الجدد كان له تأثير قوي على العملية التدريسية خاصة وانهم أتوا بعد فارق زمني لم يكن تراكميا حتى لا يكون له أي مؤثرات سلبية.

وأوضح «فاليوم على سبيل المثال هناك ٣٦ عضو هيئة تدريس ينتمون الى مدارس تعليمية مختلفة على الشكل التالي:

خريجي الاتحاد السوفييتي سابقاً	٧ سبعة
خريجي ألمانيا الشرقية السابقة	٥ خمسة
خريجي ألمانيا الغربية السابقة	١ واحد
خريجي بولونيا	٢ اثنان
خريجي فرنسا	٦ ستة
خريجي بريطانيا	٤ أربعة
خريجي مصر	٢ اثنان
خريجي الهند	٢ اثنان
خريجي جامعة دمشق	٢ اثنان
خريجي إيطاليا	١ واحد

واعتبر ان «هذا الاختلاف والتنوع في خريجي أعضاء الهيئة التدريسية اثر بشكل إيجابي على العملية التدريسية والتغيير في المشرفين على مشاريع التخرج أعطى ألوانا مختلفة من التوجهات نتج معها اختلافات ساهمت في غنى واضح للمنتج المعماري وأعطى نتائج إيجابية طغت على السلبيات».

التعليم المعماري العام والخاص ومؤثراته

وعن المؤثرات في التعليم المعماري العام والخاص قال إنه «لو أوجزنا لوجدنا اختلافات عدة نوجزها في ما يلي: أسس اختيار أعضاء الهيئة التدريسية؛ أسس اختيار البرامج التدريسية؛ أسس اختيار الطلاب وطرائق التسجيل؛ التبادل العلمي وتأثيره في العملية التدريسية (تبادل الأساتذة والطلبة والزيارات العلمية)؛ الدور الاقتصادي في التعليم الخاص والعام؛ التجهيزات والوسائل وطرائق التدريس».

اعتبر أنه «تختلف كثيراً أسس اختيار أعضاء الهيئة التدريسية بين الجامعات الخاصة والعامة. فالجامعات العامة يمر فيها عضو الهيئة التدريسية بخطوات وشروط كثيرة حتى يصبح في عضوية الهيئة التدريسية ناهيك عن أسس الاستمرار والترفيع التي تقرها القوانين والأنظمة في كل دولة وغالبا ما تكون هذه الأنظمة في العمارة مستقاة ومتأثرة في الأجيال الأولى من المدرسين وطبيعة ما درجوا عليه فإذا كان المؤسسون من المدرسة الفرنسية وضعوا نظاما فرنسيا للتدريس وإذا كانوا من المدرسة البريطانية وضعوا نظاما بريطانيا... ورغم قدم هذه المؤسسات التعليمية وتعديل بعض القواعد والأسس ولكن بقايا النظام الأساسي وقواعده المعتمدة لم تزل متأثرة وواضحة المعالم لأنها أصبحت من التقاليد الأساسية التي تتسم بها الجامعة الحكومية».

أضاف «أما الجامعات الخاصة فتختلف باختلاف تاريخ تأسيسها فهناك بعض الكليات التي حالها حال الجامعات الحكومية في أنظمة مدارسها وكلياتها لأنها اتبعت نفس الأسس مع اختلاف اعتماد نظام الساعات المعتمدة ومايفرضه هذا النظام ...لكن بتصرف.. أما الجامعات الناشئة فلقد اتبعت نظاما سائدا لأنها بالأساس وفق الأنظمة والقوانين طلب منها للاعتمادية أن تكون تابعة لجامعة معترف بها دوليا وهذا اختلاف جوهري بين الجامعات الخاصة والعامة والاختلاف هنا قد ينعكس بشكل إيجابي على الجامعة والتعليم فيها أو قد يتسبب بمنعكسات سلبية تنعكس على كافة الجوانب فيها».

وأكّد «إن أهم مؤثر هو أن على الجامعات الخاصة أن تتقيد بتعليمات تصدر عن الجهات الوصائية في التعليم العالي في البلد التي تؤسس به وهذه التعليمات وتطبيقاتها تكون سلبية التأثير أو إيجابية وفق هذا المصدر».

وقال إن «أسس التعيين والقواعد الناظمة لها تضعها وزارات التعليم العالي (وغالباً ما تكون متشابهة بين الخاص والعام) ولكن قواعد الاختيار تتأثر أحيانا في سياسة الجامعات الخاصة وأوجز

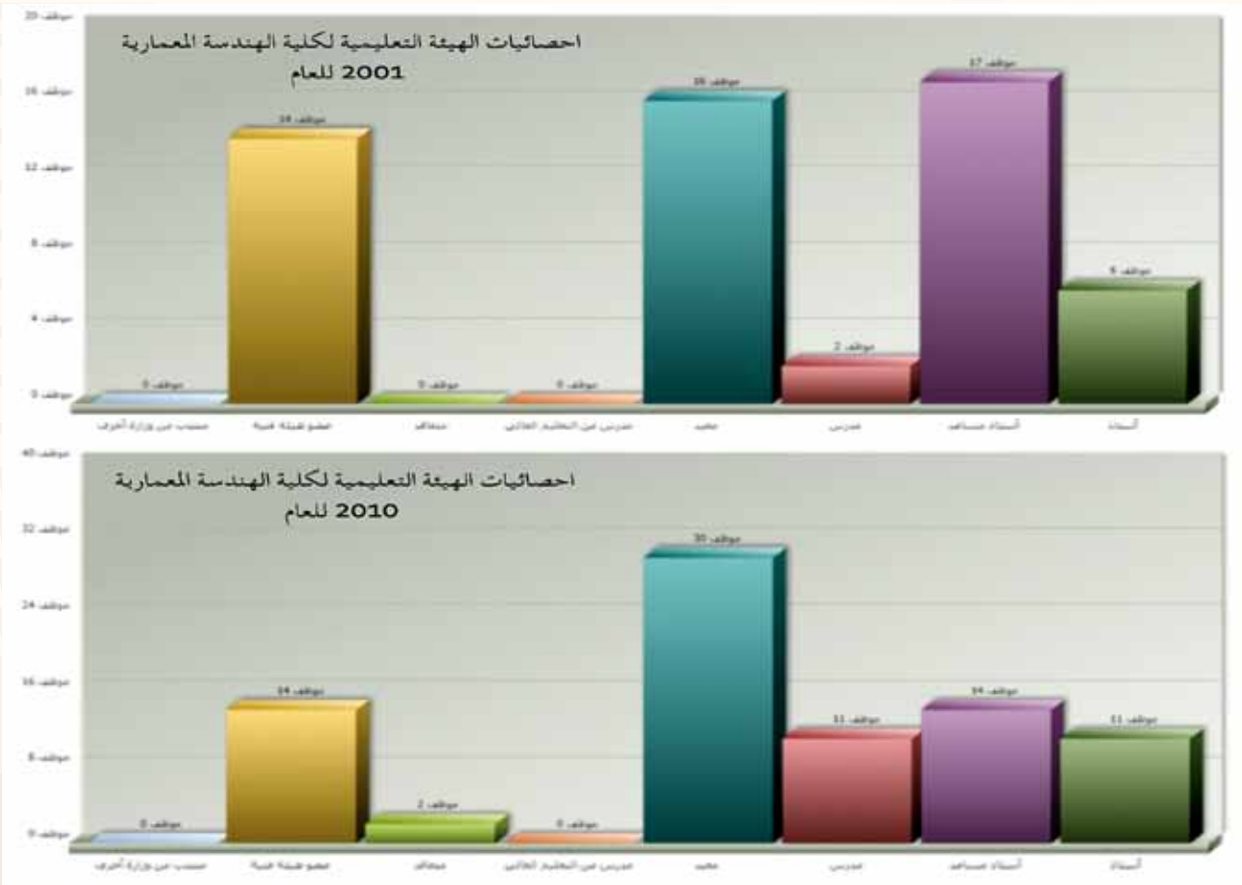

بعضها: إن الاستقطاب التي تمارسه بعض الجامعات الخاصة لأعضاء الهيئة التدريسية له محاذيره وذلك لمنعكساته على عضو الهيئة التدريسية وعلاقته بين أقرانه (مثال الاغراءات المالية أو المناصبية)».

أضاف «هناك جوانب خاصة تلعب دورا في التعيين فالشهادة شرط أساسي لكن المستوى بين أساتذة العمارة مختلف ويرتبط بمعايير إبداعية معينة وبالتالي تلعب بعض الجوانب الخاصة في التعيين وفق الصلات الشخصية على سبيل المثال وتكون على حساب السوية العلمية أحياناً».

وأكّد «إن وجود عضو الهيئة التدريسية في الجامعات العامة مفروض (بعدما اجتاز عدة شروط عند التعيين) فهو كالموظف والتغيير محدود إلا وفق قواعد وأسس معقدة... أما في الجامعات الخاصة تخضع لاعتبارات عدة أهمها الاعتبارات المادية وبالتالي لا يترك عضو الهيئة التدريسية في الجامعة الخاصة أثرا اذا عمل لفترة وجيزة ... لأنه أحيانا يذهب حيث يتلقى العرض المادي الأفضل (وهذا يتعلق أ يضا بطبيعة عضو هيئة التدريس) وبالتالي لا يستطيع أن يترك أثرا من خلال استمراريته خاصة في مجال العمارة».

وأشار إلى إن «بعض القواعد المتبعة في تقويم عضو الهيئة التدريسية تنعكس سلبا على الأداء التدريسي فمثلا: إذا كانت الجامعة تأخذ استبيان الطلبة بعين الاعتبار ... أثر ذلك على الأستاذ وجعله رهن هذا القرار وذهب باتجاه إرضاء الطلبة وكسبهم ليحصل على تقييم عال من الطلبة ولو كان على حساب السوية التعليمية... وهذا يحصل في بعض الجامعات الخاصة دون العامة»، مضيفاً «إن المعايير المتخذة في اختيار الطلبة في الجامعات الحكومية والمتعددة الأسباب وتبسيطها في الجامعات الخاصة ودخول الجانب المادي في هذا الاختيار له انعكاسات كبيرة على مستوى طلاب الجامعات الخاصة تحديدا بمعظمها (رغم وجود بعض الاستثناءات)»، معتبراً «إن استمرارية الجامعات الخاصة في بلادنا تقوم على استمرارية التدفق الاقتصادي لتستطيع تغطية تكاليف التعليم والاستمرار به خاصة وأن هذه التكاليف باهظة لتستطيع الاستمرار وتحقيق الاعتمادية الوطنية أولا والعالمية ثانياً.. وللجانب الاقتصادي منعكسات خطيرة في الجامعات الخاصة على التعليم وعلى الجوانب التربوية والاجتماعية فيها».

وأوضح «إن التبادل العلمي وقواعده وسهولة التعامل فيه مكّن بعض الجامعات الخاصة من كسب علمي جيد وتقدم في العملية التعليمية وذلك لتأثير الجانب الاقتصادي الرئيسي فيه.. فالأمور المادية وتمويل الفعاليات ضروري جداً وغالبا تبحث الجامعات العامة عن تمويل من مؤسسات علمية ذات طابع دولي لتنفيذ البرامج العلمية الثقافية أما في الجامعات الخاصة فيكون القرار على الجامعة نفسها لان تمويلها ذاتي ولا يخضع إلا لقواعد الجامعة الخاصة... وفي التعليم المعماري لهذه الزيارات والتبادل الميداني دوراً كبيراً في تطوير العملية التدريسية ودفعها قدما خاصة عندما تكون الزيارات والتبادل لجامعات متقدمة ومتطورة ولها مكانة في التعليم المعماري».

وختم «نود أن نشير أن تجربة الجامعات الخاصة تجربة جديدة في سورية، وقد تأثرت بعوامل عدة كان أهمها :محاولةإثبات وجودها في ظل منظومة التعليم العالي التي تنظمها قواعد لم تعتد كثيرا على هذا النوع من الجامعات. إن محاولة تطبيق نظام جديد يعتمد على الساعات المعتمدة... هو نظام لم نعتد عليه والقليل من غالبية أعضاء الهيئة التدريسية (بصفتهم من الهيئة التدريسية في جامعات القطر والذين لم يدرسوا هذا النظام) لم يألفوه.. وبالتالي تطبيقه وعلى تدريس العمارة بالذات كان له تأثير سلبي. إن تعرض تجربة جديدة في الأعوام العشر الأولى للتأسيس وأحيانا أقل من ذلك بالنسبة لبعض الجامعات المفتتحة...لمثل ما تعرضت له الجامعات الخاصة في سورية كان له بآثارا سلبيةبالغة الأثر في شتى الاختصاصات وعلى كافة الصعد والمجالات. إن ماحصل من فوضى في الثلاثة أعوام الأخيرة أثر على الجامعات الخاصة وجعلها عرضة للتخريب والانتقال إلى مقرات مؤقتة لا تفي بالغرض ولا سيما العمارة لأنها فقدت البنى التحتية الخاصة من مراسم و جو اجتماعي وأسلوب في العمل صعب تحقيقه في أبنية غير مخصصة لأغراض تدريسية. إن كثرة التراخيص التي منحت لاختصاصات العمارة أثرت سلبيا على اختصاص العمارة وبالتالي قبول الطلبة على قواعد مادية فقط وإغراق سوق العمل بهذا الكم من المهندسين المعماريين دون تهيئة الجو المناسب من أدوات وأعضاء مناسبين لهيئة التدريس سيما وأن هناك قلة وندرة في هذا السياق».

د. يسار عابدين، د. عقبة فاكوش، د. سهير حواس.

اليوم الثاني؛ المحور الثالث: مضمون تعليم العمارة، دور الأبحاث في عملية التعليم، أي معمار عربي نريد لأية ممارسة مهنية

العمارة والمدينة والمجتمع في تعليم العمارة

المعمار: د. يسار عابدين

عميد كلية الهندسة المعمارية ـ جامعة دمشق

ألقى المعمار محمد يسار عابدين محاضرة حول «العمارة والمدينة والمجتمع في تعليم العمارة» تناول فيها تطور التعليم في سوريا حيث أشار إلى عدة دراسات أنجزت في كلية الهندسة المعمارية بجامعة دمشق حول التعليم المعماري والتخطيطي منها:

- إشكالية النصّ والتحكيم في اختبارات المقررات المعمارية العملية ـ دراسة حالة كلية الهندسة المعمارية بجامعة دمشق.
- الدراسة التحليلية لنتائج الطلاب في مقرر التصميم المعماري وانعكاسه على عملية تدريس المقرر ـ دراسة حالة كلية الهندسة المعمارية بجامعة دمشق.
- تطوير التعليم المعماري لمرحلة الإجازة ـ دراسة تحليلية للوائح التعليم المعماري في المعاهد والجامعات الحكومية.
- تعليم التخطيط العمراني في الجامعات السورية : واقع ومؤشرات و بدائل.

واعتبر أن التعليم المعماري هو تعليم متخصص يستند على ركيزة علمية/ تعليمية/ ثقافية؛ يردف المجتمع بخبرات أخلاقية لديها القدرة على حلّ المشكلات والتعارضات بين متطلبات مختلفة ومتباينة، وتملّك القدرة على إيجاد تصميمات معماريّة تفي بالاحتياجات التقنية والجماليّة وترتبط ارتباطا وثيقا بالبيئة الطبيعية والمبنيّة، وتولد نوعا من العمارة والعمران؛ ينظر إليه على أنه ملكية ومسؤولية جميع أفراد المجتمع؛ ضمن بيئات متوائمة مع التراثين الحضاري والثقافي.

في حين أن تطوير التعليم المعماري وهي عملية هادفة أساسها التجديد والتغيير والابتكار؛ تتم تلبية لاحتياجات تتعلق التطور المعرفي والتقني والمعلوماتي، تتضح في الخطة العلمية ومحتويات المقررات، واحتياجات أخرى تتعلق بتطور العلوم التربوية تتضح بوسائل التدريس وأسلوبه وأداء المدرسين.

وأكّد أن العمارة بشكل عملي هي تغيير البيئة؛ استنادا إلى سلوك الأفراد، وفق الضوابط الحاكمة لذلك، تخرجها ثقافة المعماري؛ والمنتج المعماري عمل يرتبط ارتباطاً قوياً في المكان ومكوناته ومحتوياته، فالمعماري يستقي جلّ ثقافته من مدينته، ويطرح منتجه في إطارها، ذلك الإطار الذي لا يمكن تجاوزه أو الإساءة إليه، فهدف العملية التصميمية وضع حلول للمشروع المعماري؛ على أرض موقعه؛ في نطاق الحالة الاقتصادية، والاجتماعية، والبيئية، والسياسية؛ ضمن إطار من التاريخ المستمر وعلى هذا فإن واجب التعليم المعماري التمسك بثوابت المكان في الهوية والخصائص

والإمكانيات المتاحة من وجهة نظر ثقافية تضمن استمرار تفوق المخزون التاريخي لمحصول الثقافة المتراكم في المكان؛ والمدينة هي الأبنية والمنشآت، هي المعماريون، هي مراحل تطور التعليم المعماري.

وأوضح أنه من جهة أخرى، فإن المنتج المعماري هو حجم الإبداع المتكامل بين الشكل، والوظيفة، والتقنية؛ حيث أن:

- الشكل = الانتماء والثقافة
- الوظيفة = الاستيعاب والفهم للحياة
- التقنية = العلم المستمر

وتتجلى احتياجات العمل المعماري المتميز بالآتي:

- الجانب الإبداعي الفطري الموجود لدى كل شخص، والذي يتميز بالجرأة والواقعية.
- الجانب التربوي الذي يقلد فيه الشخص مثله الأعلى في الحياة ويمكن ترجمتها بتربية العائلة.
- الجانب الثقافي المكتسب بجهد استثنائي شخصي من المعطيات المتوفرة في البيئة الاجتماعية المحيطة.
- الجانب التخصصي العلمي الذي يتحدد حجمه بالمستوى التحصيلي وبسعة الاطلاع التخصصي.

وأضاف: يشير تطور التعليم المعماري عموما إلى استقلالية هذا الاختصاص عن باقي العلوم الهندسية وأنواع الفنون الجميلة؛ ويأخذ التعليم المعماري أهميته الكبرى بين مناهج تعليم التخصصات الجامعية الأخرى؛ لما لهذا الاختصاص من تأثير في صياغة شواهد التراث الحضاري عبر ماضي الزمن وحاضره ومستقبله، فالعمران يمثل خلاصة التفاعل ما بين المؤثرات الثقافية والتاريخية والاقتصادية والسياسية والبيئية للمجتمع ضمن بوتقة التطورات العلمية العالمية المتجددة؛

ورأى أن المعماري هو أحد أهم مطوري الحياة المعاشة والأعمال المعمارية أهم مؤشر على تطور المجتمع مادياً ومعنوياً، علمياً وفلسفياً، فالأعمال المعمارية والعمرانية هي الهوية البصرية للمكان، والأعمال المعمارية هي رموز سيميائية معبرة عن المراحل التاريخية التي مرَّ بها المجتمع رسمها معماريو المرحلة، أشاروا من خلالها إلى الوعي والدرجة الثقافية ومدى ارتباطهم بالمكان وحجم التطور التقني المتاح؛

- يضع المعماري أعماله انطلاقاً من ثقافته في تصور مستقبلي يرسم من خلالها ملامح المكان، لتغدو لاحقاً تراثاً معمارياً يعبر عن مرحلة تاريخية بكل ما فيها.

وعلى هذا يمكن اقتراح المحددات الأساسية لخطط التعليم المعماري التي تستجيب لمتطلبات مجتماعاتها على الشكل الآتي:

المحددات القانونية والإدارية الخاصة بكل مؤسسة تعليمية

والتي غالباً ما تتجلى في بنود ومكونات اللائحة التعليمية التي تبدأ في مقدمة تتضمن أهدافا تعليمية وعلمية واجتماعية وإنسانية واقتصادية؛ تسهم في تطوير البحث العلمي وبناء المجتمع والوطن، وأهدافا خاصة تفصح عن إمكانيات ومواصفات الخريجين؛ يليها المفردات التدريسية والأحكام الناظمة للتعامل معها.

المحددات المعنوية والثقافية المكانية

على اعتبار أنّ المنتج المعماري هو عمل اجتماعي ثقافي مرتبط بهويّة وعادات وتقاليد الأفراد، وللعمران علاقات متبادلة مع الحياة الاجتماعية الاقتصادية والسياسية تؤثّر وتتأثّر بها؛ والمعماري هو الذي يترجم الوجود الإنساني في صنع الحضارة والثقافة، والمنتج المعماري هو التاريخ الصحيح الذي لا يمكن تحريفه، والعمارة من شأنها أن تحمل تفاصيل الهوية الشخصية المعبرة عن المكان والبيئة من خلال تراثها أو حداثتها؛ وبقصد التخفيف من التأثير السلبي لتيار العولمة الذي تتعرض له قيم المجتمع وثوابته، والحد من استبدال الهوية المحلية بتراث آخرين، وبهدف تأمين قاعدة ثقافية تمكن من تطويع التقنيات والتطورات العلمية في إطار قيم المجتمع وملامحه؛ يجب استدراك جوانب هامة في مضمون المقررات التعليمية والتوجه العام للتعليم المعماري على الشكل الآتي:

- إدراج مقررات تخصصية نظرية ذات محتوى تطبيقي على تفاصيل أنواع العمارة المحلية؛ بشكل يضمن حصول الطالب على ثوابت ثقافة معمارية محلية من خلال مقررات وافية متسلسلة ومتناسبة مع السنوات التحصيلية لدراسته.
- إدراج مقررات تعنى بالنواحي الإنسانية والتأثيرات الثقافية والحضارية؛ يكون الهدف من تدريسها توضيح الفرق بين التحديث والتغريب، والفرق بين النقل والابتكار والتأقلم.
- العمل على تأصيل الهوية في عموم البرنامج التعليمي للعمارة، وإبراز أهمية أنواع التراث العمراني في سورية، والتأكيد على أهمية وجود الشخصية المميزة للعمارة المحلية التي تعد امتدادا تراكميا للمعطيات الثقافية والبيئية عبر الزمن.
- التأكيد على أن العمارة تمثل إحدى أهم الواجهات الحضارية لمجتمعها، وعلى خطورة انقطاع الماضي عن الحاضر وغياب أي تطور بينهما.

المحددات البيئية والإيكولوجية

وهي محددات تتعلق بالمفهوم التخصصي لخصائص المكان والحياة المعاشة وارتباط ذلك مع المجالات المعمارية؛ وهذه المحددات تدخل في جميع مكونات العمل المعماري.

المحددات العالمية والمحلية العلمية

وهي محددات تتعلق بتطور التعليم المعماري في العالم، من خلال مؤسسات مهنية وعلمية مستقلة تقوم بوضع معايير تقويم واعتراف لبرامج التعليم المعماري؛ لضمان توافر الحد الأدنى من المستوى التعليمي والكفاءة لخريجي تلك البرامج، ومن أشهر هذه المؤسسات:

- مجلس الاعتراف الوطني للعمارة في الولايات المتحدة NAAB)؛ المؤسس في عام ١٩٤٠.
- المدرسة الفرنسية Ecole Superieur des Beaux Arts.
- المدرسة الألمانية – الباوهاوس The-Bauhaus.
- المعهد الملكي للمعماريين البريطانيين (RIBA) المنشأ في عام ١٨٣٤.
- مفوضية الجماعة الأوروبية The-Commission-of-The-European-CommunitieS.
- نقابات المهندسين.
- والاتحاد الدولي للمعماريين.
- الاتحاد العربي للمعماريين.

محددات طلب سوق المهنة

تعد احتمالات العمل بعد التخرج من أهم محددات تطوير التعليم لأنها تفرض وجود معايير تستجيب لطلب السوق المحلية والإقليمية، وتتعلق هذه المحددات بمعايير نسبية لمواصفات المعماري المتخرج من حيث تعدد المهارات والمعلومات الثقافية والعلمية والتقنية والتاريخية، والاتجاهات والمواقف.

وقد أشار تتبع الخرجين أنَّ المشتغلين في مؤسسات الدولة يمارسون أعمال تخطيطية وتنظيمية أو إشراف على التنفيذ، أما المشتغلين في القطاع الخاص فيمارسون الدراسات المعمارية التصميمية أو تنفيذها. وعلى هذا يتوجب على واضع المناهج والخطط؛ ربط التعليم المعماري بممارسة المهنة.

ارتباط التعليم المعماري في المجتمع السوري أكاديمياً

تصاغ لائحة التعليم المعماري في الجامعات الحكومية وفق المحددات الشكلية والقانونية المعممة من قبل مجلس التعليم العالي، والتي تقسم نظرياً إلى ثلاثة أجزاء:

الأول يتعلق بأهداف الكلية، ويشمل مجموعة من الأهداف التي توضح توجهات التعليم العالي بالدولة، وأهداف التعليم المعماري التي تتجلى في مواصفات الخرجين وتستجيب لمتطلبات المجتمع وتلبي حاجة سوق المهنة بشكل مواكب للتطورات العلمية.

الثاني يتعلق بمكونات الخطة العلمية/ التعليمية كالمقررات والساعات والدرجات والفصول والسنوات الدراسية، والتي تصاغ وفق منهجية موجهة لتحقيق الأهداف.

الثالث يتضمن الشروط الواجب توفرها كآلية لتحقيق الأهداف بشكل صحيح وسليم.

أهداف التعليم المعماري في الجامعات الحكومية العربية السورية

أي معماري نريد؟

الهدف في التعليم هو وصف للتغيير المتوقع حدوثه في سلوك المتعلم نتيجة تزويده بخبرات تعليمية، وتفاعله مع المواقف التعليمية المحددة، وهو النتيجة النهائية للعملية التعليمية من خلال محتويات اللائحة، وتأخذ الأهداف أهميتها باعتبارها أساساً لوضع المدخلات التي تصيغ المخرجات؛ ومنها تبدأ عملية التطوير، ومن خلالها تستمر عملية التحديث.

تحديد مصادر أهداف التعليم المعماري: تشتق الأهداف من مصادر تتوافق بجوانبها العامة مع توجهات التعليم العالي في الدولة، وتنفرد بخصوصيتها طبقا لمؤثرات علمية/ ثقافية تتعلق بمواصفات خريجي الكلية.

وذلك باعتبار أن المعماري هو صاحب الإبداع والإنتاج الفني الذي يستجيب لمتطلبات الإنسان في معيشته وعمله وخدمته والترويح عنه؛ من خلال العقل والعاطفة والحدس. استنادا إلى ركائز منطقية فطرية وخلفية ثقافية؛ إضافة لركيزة علمية / تعليمية مكتسبة ؛ يستطيع المعماري من خلالها إخراج العمل المعماري إلى حيّز المجتمع بشكل إبداعي شخصي يستوفي شروط الأعمال المعمارية الوظيفية والبيئية واقتصادياتها ضمن التطوّرات العلمية؛ وفي حيّز الهويّة الثقافية والبيئية للمجتمع.

ولإعداد هذا المعماري الذي تفاخر به المؤسسات التعليمية بقدر ما يفاخر المعماري بتخرّجه منها، ويساهم في التأكيد على هوية الجامعات من خلال خريجيها؛ يقتضي الواجب اعتماد مصادر الأهداف من خلال العلاقة التبادلية ما بين مولدات التخصص المعماري ومنتجاته، والتي تشمل الآتي:

- قيم المجتمع وطموحاته ومشكلاته.
- الإرث الثقافي المعماري.
- فلسفة التعليم الجامعي في الدولة.
- التطور العلمي والتكنولوجي السريع.
- الاتجاهات المعمارية العالمية المعاصرة.
- تطور تقنيات التعليم المعماري.
- وعي احتياجات سوق المهنة في القطاعين العام والخاص.
- المعطيات البيئية والإيكولوجية وتطور معالجاتها.

يهدف التعليم المعماري بشكل أساسي إلى إعداد خريجين ذوي كفاءة عالية للانخراط بنجاح في ممارسة مهنة تعيش تطوراً مستمراً وسريعاً؛ وفي جو من المنافسة المهنية التي انتقلت من المستويين المحلي والإقليمي إلى المستوى العالمي؛ وفي حالة من التفوق الكبير لعمارة العولمة التي باتت تلغي ملامح المجتمعات العريقة.

فإن عملية تطوير التعليم المعماري يجب أن تراعي محددات واسعة ومتنوعة، وعليه فالتحديات كبيرة؛ تجعل من الأمر أكثر صعوبة من مجرد استيراد أو استعارة لوائح ومناهج جاهزة، أو المقارنة معها، أو اتباع توجيهاتها وتوجهاتها؛ وتتجلى هذه الصعوبات من خلال طرح مجموعة التساؤلات الآتية:

- هل يمكن أن يكون استيراد منهاج جاهز؛ كلما لزم الأمر؛ أمرا كافيا؟
- أي المناهج أفضل الغربية منها أم الشرقية؟ أم يجب ابتكار منهجا خاصا؟
- بماذا يجب أن يتأثر تطوير المناهج بالمحلية؟ أم بالعالمية؟
- هل نطور النظام؟ أم الأساليب والوسائل والأدوات؟ أم جميعها؟
- هل ينبغي أن نطور الخطة التعليمية؟ أم محتويات المواد العلمية؟
- هل يتم التطوير دفعة واحدة؟ أم يمكن أن يكون على دفعات؟
- ما الذي يمكن أن نضيفه، وما الذي يمكن أن نحذفه؟ وما هو حجمه؟

- هل ينبغي أن نعلم الطالب كل شيء عن كل شيء؟
- ما هو عمر اللائحة؟ ومتى يجب أن تطور؟
- هل يتم التطوير عند قدم محتويات المنهاج، أم عند زيادة تشعبات الاختصاصات، أم عند تطور الأدوات والوسائل التعليمية، أم عند عدم تحقق أهداف التعليم؟
- من يقرر التطوير؟ الجامعة، الكلية،أم المدينة، أم سوق المهنة؟

إن الإجابة على الأسئلة السابقة يتطلب الكثير من الدراسة والتحليل في مثلث ذهبي متكامل مؤلف من التعليم المعماري والخريج والمجتمع، يحقق في علاقاته المباشرة وغير المباشرة نوعاً متميزاً من الاستمرار التاريخي للمكان في ضوء الهوية والتطور التقني وتغير متطلبات الحياة الاجتماعية.

وبهدف التوصل إلى علاقات ناجحة في هذا المثلث؛ يجب الاهتمام بدراسة أسس ومكونات اللوائح الناظمة للتعليم المعماري؛ والتي تبدأ من أهداف التعليم ووضع مواصفات الخريج في ضوء احتياجات المجتمع.

هل هو تقليد أم إتباع؟

التقليد: شعور أعمى، يتم نتيجة قصور بالفهم وسطحية في معالجة المواضيع، بسبب خلل نفسي متولد من إحساس عارم بعظمة الغير مقابل قناعة تامة بوضاعة شخصية، ويندرج تحتها التقليد التام الذي يسمى سرقة، والاستعارة الصريحة.

الإتباع: قناعة تتم عن طريق فهم عميق للذات، ودراسة وتحليل لمواقف الغير، بهدف تلبية احتياجات تزيد من قيمة الذات وتؤكد على الشخصية المتميزة، ضمن مفاهيم تقدير الغير واحترامه.

هل هو تحرر أم تطور؟

التحرر: هو إلغاء القيود وعدم التمسك بقواعد، وقد يكون التحرر فوضى .

التطور: هو عملية تفاعل كيماوي متين بين مواد رئيسية غالباً ما تكون خامات ثمينة، وبين إضافات أخرى؛ يفرز التفاعل في نهاية الأمر وبشكل حتمي نماذجاً أفضل من الخامات الثمينة المستعملة.

هل هو إبداع أم ابتداع؟

الإبداع: الوصول إلى درجة راقية من التفكير اعتماداً على خلفية علمية وموهبة فطرية وخبرة عملية، والإبداع حالة دائمة لدى الفرد المتمكن.

الابتداع: القفز لتجاوز المنطلقات والأسس والقواعد الثابتة للحصول على المنتج، والاعتماد على حالات استثنائية من التفكير، والابتداع يخطيء ويصيب دون ثبات.

اليوم الثاني؛ المحور الثالث: مضمون تعليم العمارة، دور الأبحاث في عملية التعليم، أي معمار عربي نريد لأية ممارسة مهنية
العمارة والتراث والحداثة في تعليم العمارة

المعمارية: د. سهير حواس
قسم العمارة، كلية الهندسة، جامعة القاهرة ـ مصر

ظاهرة عمرانية...
تمتد فى الزمان ... أبعد مما تمتد فى المكان

«التراث» بمفهومه البسيط هو خلاصة ما خلفته الأجيال السالفة للأجيال الحالية، «التراث» يكون الشيئ الذي لقوم... ثم يصير إلى آخرين بنسب أو بسبب..

وهكذا كانت الحضارة بمفهومها الشامل تعني كل ما يميز أمة عن أمة من حيث «تراثها» من العادات والتقاليد والتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية ومقدرة الإنسان على الإبداع في الفنون والبناء والآداب والعلوم ...

أكبر الحضارات في العالم كانت تمتلك علماء وفنانون عظماء فالفن والعلم هما عنصران متكاملان يقودان أي حضارة إلى العلو والتميز والخلود تاركة «تراثاً حضارياً» لأجيال المستقبل.

والتراث من الناحية العلمية هو علم قائم بذاته ... يختص بقطاعات من الثقافة ... التقليدية المعمارية أو الفنية أو الشعبية أو غير ذلك... ويلقي الضوء عليها من زوايا تاريخية وجغرافية واجتماعية ونفسية ...

«التراث» لنا كنز ... فحق لنا أن نعد أجيال المستقبل لاستقبال هبة الأجداد... إنها رصيدنا من ثروات نتاج الحضارات لا تناقض ولا تضاض إذاً نهجنا نهج التحديث. فالحداثة هى انطلاقة نحو التقدم وصياغة ملامح العصر. أما التراث ففي حد ذاته يشجع صياغة ملامح العصر وإلا ما سجل جيل الحاضر أبداً تراث الغد.

التعليم أفضل مؤرخ

في مصر نمتلك ثروة تراثية عظيمة وهى ذات دلالات حضارية قوية وعميقة للحفاظ على إرثنا التراثي لابد أن نفهم وندرك ما لدينا ، لذلك وجب تغطية مجال التراث في المناهج التعليمية للمستويات الدراسية المختلفة بداية من المدارس إلى الجامعات . بالتعليم والتعلم نفهم وندرك حقيقة الأمور ونكتسب مهارات وقدرات آداء متميزة ، كما يتم دفع القدرات الإبداعية لدى الإنسان.

التعليم المعماري والتراث والحداثة في مصر

يحتضن التعليم المعماري في مصر خلال العشرين سنة الماضية التراث الحضاري القومي كمفهوم وثروة في مناهجه على مستوى الجامعات الحكومية والخاصة.

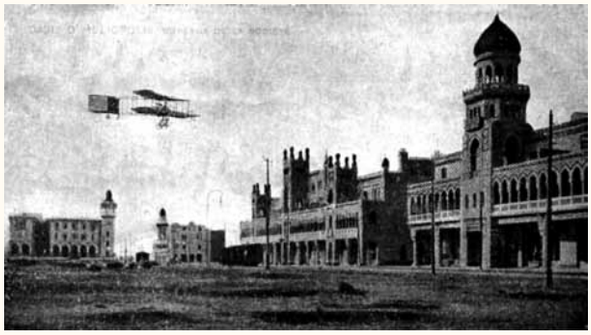

أيضـاً أصبح يلعب دوراً داعمـاً في الربط بين الدراسات الأكاديمية والتطبيقات العمليـة، و تعد الجامعات المصرية الآن مصدراً مهماً في إعداد كوادر المعماريين المؤهلين لمهام التعامل مع التراث.

أهـداف الربـط بين التعليـم المعمـاري والتراث

يقترن التعليم المعماري بالتراث كمفاهيم وتطبيقات وأسس حفاظ منبعه الرغبة في تحقيق الأهداف التالية:

- إعداد كوادر من المهندسين المعماريين للمستقبل لديهم العلم والمعرفة والقدرة على العمل من أجل حماية التراث الحضاري وحسن إدارة مشروعات الحفـاظ واتخاذ القرارات الصائبة فيما يخص التراث الحضاري علم إدارة الحفاظ
- دفـع القـدرات الإبداعيـة الحضاري نحـو استلهـام الإبداع المتواصـل في الـتراث المعمـاري الفريد والحفـاظ والصيانة للقيم التخطيطيـة والجمالية للتراث حتى يبقـى شاهداً حياً علـى إبداعنا الحضاري الـذي كان ونأمل بـأن يعود كما كان رمزاً لعبقرية الإنسان في مجال العمارة.
- التعريـف بالتكنولوجيا المتطورة في مجـال الترميم والصيانة ... والآلات والآليات والمواد المتطورة.
- التعريـف بالمدارس الدوليـة والمحليـة في مجـال الترميـم والحفاظ وتطبيقاتها
- التعريف بالمواثيق والقوانين الدولية والمحلية ذات الصلة.

التعليم المعماري من أجل

إدراك التراث، والحفاظ على التراث، وصناعة تراث.

التراث في مناهج تعليم العمارة

المناهج الدراسية ذات الصلة بالتراث على المستويين البكالوريوس والدراسات العليـا والرسائل العلمية ـ ماجستـير ودكتوراه ـ ومدى ارتباطها المباشر أو غير المباشر بالتراث الحضاري في مصر:

- المتطلبات العامة للتخـرج ببكالوريوس الهندسة المعمارية من جامعة القاهرة هي خمسة قنوات تخصصية:

١- الدراسات المعمارية

٢- تكنولوجيا البناء

٣- التصميم البيئي

٤- التنمية العمرانية والإسكان

٥- تخطيط المدن

أولاً : مقررات الدراسات المعمارية، السنة الثالثة:

عمر (٣٤١) : العمارة الداخلية (١)

عمر (٣٤٢) : طرق ومناهج التصميم

عمر (٣٤٣) : العمارة والثقافة والتراث

عمر (٣٤٤) : عمارة المجتمعات الإسلامية

عمر (٣٤٥) : العمارة المحلية والإقليمية

عمر (٣٤٦) : التشكيل والجماليات

عمر (٣٤٧) : العمارة والحاسب الآلي (١)

ثانياً : مقررات تكنولوجيا البناء: السنة الثالثة:

عمر (٣٥١) : تكنـولوجيا البناء ١

عمر (٣٥٢) : تكنـولوجيا البناء ٢

عمر (٣٥٣) : قوانين وتشريعات البناء ومستندات التنفيذ

عمر (٣٥٤) : إداره الأعمال الهندسية

ثالثاً : مقررات التصميم العمرانى والإسكان: السنة الثالثة:

عمر (٣٦١) الإسكان ١ : الإسكان فى الدول النامية

عمر (٣٦٢) تصميم المجتمعات

عمر (٣٦٣) تصميم وتنسيق المواقع وعمارة الأراضي

عمر (٣٦٤) الفراغات العمرانية ١: تاريخ وتطور الفراغات العمرانية

رابعاً : مقررات التخطيط العمراني: السنة الثالثة:

عمر ٣٧١ – الارتقاء العمراني

عمر ٣٧٢ – التخطيط التفصيلى

عمر ٣٧٣ – تطور العمران

عمر ٣٧٤ – مدخل إلى تنسيق وتشجير المواقع

عمر ٣٧٥ – نظريات التخطيط العمرانى

عمر ٣٧٦ – وسائل التحليل بأستخدام الحاسب الآلى (نظم المعلومات) (١)

خامساً : مقررات البيئة: السنة الثالثة:

عمر (٣٨١) التصميم والتخطيط البيئى والطاقة :

عمر (٣٨٢) مدخل الى الدراسات البيئية

عمر (٣٨٣) العمارة والتنمية المستدامه

عمر (٣٨٤) العمارة الخضراء

عمر (٣٨٥) عمارة المناطق الحارة

أولاً : مقررات الدراسات المعمارية، السنة الرابعة

عمر (٤٤١) : العمارة الداخلية (٢)

عمر (٤٤٢) : التصميم التجريبي

عمر (٤٤٣) : النقد المعماري

عمر (٤٤٤) : نظريات عمارة (٧)

عمر (٤٤٥) : العمارة والدراسات السلوكية فى المجت

عمر (٤٤٦) : العمارة والحاسب الآلي (٢)

ثانياً : مقررات تكنولوجيا البناء، السنة الرابعة :

عمر ٤٥١ صيانة وترميم المباني

عمر ٤٥٢ اقتصاديات البناء وتقييم وتحليل المشروعات

عمر ٤٥٣ التركيبات الفنية ومواد التشطيب

ثالثاً : مقررات التصميم العمرانى والإسكان، السنة الرابعة:

عمر (٤٦١) الإسكان ٢ : تاريخ ونظريات الإسكان

عمر (٤٦٢) الحفاظ العمراني وتوفيق الاستخدام

عمر (٤٦٣) الإسكان ٤ تصميم وتخطيط المناطق السكنية

عمـر (٤٦٤) الإسكـان ٣ : سياسـات الإسكان والتحـولات الاجتماعية والسياسية

عمر (٤٦٥) التصميم العمراني ٢ : المناطق ذات الطبيعة الخاصة

عمر (٤٦٦) الفراغات العمرانية ٢ : الفنون والتوجهات الأحدث

رابعاً : مقررات التخطيط العمرانى، السنة الرابعة:

عمر (٤٧١) تنمية المجتمعات

عمر (٤٧٢) هندسة وتنسيق المواقع العمرانية

عمر (٤٧٣) إدارة وتشريعات العمران

عمر (٤٧٤) نقد وتحليل عمراني

عمر (٤٧٥) الاقتصاد العمرانى والتحليل الإحصائي

عمر (٤٧٦) وسائل التحليل باستخدام الحاسب الآلى (نظم المعلومات) (٢)

خامساً : مقررات البيئة، السنة الرابعة:

عمر (٤٨١) الحاسب الآلي فى التصميم البيئى

عمر (٤٨٢) كفاءة الطاقة فى المباني

عمر (٤٨٣) الأنساق العمرانية الصحراوية

عمر (٤٨٤) الإدراك الحسى للبيئة

١ ـ الدراسات المعمارية

الحفاظ المعماري

يقدم المقـرر مداخل الحفـاظ والإحياء وإعـادة التوظيف للمباني ذات القيمـة التراثية والتاريخية ، ويتضمن المقرر أسس واتجاهات إعادة التوظيف في ظل المحددات التاريخية والتنظيمية والتشريعية والاقتصادية والتكنولوجيـة وغيرها ، وذلك من خلال تطبيق هذه الأسس في أبحاث وتمارين ودراسة الحالة يقدمها للطلاب لنماذج مختارة من مشاريع الإحياء.

مواد دراسية تتضمن التراث

- بحوث عمارة المجتمعات الإسلامية
- تكنولوجيا صيانة وترميم المباني ص
- التصميم العمراني وتنمية المجتمعات
- الحفـاظ العمراني: يهدف المقرر إلى التقديم المتكامل لأسس ومفاهيم الحفاظ المعماري والعمراني
- بحـوث الحفاظ العمـراني: «يعرضـ المقرر لمجـال ومفاهيم ودراسـات الحفاظ العمـراني من خلال الدراسـات البحثية متعددة المستويات التي تتعرض إلى ...»
- عمران المناطق ذات القيمة:

العمران

التصميم العمراني
مصر الجديدة (شارع ابو بكر الصديق)
كلية الهندسة - جامعة القاهرة
قسم الهندسة المعمارية
مادة التصميم العمراني
دراسة النسيج العمراني
دراسة الصورة الذهنية للشارع و نشاط الدور الارضي
دراسة الواجهات
خريطة ارتفاعات المباني
خريطة حالات المباني
خريطة مستعملات الأراضي
دراسات حالة لكل بالشارع
الاستنتاج
مقدم من:
مقدم الى:

التصميم العمراني
مصر الجديدة (شارع ابو بكر الصديق شارع هارون الرشيد- ميدان الاسماعيلية)
كلية الهندسة - جامعة القاهرة
قسم الهندسة المعمارية
مادة التصميم العمراني
الطابع المعماري لمنطقة الدراسة
شارع أبو بكر الصديق
شارع هارون الرشيد
ميدان الإسماعيلية
طرازمميز لمبنى المحكمة
Artdeco طراز الأرديكو
الطراز الحديث
طراز مابعد الحداثة
إسلامي
تلقيطي إسلامي
كلاسيكي
حديث
تلقيطي
طراز مابعد الحداثة
طراز الأرديكو
الاستنتاج:
مقدم من:
مقدم الى:

الدراسات العليا

١- الدراسات المعمارية

٢- علوم وتكنولوجيا البناء

٣- التصميم البيئي

٤- التصميم العمراني وتنمية المجتمعات

٥- التخطيط العمراني

جامعة عين شمس «الدراسات العليا»:

عدد الرسائل العلمية ذات الصلة بالتراث:

٩ من إجمالي ١٠٥رسالة

منها ٤ ماجستير و٥ دكتوراه

أول رسالة ماجستير عام ١٩٩٤

أول رسالة دكتوراه عام ٢٠٠١

عدد المواد الدراسية: ٣٣

عدد المواد ذات الصلة بالتراث: ١ (مادة إدارة المواقع التراثية)

مرحلة البكالوريوس قسم التخطيط العمراني: بالتراثلا توجد مواد ذات صلة.

الخلاصة والتوصية

- هل الحفاظ على التراث الحضاري مهمة الحكومات وحدها أم أن اعتباره ثروة قومية يتطلب أن يكون مهمة المجتمع كله؟
- هذا يتطلب أن تكون فلسفة الحفاظ منهجاً تربوياً منذ الصغر في المنازل والمدارس ثم الجامعات.
- ضرورة تناول موضوعات التراث ومتطلبات حمايته كمادة إعلامية مؤثرة في جميع الوسائط المتاحة.
- ضرورة تضمين حماية التراث ضمن أولويات الحكومات من أجل رصد ميزانية بشأن التراث.

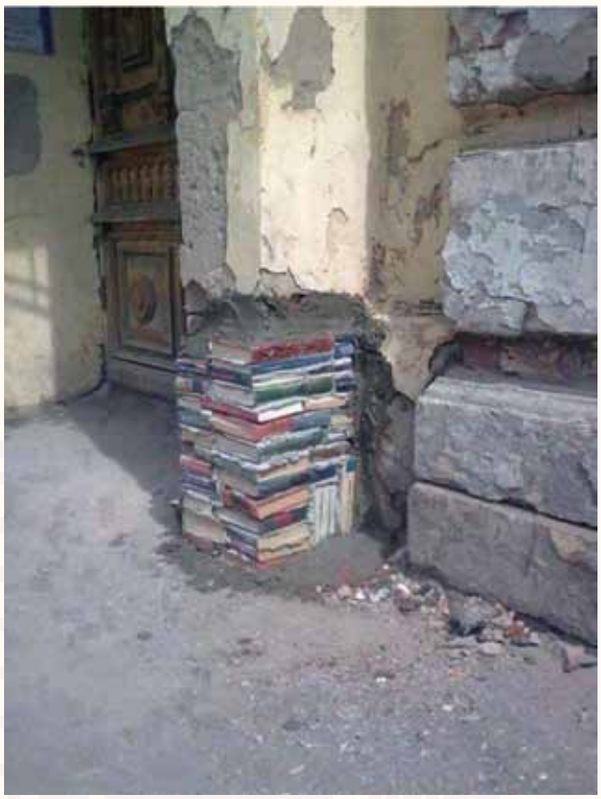

د.منير ذويب، د. عقبة فاكوش.

اليوم الثاني؛ المحور الرابع: تعليم العمارة في الوطن العربي في ظل العولمة، وعلاقته بالعمارة وبالفنون وبالتقنيات الرقمية

سطوة الابهار بالصورة، وثقافة المقاربة المنفتحة والنقدية للعمارة وللفنون اليوم

المعمار: الدكتور منير ذويب

مدير مدرسة الدكتوراه علوم وهندسة معمارية، جامعة قرطاج

الكلمات المفاتيح : العولمة، الرقمية، الفضاء، الصورة، العمارة، التصميم، المعرفيّة.

Mots-clefs : Globalisation, numérique, espace, forme, architecture, conception, cognitique.

في مفهوم العولمة والثورة الرقميّة

لعلّ أقرب المسالك لمعالجة الإشكاليّة المطروحة تكمن في تعريف أو بالأحرى إعادة تعريف بعض الكلمات المفاتيح التي يحويها موضوع المحور وعنوان المداخلة وهي على التوالي العولمة والثورة الرقمية والصورة والعمارة والفنون.

كثيرون هم المفكّرون الذين تكلّموا في العولمة وعرّفوا بها ولعلّ مختصرها أن أصبح العالم أي الكرة الأرضيّة بأكملها بمثابة قرية واحدة شاملة، كلّ قارّاتها متّصلة ببعضها وسكّانها في تواصل مع بعضهم البعض. قرُبت المسافات التي تفصلهم وسهل السفر والتنقّل للأشخاص والسلع والطاقة والمعلومات.

ولعلّ المفهوم الذي يختزل هذا الوضع هو مصطلح الجَولُ بمعنى (mobilité). إذ لم يتغيّرحجم الكرة الأرضيّة ولا نقصت المسافات الجغرافيّة بين العواصم والمدن بل تقلّص الوقت اللازم للتنقل، للاتّصال والتواصل. تقلّصُ الوقت اللازم لأداء الحركة أو العمليّة هو الذي قرّب المسافة حتّى كاد ينعدم بالنسبة لتنقّل المعلومة والصوت والصورة، فأصبح آنيّا.

و هذا يسوقنا إلى مفهوم الرقميّة وتقنيات المعلومات والاتصال (Tic). كثيرة هي الأدبيّات التي عالجت هذا المحور. ومن بين المختصّين من يعتبر هذا التحوّل بمثابة الثورة الشاملة وهي الثورة الثالثة أو الموجة الثالثة من نوعها التي عرفتها الإنسانيّة في تاريخها.

يعتبر ميشال سار (SERRES Michel) ومعه رجيس ديبري (DEBRAY Regis) أنّه تحدث ثورة معرفيّة كلّما تغيّر الميديا أو المحمل الموصل للمعلومة أو الرسالة أوالإرسالية(message du support du changement).

صادفت الموجة الأولى الانتقلال من الثقافة الشفويّة(orale culture) إلى الكتابة بعد وضع الأبجديّات الرمزيّة، واستعملت الألواح الخشبيّة أو الطينيّة والبابيروس ثمّ أعطت تقنية الورق دفعا كبيرا لهذه الثقافة.فسهّلت صناعة المخطوطات، فتناقلتها الحضارات.

و أمّا الموجة الثانية أو الثقافة التيبوغرافيّة(typographique culture) فكانت مع اكتشاف آلة الطباعة فسهّلت إنتاج الكتب بأعداد كبيرة، وتوزيعها على نطاق واسع. ثمّ جاءت الإعلاميّة والمحمل الرقمي للرسالة.

ثمّ جاءت الموجة الثالثة أو الثقافة الإعلاميّة (numérique culture) وهي ثورة شاملة وعارمة تتغير بعدها الحضارة والثقافة في كلّ جوانبها، تطال بالتغيير عمق الحضارة في جميع مفاصلها ومركّباتها. وهي أيضا ثورة معرفيّة باراديغماتيّة (cognitive révolution) ستغيّر نظرتنا للكون.و لقد اختزلها ميشال سار (SERRES Michel) في تغيير مفهومنا وتصوّرنا للفضاء(Espace).

في مفهوم الفضاء

فحقبة ثقافة الكتابة التبوغرافية ترتكز إلى التصوّر الإقليدي للفضاء ذو الأبعاد الثلاث العرض والعمق والارتفاع وإلى البراديغما الهندسي العقلاني الذي أنتج العلم المادي الحديث وهو علم موضوعي طبيعي مادّي تحليلي تجريبي تجردي منطقي رياضي.

فكلّ الأشياء والموجودات محدّدة في الفضاء المعقلن لها جسم وشكل هندسي وصورة مرئيّة ((vision géométrique et territoriale de lèspace). وأيّ إنسان له عنوان محدّد بدقّة هندسيّة في نقطة معيّنة فوق الكرة الأرضيّة.

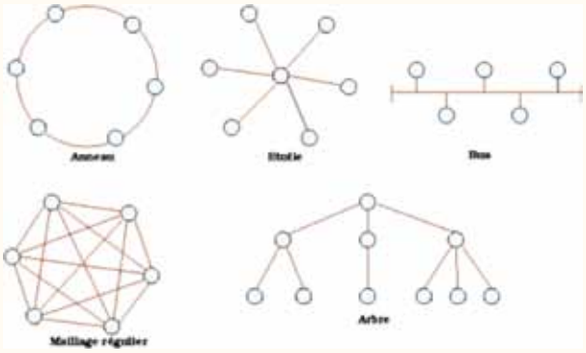

أمّا الآن فأصبح عنوان الفرد مجرّد عبارة رمزيّة في شبكة لامادّيّة معلوماتيّة ومكانه الجغرافي لم يعد محدّدا لوجوده، وهذا ما اصطلح عليه ميشال سار (SERRES Michel) بالفضاء التبولوجي وهو عبارة على شبكة لامادّيّة متّصلة مسطّحة وآنيّة ، ولهذا يختزل الباحث هذه الثورة في تغيّر تصوّرنا للفضاء يُستبدل فيه المنظور الواقعي للأجسام الهندسيّة إلى المنظور البنيوي المنظومي للعلاقات المشبّكة.

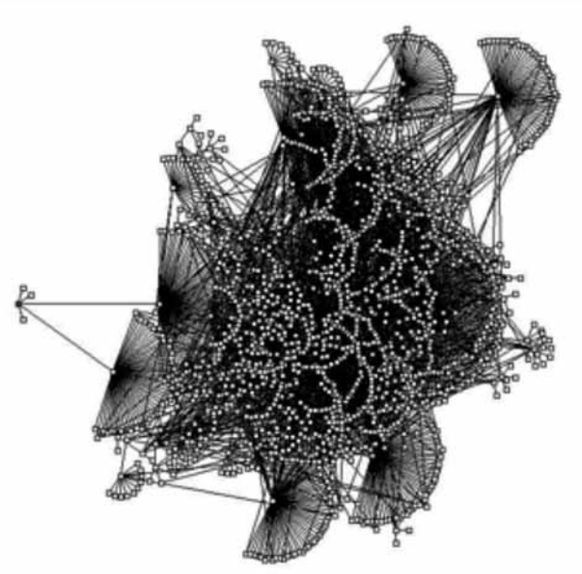

في مفهوم الصورة

في النظرة الواقعيّة الهندسيّة، الصورة تعني الشكل الظاهر المجسّم(la forme) الذي ندركه بالحواس وخاصّة منها الرؤية (la vue) ويحدّه الفضاء وتستطيع تصويره أي رسمه بتقنيات مستوحاة من رؤية العين وهي أشبه بلآلة الفوتوغرافيّة التي تحاكي العين فتكون الصورة مماهية ومماثلة للمجسّم (photographie).

و أمّا في المنظور البنيوي، فالصورة تعني الشكل الباطن أو بالأحرى ديناميكيّة التشكّل(formation de dynamique) أي عمليّة النشوء والتركيب والتأليف، والآلة اللازمة للتصوير هنا

هـي معرفيّة نظريّة مفاهيميّة تصف عمليّـة الخلق والتشكّل. ولقد أطلـق عليهـا ج.ل.لومـوان(LEMOIGNE Louis Jean) اسم السيستاموغـراف (systèmographie) الـذي يختـزل نظريّته للمنظومة العامة(général système du théorie).

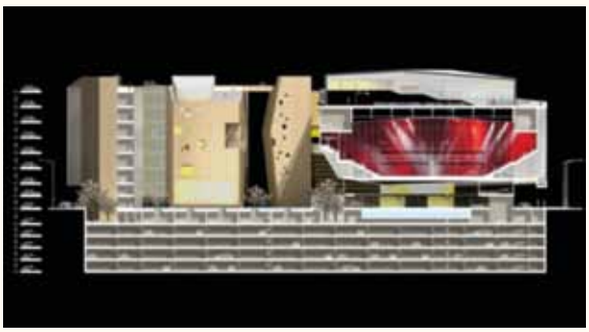

الصورة في آيات من القرآن الكريم

١. «خلـق السماوات والأرض بالحقّ وصوّركـم فأحسن صوركم وإليه المصير» (سورة التغابن ٦٤).
« Il a créé les cieux et la terre en toute vérité et vous a donné votre forme et quelle belle forme il vous a donnée ! et vers lui le devenir »

٢. «اللّه الـذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بنـاءا وصوّركم فأحسـن صوركـم ورزقكـم مـن الطيّبـات ذالكـم اللّه ربّكم فتبارك اللّه ربّ العالمين» (سورة غافر ٤٠).
« c'est Allah qui vous a assigné la terre comme demeure stable et le ciel comme toit et vous a donné votre forme et quelle belle forme il vous a donnée ! et il vous a nourris de bonnes choses. Tel est Allah, votre seigneur, gloire à Allah, seigneur de l'univers ! »

٣. «و لقـد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ثمّ قلنـا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من الساجدين»(سورة الأعراف ٧).
« Nous vous avons crées, puis nous vous avons donné une forme, ensuite nous avons dit aux anges : « prosternez-vous devant Adam ».Ils se prosternèrent à l'exception d'iblis qui ne fut point de ceux qui se prosternèrent.»

٤. «هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء لا اله الاّ هو العزيز الحكيم»(سورة آل عمران ٣).
« C'est lui qui vous donne forme dans les matrices, comme il veut. Point de divinité à part lui, le puissant, le sage. »

«يـا أيّها الإنسان ما غـرّك بربّك الكريم(٦)الـذي خلقك فسوّاك فعدلك(٧)في أيّ صورة ما شاء ركّبك(٨)»(سورة الانفطار ٨٢).
« Ô homme ! qu'est ce qui t'a trompé au sujet de ton seigneur, le noble (6)qui t'a créé, puis modelé et constitué harmonieusement ?(7) Il t'a façonné dans la forme qu'il a voulue.(8) »

محمّد فؤاد عبد الباقي المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

في مفهوم العمارة

أمـا العمارة فهي تُعرّف على أنّها هندسة (génie) أو علم هندسة البنـاء(science du génie architectural) وهـي جمـع مـن المعـارف العقلانيّـة والمهـارات الصناعيّـة المتخصّصـة في مجال التشييد والبناء (spécialisées singénierie).

كما تُعرّف أيضا كفنّ من فنون المجال أو الفضاء (les arts de l espace) بمعنى قدرة أو موهبة إبداعيّة على تحويل المواد والعناصر إلى فضاءات مركّبة من خلال رؤية جماليّة مثاليّة يُراد منها أن تُعبّر المادّة على معاني رمزيّة لاماديّة.

وهي بهذا التعريف المزدوج اختصاص صعب ومعقّد مشضّى يحتاج أن يتمحور حول مركزه أو «قلبه»(coeur) وأن تتحَدّد أطرافه (contours) ومنهجه لكنّ هذه المنهجيّة مازالت تفتقد إلى النظريّة.

وإذا كانت هذه المهارات تهمّ بالأساس هندسة التشكيل والتركيب والرسم ثمّ هندسة الإنشاء والبناء والهيكلة ثمّ هندسة الاستعمال والوظيفيّة زيادة على هندسة التكييف ومناخ الفضاءات، وإن كانت هذه هندسات متخصّصة فإنّ منهجيّة المشروع هي التي تؤلّف بينها في عمليّة التصميم والتصوّر.

و لقد خلق انفصال الفنون عن العلوم في حقبة الحداثة انفصاما في المجال المعرفي لمادّة العمارة ومازال هذا الاختصاص يشكو من التجاذب بين هذين القطبين. ولابدّ من أن نحقّق التصالح بينهما في إطار عهد وميثاق معرفي جديد (la nouvelle alliance entre art et science).

في التصميم الهندسي والتصوّر المعماري

يرى أفلاطون أنّ اللّه منح الكون أنسب الصور فسوّاه ودوّره، كرة كلّ أطرافها متساوية على نفس المقاس من بعضها البعض في جميع الاتّجاهات وهي الصورة المثاليّة من بين جميع الأشكال عدلها وأدارها على نفسها حول نفسها في حركة دائريّة ونزّهها عن الحركات الناقصة وهي الحركات الست الأخرى وهي حركات مستقيمة من الأعلى إلى الأسفل، ومن الخلف إلى الأمام، ومن اليسار إلى اليمين، وخصّها بكمال وجمال المساح المتساوي من المركز.

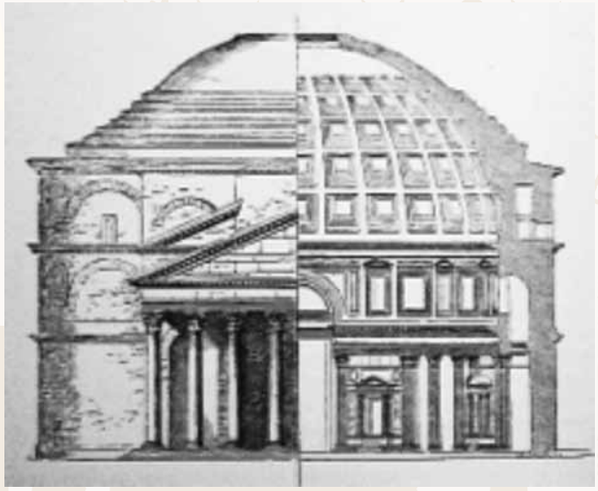

يستعمل التصميم (composition) فنّ التركيب الحركات الست حسب الأبعاد الثلاث ويطمح الشكل أن يتكوّر ويتدوّر حتّى يبلغ التناسق والجمال (harmonia). بينما تستدعي صناعة الإنشاء علوم الهيكلة وتقنيات الميكانيكا لإنجاز البناء (construction).

لقد عاش اختصاص التصوّر المعماري لقرون طويلة هذا الانفصام الإبيستمولوجي في ماهيته، من جهة هو فنّ التركيب ومن جهة أخرى هو هندسة وتقنيات البناء، وهذين المجالين مختلفين متنافرين.

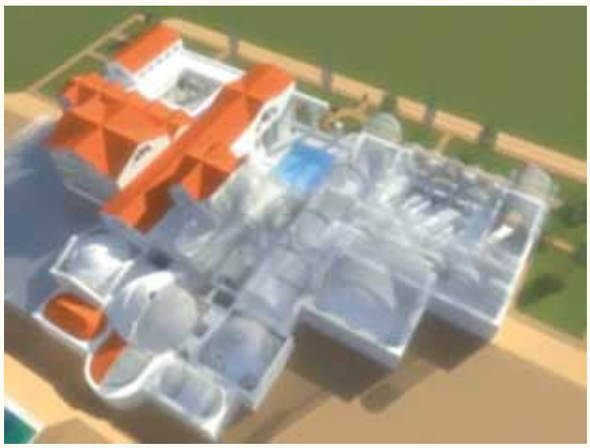

الميثاق المعرفي والعهد الجديد يؤدّي إلى تجاوز هذا الانفصام والتنافر بين العلم والفنّ، فالتصوّر هو بالأساس عمليّة فكريّة معرفيّة لابدّ أن تُستخدم فيها ملكات الفكر معا. ويعتبر ميشال سار أنّ الفكر والذكاء (entendement intelligence.pensée.) يستدعي ملكات ثلاث هي العقل (raison) والمخيال (imagination) والحافظة الذاكرة (mémoire).

فملكة العقل أو المعرفة العقلانيّة أي العلم يراوح بين قطبين هما التحليل والتأليف.

وأمّا ملكة الذاكرة أو الحافظة (mémoire) تعني التاريخ والتطوّر وهي تراوح بين قطبين هما السابق واللاحق (antécédent – survenant).

ثمّ ملكة الخيال الإبداعي أو المخيال (créatrice imagination et imaginal) تعني الرمزيّة وتراوح بين قطبين المادّة والمثال.

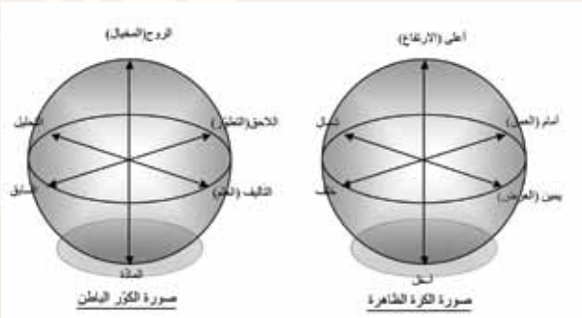

الكـوّر المعـرفي نمـوذج للصـورة السيستاموغرافيّـة في الفضـاء التبولوجي.

سـوف نستعـير النمـوذج الكـروي الهندسـي الأفلطـوني للصورة الكاملة والفضاء الإقليدي بأبعاده الثلاث واتّجهاته الست وحركاته السبعة، ثمّ نستبدلها بنموذج للكوّر التبولوجي المعرفي:

يحتـلّ المنظور العقلاني البعد الأفقي بين قطبـي التحليل والتأليف وحركتاه التفكيك والتركيب.

و يحتـلّ المنظور الرمزي المخيـالي البعد العامودي بين قطبي المادّة والروح وحركتاه التنزيل والتعالي.

ويحتـلّ المنظور التاريخي التطوّري البعد العمقي بين قطبي السابق واللاحق وحركتاه التقليد والتجديد.

أمّـا الحركة السابعة فهـي العدل والانسجـام الدّاخلي (interne cohérence).

الأسطورة برج بابل والطوفان

لقـد حقّقـت الإنسانية حلمها في إنشاء موسوعـة ضخمة تحوي كلّ العلـوم والمعارف مجمّعة بجميع أنواعها من كلّ مكان ومن كلّ زمان ومـن كـلّ الحضارات، ويمكـن لأي شخص كان بلوغ هـذه المعارف والمعلومات واستعمالها دونما أن يكلّف نفسه مشقّة السفر والتنقّل. المعلومات والمعارف والصور والأصوات هي التي تتنقّل وتأتي إلينا ، فيغمرنـا هذا الطوفان الهائل المعلوماتي المعرفي. ويكاد يغرقنا هذا البحر اللامادي.

أصبحـت الذاكـرة الاصطناعيّة هائلـة وخارقة بالفعـل ولا حاجة للإنسـان أن يحمّل ذاكرته بكلّ هـذا الكمّ وحفظه، إذ هو يمكن أن يتحصّل عليه في أيّ وقت، متى شاء!

ليـس هذا ضرّ أو خطر في حدّ ذاته بـل هوإنجاز جيّد وإيجابي، بل يكمـن المشكل في أنّنا لم نصنع الفلك حتّى ننجو من الغرق ونطفو. والفلـك هنا بالمعنى الرمزي الميتافوري هو المنهج المعرفي والنظريّة المنظوميّـة التي يتمحور حولها العمل المعماري فيما هو تصوّر يدمج التأليـف بالتحليل العلمي عبر المخيال الإبداعي في دينامية الإنشاء والتشكّل التطوري.

اليوم الثاني؛ المحور الرابع: تعليم العمارة في الوطن العربي في ظل العولمة، وعلاقته بالعمارة وبالفنون وبالتقنيات الرقمية

حول معضلة تعليم العمارة في العالم العربي

المعمار: د. إيلي حداد *

عميد كلية العمارة والتصميم في الجامعة اللبنانية الأميركية LAU بيروت

في قراءتي لكتاب للانتروبولوجي فرانكو لا سيكلا، الذي يحمل عنواناً بليغاً وهو: «ضد العمارة»، لفتني هذا المراقب الذي يتخذ من المدن مجالاً لدراسته الى حقيقة مزعجة لنا نحن المعماريين، ألا وهي فشل العمارة، إن كانت تابعة للنمط الحداثي أو ما - بعد - الحداثي أو التفكيكي أو الرقمي أو غيرها من الانماط المعمارية، في صياغة مدن أو مواطن جديدة تتمتع بكل الخصائص التي جعلت من المدن التاريخية أماكن "حية" يمكن تطوير أسس الاجتماع الانساني فيها، أي الأسس السليمة للاقتصاد والاجتماع والسياسة، فيما تئن مدننا تحت ثقل مشاكل إجتماعية وسياسية وإقتصادية لا يمكن وضع الملامة فيها على الاطار المدني وحده، لكن لا يمكن أيضاً فصل هذا الاطار عنها كلياً. وإذا انطلقنا من هذه المسلمة، يمكننا الدخول الى مسألة تعليم العمارة في العالم العربي، التي تعاني بدورها من تخبط بين نماذج مختلفة، معظمها مستوردة من الغرب، إيطالي، فرنسي أو أميركي.

يمكننا في البدء أن نشير الى غياب الارضية النظرية التي يمكنها أن تشكل الأساس لتطوير نظريات معمارية عصرية أو لتأسيس «ثقافة نقدية» محلية (discourse)، تتفاعل مع القضايا التي يواجهها المعماريون في مختلف البلدان العربية. وقد يعود هذا الامر الى حقيقة تاريخية لم يكن العرب الوحيدين من ضحاياها، بل تمتد الى باقي البلدان النامية، ألا وهي تطور المراجع الأساسية في العمارة خارج الاطار الطبيعي لهذه البلدان، وقد إنتقلت من إيطاليا الى فرنسا الى ألمانيا فالولايات المتحدة الاميركية ضمن إطار «يورو - سنتري»، أي مرتكز على الثقافة الغربية التي تطورت في الغرب منذ عهد النهضة بالترافق مع تطور إقتصادي وتكنولوجي رافق نمو العصر الصناعي وجعلها تطغى على الحضارات الاخرى لأكثر من ثلاثة قرون.

لكن بعض البلدان النامية في آسيا، وبعضها الآن في أفريقيا، بدأت مؤخراً في تخطي هذه العقدة التاريخية لتطرح منهجيتها الخاصة المبنية ليس فقط على التكنولوجيا المستوردة من الغرب، وإنما أيضاً على عملية إعادة إكتشاف وتأويل واجتهاد في ثقافتها المعمارية الخاصة، وهذا ما أنتج مثلاً في الصين مثالاً يحتذى به في أعمال المعماري وانغ شو، الذي حاز على جائزة بريتزكر العام الماضي، كما اننا بدأنا نرى بعض النماذج الناجحة مؤخراً في الدول الافريقية النامية حيث تشكل العوامل الاقتصادية الضاغطة

وانغ شو: منزل خاص في نينغبو

حوافزاً لإبتكارات تتعاطى مع هذه العوامل بشكل إيجابي.

يحدث هذا في بلاد الآخرين فيما الحضارة العربية التي أنتجت روائع الاندلس كما روائع الامويين والعباسيين والمماليك لا زالت اسيرة في مناهجها التعليمية لفكر هندسي يعتبر العمارة في أكثر الاحيان مجرد مهنة تابعة للهندسة المدنية، تختصر بتعليم الطالب لتقنيات البناء إضافة الى تقنيات التصوير (visual representation) دون إعطاء أية أهمية لمواضيع أخرى مثل الثقافة المعمارية، نظريات العمارة وتاريخها والأهم من كل ذلك دون التركيز على إحدى خصائص المعماريين القدامى ألا وهي القدرة على البحث والنقد الفكري ومراجعة الذات.

إن وضعنا المدني المستنزف، في لبنان كمثال، لا يعود فقط الى هذا الفقر في الثقافة المعمارية، مع أن هذا الفقر يؤدي بالطبع الى إستسهال المراجع الادارية والسياسية والاقتصادية لعملية إستغلال المدينة وتقطيعها بحسب مصالحهم، في غياب أي رادع ثقافي وأخلاقي، كانت المهنة تشكل في الماضي عموده الفقري. بل هو يرتبط أيضاً بعوامل سياسية وإقتصادية وأجتماعية يتجاهلها المعماريون في خضم التنافس على المشاريع ومحاولة الاستمرار في اللعبة الاقتصادية الانتاجية، دون التوقف عند البعد التاريخي للعمارة ودورها في تكوين الاطار الصالح للحياة الاجتماعية المتوازنة.

في إحدى مقالاته المعنونة «الفلسفة العربية المستحيلة» تناول المفكر جورج طرابيشي بعض أسباب تعثر الفكر العربي المعاصر في إنتاج فلسفة عصرية ومنها تقلص دور العقلانية التي تشكل، بنظره، الأساس في تطوير أي فلسفة وفكر حديث[1]. إنني بالطبع أوافق على ضرورة المرور عبر هذه المرحلة الأساسية في تطوير فكر معاصر، إلا أنني لا أراها كهدف نهائي للعملية التنويرية. فالعقلانية، كما أظهر لنا مفكرو مدرسة فرانكفورت، وبعدهم مفكرون آخرون من أمثال ميشال فوكو وجاك دريدا، من دون أن ننسى الدور الذي لعبه قبلهم الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر، كل هؤلاء نبهوا الى مخاطر السقوط في الثقة المطلقة بهذه المنظومة التي كانت إحدى إفرازاتها، كما ذكّرنا هوركايمر وآدورنو، الحرب العالمية وما نتج عنها من مآسي في عالمنا العربي بالذات. والعقلانية في النظريات المعمارية كان لها ايام عز قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، كما سنرى بعد قليل، إلا أنها لم تعطِ النتائج المرجوة، مما أدى الى نشوء حركات تصحيحية مختلفة. لكنني لست هنا، وأنا شخصياً نتاج ثقافة متعددة ومختلطة شرقية وغربية، وأدرّس في جامعة تتبع المناهج الاميركية، في وارد الدعوة الى التقوقع أو الانعزال ثقافياً، أو الحنين اليائس الذي ينحو نحو «أصولية» معمارية تحلم بإعادة إحياء عصر الامويين أو العباسيين. لكن في الوقت ذاته لا يمكننا أن نتجاهل الامثولات التي يحملها لنا التاريخ وأهمها أن استنباط ثقافة محلية راشدة لا يمكن أن يأتي عبر الاستيراد الاعمى واللا - نقدي، بل يأتي فقط عبر تفاعل حضاري وثقافي بين المكونات الخاصة لثقافة محلية وبين التأثيرات الخارجية بعد أن يتم تحليلها واستخلاص مبادئها وركائزها.

في إحدى مقالاتها حول تاثير الاستعمار الغربي على الواقع المعماري وحول ضرورة إستقصاء تأثيراته في مجال العمارة، أشارت الباحثة هيلدا هاينن الى ضرورة إعادة النظر في كل المفاهيم الفكرية، ومنها مفهوم «الحداثة»، لكن دون إغفال حقيقية أساسية، وهي أن الحداثة كمشروع كان له جانب إجتماعي إيجابي يسعى الى بناء مجتمعات أفضل، ومن هنا كان بإمكان العديد من المجتمعات النامية إعادة تأطيره للإستفادة منه[2]. وما تقوله هاينن عن الحداثة كمشروع عام يمكننا تطبيقه على مسألة التعليم المعماري كإحدى رواسبه. فهنا أيضاً يمكننا الاستفادة من التجارب المعمارية في الغرب دون الوقوع في فخ النسخ والتقليد الاعمى الذي يفقدنا العمق التاريخي الذي هو جزء من تراثنا المعماري والثقافي.

عن التجربة الاميركية في تعليم العمارة

من هذا المنطلق يمكننا أن نقرأ التجربة الاميركية في القرن العشرين والتي انتقلت هي بدورها من طور التقليد، حيث كانت كليات العمارة بأجملها، والضئيلة العدد في وقتها، من كليات تتبع المنهاج الفرنسي لتعليم الفنون الجميلة (Beaux Arts) الى مراكز إختبار إستفادت من هجرة الادمغة والكفاءات الاوروبية قبل الحرب العالمية الثانية لينتج عنها النموذج الاميركي المعاصر الغني بالتيارات المعمارية المختلفة، والذي يرتكز على أربعة مكونات أساسية:

- إطلاق حرية البحث والنقد كأساس لتطوير فكر معماري معاصر.
- تشكيل كليات معمارية مختلطة من الباحثين والاكاديميين والمعماريين الممارسين.

- إنشاء مؤسسات ثقافية متخصصة ومستقلة يمكنها متابعة المناهج التعليمية.
- دعم الابحاث العلمية كما الدراسات التاريخية والنقدية من أجل تأسيس ثقافة معمارية.

هنا لا بد من الاشارة بأن المؤسسات بحد ذاتها قد تكون موجودة عندنا في إطار وطني أو إقليمي، إلا أن هذا لا يضمن النتيجة المرجوة من النجاح ما لم تقترن هذه بجو سياسي عام يحفز الانفتاح والشفافية والتنافس الايجابي، أي ضمن ثقافة «حداثية» بكل ما للكلمة من معنى. فالحداثة لا تكمن في استيراد ديكور خارجي من الاشكال المعاصرة، بل في تطبيق جدي لمبادىء جوهرية تتصل بالحرية المطلقة في التفكير والنقد والمعارضة والاختبار.

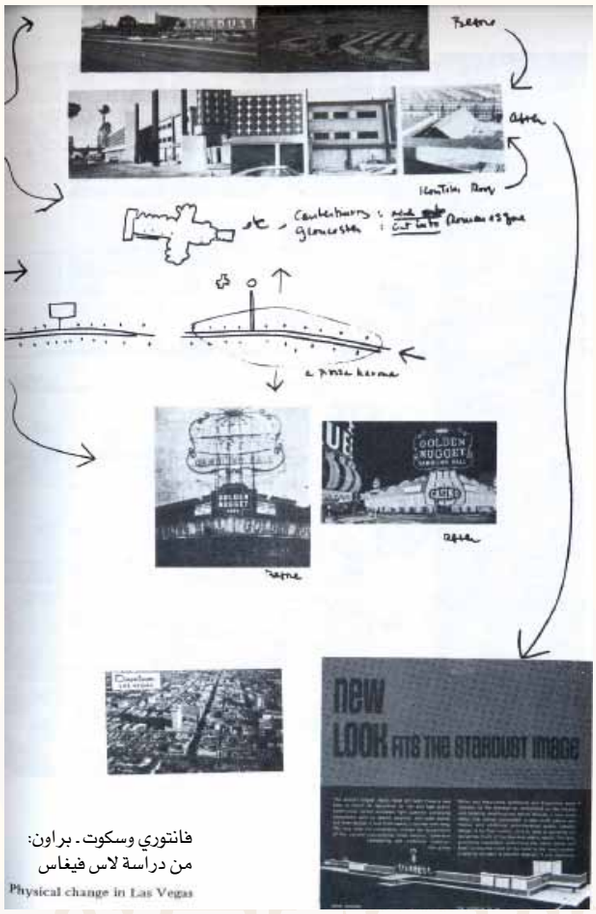

فانتوري وسكوت - براون:
من دراسة لاس فيغاس
Physical change in Las Vegas

هنالك أمر آخر لا يمكن تجاهله إذا ما أردنا فهم التطور الفكري الاميركي الذي حصل خاصة في القرن العشرين والذي أدى الى تطور مرافق في التعليم الجامعي. بالطبع إرتكز التطور العلمي الجامعي في أميركا ككل على إمكانيات إقتصادية وتكنولوجية واسعة بدأت منذ القرن التاسع عشر، لكن بموازاة ذلك تم تطوير الغلاف الحيوي لهذه النشاطات الفكرية وذلك من خلال الاهتمام بالاطار الحيوي للتعليم الجامعي، أي الـ Campus، المخيم أو المستوطنة التي تؤمّن بعزلتها النسبية عن محيطها، مكاناً ملائماً لتطور الفكر النقدي والاختباري. هذه الاستقلالية الخاصة بالمكان الجامعي لا زلنا نشهد عليها لغوياً بإستعمال مصطلح «الحرم الجامعي»، في الوقت الذي نعرف بأن الحرم الجامعي في بلادنا، وإن وجد، يكون في معظم الاحيان مخترقاً من قبل سلطات الامر الواقع، أكانت ملكية أو ديكتاتورية أو حتى ديمقراطية. إن التخلف بحد ذاته يرتبط بشيء أساسي ألا وهو الخوف: الخوف من إنتقاد السلطة أو المراجع أو المحرمات. الخوف من المحرمات هو ما يعيقنا من الدخول فعلاً في الحداثة. وهذا ما يترجم ايضاً في إطار جامعاتنا وكلياتنا الى سيطرة فكرة المعلم المعصوم عن الخطأ، مما يكرّس النموذج السلطوي الابوي الذي تأسس عليه المجتمع.

الحرم الجامعي في أميركا تطور من مجموعة أبنية متجاورة، كما تشهد الكليات الاولى مثل هارفرد ويال وبرنستون، الى بلدات جامعية متكاملة تتميز بإطار طبيعي وتعددي يسمح بتطور فكرة الحرية الفردية. وقد لعبت الدولة المركزية دوراً مهماً في تطوير هذه الفلسفة الجامعية من خلال إنشاء مجموعة من الجامعات الحديثة بعد الحرب العالمية الثانية لإستيعاب الجنود العائدين من الحرب والمستفيدين من قانون التعليم المجاني. هذا كله ضمن إطار راعى حرية الفكر وعدم تدخل السياسة في الامور الاكاديمية، وهو عكس ما تشهده حالياً الجامعات العامة في بلداننا، حتى تلك التي نشأت على المبادىء الليبرالية ذاتها التي نراها في الغرب.

النموذج الاميركي في تعليم العمارة كان وضعه في بدايات القرن العشرين كوضعنا اليوم، إذ كان مرتهناً بما يحصل في المرجع الأساسي، أي في مدرسة الفنون الجميلة في باريس. لقد أخذت رحلة التحرر من هذا النموذج الاوروبي حوالي خمسة عقود أو أكثر لمعظم كليات العمارة في أميركا - التي كانت قليلة العدد في وقتها - بحيث برز تياران مضادان، واحد يدعو الى التمسك بالنموذج الاوروبي من باب إحترام التاريخ والتقاليد، وآخر يدعو الى التحديث والبحث عن نماذج جديدة لتعليم العمارة، تحاول فيها البرامج التطرق الى الواقع الحالي من حيث مواضيع التصميم كما إستعمال التكنولوجيا الحديثة. وقد كانت الغلبة للتيار الداعي الى التحديث والتطوير، فيما لم يبق الى اليوم سوى كليات معدودة لا تزال تتبع المنهاج العلمي القديم. وقد ساعد في تطور هذا النموذج الاميركي التعددي عدة عوامل منها ما هو سياسي ومنها ما هو إقتصادي وإجتماعي، إذ أعطت الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية عدة حوافز لإنطلاقة التعليم الجامعي بشكل عام في مختلف الولايات، مع زيادة في الانفاق العام على التعليم الجامعي والابحاث العلمية، بهدف المنافسة مع الاتحاد السوفياتي. وقد أعطى ذلك دفعاً خاصاً للكليات المعمارية التي إنتهجت منحى

علمي/تقني على حساب تلك التي كانت تأخذ طابعاً إنسانياً إجتماعياً. كانت هذه الفترة، ما بين ١٩٤٥ و ١٩٧٠ الفترة الذهبية للمعماريين ذوي النزعة التكنوقراطية، بحيث طغت المنظومات الفكرية العقلانية على المفاهيم الاخرى، مستندة الى النظام الصناعي العسكري الاميركي الذي اثبت تفوقه في الحرب. من هنا أشار بعض الباحثون الى دخول مصطلح «العملية التسلسلية» (process) في حينها الى مناهج العمارة ليحل مكان مصطلح الـ «concept» أو الـ «parti» الوافد من التجربة الفنية لمدرسة الفنون الجميلة في باريس. لكن طغيان هذا المفهوم الجديد لم يكن ليدوم طويلاً مع تبدل في الجو العام، ناتج عن تغيرات سياسية، لتنزع عن العقلانية التكنوقراطية وهجها، مضافة اليها تغيرات إجتماعية نتيجة فشل النظريات الحداثية خاصة في مجال تصميم المدن والسكن الاجتماعي، والتي أثبت تطبيقها بعد الحرب في ضواحي المدن الكبرى مثل نيويورك وشيكاغو وفيلادلفيا وغيرها، عن فشل سوسيولوجي. من هنا بدأت تظهر في أواخر الستينات، بالتزامن مع حركات الاحتجاج الطلابية، نواة مناهج تعليمية جديدة تطمح الى استيعاب النظريات الاجتماعية المعاصرة ضمن مناهج معمارية جديدة، يكون فيها للاختبارات العلمية ذات المنحى السوسيولوجي دور أكبر، مما دفع بعض كليات العمارة الى تبديل إسمها الى كليات التصميم البيئي (environmental design)[٣].

كانت فترة الستينات إذاً زاخرة بالافكار والتيارات الجديدة، وقد برز الشاب روبرت فانتوري حينها، بكتابه الذي أصدره «التعقيد والتناقضات في العمارة»[٤]، كأحد أبرز المنادين بإعادة صياغة لغة معمارية جديدة لا تكون مبنية على الطلاق مع التاريخ، كما كانت الحداثة الاولى، بل تستمد أمثولاتها من التجارب الانسانية كلها عبر التاريخ. وما لبث فانتوري، بعد تعرفه على شريكة حياته الباحثة دنيز سكوت براون أن أضاف الى برنامجه ركناً آخر يتمثل بالبعد السوسيولوجي، فاشتركا معاً مع مجموعة تلامذة من كلية يال، في رحلة دراسية الى لاس فيغاس، عاصمة ألعاب الحظ والمدينة الاصطناعية بإمتياز، حيث وضعا دراسة ريادية عن دور العمارة في مدينة تشكّل تجربة فريدة يطغى فيها المجتمع المشهدي.

في هذا الوقت، كان معماري وباحث آخر يبدأ مشواره الاكاديمي الاختباري في كلية بركلي على الضفة الاخرى من الولايات المتحدة، مؤسساً لتيار راديكالي يبحث عن الجذور الاصلية للمفاهيم المعمارية عبر العصور. كان ذلك الشاب كريستوفر آلكساندر وقد أسست كتاباته التي إنطلقت من بدايات عقلانية ماتيماتيكية لتتحوّل في ما بعد الى فينومنولوجية راديكالية، لنشوء تيار من المؤمنين بنظرياته الفلسفية، المنتفضة على كل أشكال العمارة «المؤسساتية» ومنها العمارة الوظيفية. وقد كان لأفكار آلكسندر ترددات في مختلف أنحاء العالم مروراً بمنطقتنا حيث نادى البعض بالعودة الى الاصول والى إعادة إكتشاف «الطريقة الازلية للبناء». في معظم كليات العمارة الاخرى، تطورت أشكال أخرى من الوعي الاجتماعي ـ السياسي في تلك الفترة، ناجم عن تعاظم المشاكل الاجتماعية كما عن التدخل الاميركي في فييتنام، وقد ترجم هذا الوعي بولادة نوع جديد من المواضيع المعمارية، يتطرق الى قضايا أكثر واقعية من دراسة ضواحي فقيرة الى أحياء داخل المدن وطرح خطط لإعادة إحيائها أو لمعالجة مشاكلها. هكذا تحوّل التصميم المعماري من مسألة جمالية لا تخضع الى مساءلة الى قضية ثانوية أمام الاعتبارات السوسيولوجية أو المدنية وقد تمحورت بعض هذه الاختبارات ضمن إطار نشاطات تجمع بين الاخصائيين وبين الاهالي المعنيين بشؤون المنطقة قيد الدرس، في ما يسمى community design workshop أو «المختبرات التصميمية الاجتماعية».

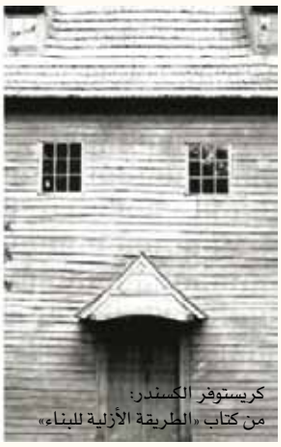

كريستوفر الكسندر:
من كتاب «الطريقة الأزلية للبناء»

ترافق عودة التيار المحافظ الى الحكم في أوائل الثمانينات مع الموجة الجديدة التي إكتسحت أميركا وأوروبا والمعروفة بموجة ما ـ بعد ـ الحداثة (post modernism). كان فانتوري لا يزال أحد أركان هذه "الحركة التصحيحية" للعمارة الحداثية، وقد إنضم اليه العديد من المعماريين البارزين من أمثال مايكل غريفز وفيليب جونسون وروبرت ستيرن وشارلز مور. وقد تحولت هذه الحركة التي بدأت كردة فعل على مبدأ «الوظيفية» وعلى تجاهل التاريخ والتراث المعماري، الى مشروع نخبوي في أكثرية الاحوال، بحيث ترجمت الى أعمال «راقية» أعادت العمارة الى عرشها السابق.

في مواجهة هذه الموجة العارمة أسس بيتر آيزنمان حركة معارضة إرتكزت على الافكار الفلسفية المستوردة من حقل اللغويات (linguistics) متخذاً من نعوم شومسكي مرجعاً في المرحلة الاولى لإختبارات وضعت العمارة في نطاق لغوي يخضعها لعملية

تحليلية وتركيبية، ومن ثم في مرحلة لاحقة إرتكز آيزنمان على نظريات جاك دريدا التفكيكية ليضع العمارة هذه المرة تحت مجهر النقد الذاتي. شكلت هذه الاختبارات، مضافة اليها حركة أيزنمان الثقافية وإنشائه مركزاً للدراسات المعمارية في نيويورك ومجلة مخصصة للنظريات النقدية، إحدى ركائز تطور المنحى النظري في العمارة والذي وصل الى درجة من الاستقلالية بحيث أصبح على طلاق مع الجانب العملاني للمهنة. وبالرغم من أفول النظرية التفكيكية التي لاقت رواجاً كبيراً في فترة الثمانينات وحتى منتصف التسعينات، إلا أنها قد أثمرت نظريات أخرى تفرعت منها، وإن لم تعد تحتوي على القدر ذاته من الفكر النقدي، ومنها على سبيل المثال النظريات الرقمية أو ما يعرف بالـ «parametric design». إضافة الى هذه الأسماء البارزة التي رسمت ملامح الفكر المعماري والمناهج التعليمية المتنوعة في أميركا، كان هناك العديد من الأسماء الاخرى التي أثرّت بشكل أو بآخر في نشوء تيارات معمارية ثقافية مختلفة مما جعل الولايات المتحدة حتى يومنا أحد الحقول التعليمية الأكثر غنىً في العالم.

الوضع المعماري الثقافي في العالم العربي

إذا ما قارنا هذا التنوّع والتعدد في المشارب والافكار بوضعنا العربي العام، يمكننا أن نعي حجم المشكلة التي نواجهها، حيث يسود العالم العربي، بغناه الثقافي والتاريخي، شيء من الكساد في الفكر الثقافي المعماري المعاصر، تشهد عليه ضآلة المنشورات وغياب المناظرات و«المعارك» الثقافية التي كانت ولا تزال تسود في الجامعات الاميركية. هذا إضافة الى ضآلة الكليات الجامعية التي تشكل «مدارس معمارية» بكل ما للكلمة من معنى، أي مراكز لتطوّر دراسات وإتجاهات معمارية ذات نكهة خاصة ومحددة، تجتمع حولها مجموعة من المعماريين والاكاديميين. فمعظم الكليات الجامعية في العالم العربي لا زالت تقع تحت تأثير منهاجين أساسيين: الاول يعتبر «الوظيفية» والتقنية البحتة كمشروع نهائي، والثاني يرى في النزعة المـا ـ بعد ـ حداثية جواباً ناجزاً وكاملاً لمسألة الهوية والتراث وكيفية التعامل معهما ضمن إطار عصري. وهذان المنهاجان يشكلان بنظري، مجرد وجهان لعملة واحدة تختصر مسألة العمارة بتحجيمها الى دور خدماتي ضمن الدورة الاقتصادية، بحيث يتم تجريدها كلياً من أي بعد ثقافي ونقدي. أما إذا راجعنا العقود الاربعة الماضية، فيمكننا تحديد بضعة مفكرين أكاديميين حاولوا إختراق هذا الجمود الاكاديمي في تعليم العمارة، وأخص منهم ثلاثة، بحسب معرفتي الخاصة، وهم رفعة الجادرجي، عاصم سلام ورهيف فياض.هذا بالطبع لا يشمل عدداً واسعاً من الاكاديميين المعنيين بدراسة تاريخ العمارة، إلا أنني هنا أتكلم عن المنحى النظري وعن الذين حاولوا التركيز على أهمية العمارة كجزء من مشروع تحديثي ثقافي وإجتماعي وسياسي.

هكذا، كان للمفكر رفعة الجادرجي العديد من الكتب والمنشورات التي حاول من خلالها تكوين حديث معماري معاصر (discourse) ينهل من التجارب التاريخية على مر العصور ومن كل الامكنة دون تجاهل التجارب التاريخية والحديثة في العالم العربي.

وكما كان يؤكد الجادرجي، فإن فنّ العمارة مرتبط بواقع محيطه وليس عليه بالتالي أن يكون تبعياً لأشكال العمارة التي تظهر في الغرب، بل عليه أن يلعب دوره كأحد الأسس للاجتماع حيثما ينشأ. لكن العمارة أيضاً بنظره لا يمكن أن تبقى خارج تحولات العصر وإنجازاته وأن تقفل باب الاجتهاد والتأويل والابداع.

نظرية المعماري الراحل عاصم سلام تلتقي الى حد بعيد مع أفكار الجادرجي، بحيث يشكّل البحث النقدي عن عمارة تناسب محيطها وتراثها أحد الأسس للعملية التصميمية دون إغفال ضرورة التعامل مع المتغيرات التكنولوجية والمعمارية. وقد يكون الدور الاهم الذي حاول عاصم سلام أن يلعبه هو تأسيس حركة مقاومة معمارية لما يسمى بعملية «التطوير العقاري» التي نجحت في القضاء على جزء كبير من تراث مدينة بيروت في أقل من عشرين سنة، وهي عملية يشترك فيها المعماريون مع أصحاب الشركات العقارية وممثلو ما تبقى من سلطات بلدية، في مثلث يصعب إختراقه.

أما الاستاذ رهيف فياض، فقد شكلت كتاباته ومنشوراته، كما مقالاته الصحفية المستمرة، علامة فارقة في محيط يفتقر الى الفكر المعماري، وهي في جوهرها، تدور حول إشكالية الحفاظ على الهوية الثقافية للعمارة في وجه العولمة الزاحفة على كل مكان. والمثير للاهتمام هو ظهور عدد من الزملاء في الغرب، يأتون من أقطار عربية مختلفة، وقد إنخرطوا في الاطار الثقافي الغربي وأصبح لهم منشورات عديدة، إلا أن هذه كلها تنحصر ضمن هذا الاطار الغربي وكأن الثقافة العربية مقفلة أو غير ملائمة لنشر هذه الافكار.

تواجه الثقافة المعمارية في العالم العربي مشكلة أخرى تتمثل في نزوح بعض الكفاءات لممارسة البحث النظري والنقدي للعمارة، لكن ضمن أطر غربية محددة، نتيجة عاملين أساسيين: الاول هو ضآلة المنشورات في العالم العربي والثاني إستسهال النشر، أو حتى التفكير، من خلال اللغات الغربية، وهذه معضلة أساسية. في مواجهة هذا الوضع نجد إنكفاءً تاماً من قبل المؤسسات الثقافية في العالم العربي، الخاصة منها والرسمية، في رسم خريطة طريق إنقاذية للحد من هذا الاحباط الذي تواجهه اللغة العربية، وخاصة في المجالات العلمية.

المؤسسات الثقافية المعمارية في أميركا

أريد أن أعود هنا الى مسألة المؤسسات الثقافية المعمارية في اميركا. إن التفاعل الجدلي شكل أساس تطور الفكر الجامعي المعماري في أميركا بحيث برزت مواقف ومواقف مضادة كما رأينا، وقد تلقف بعض المسؤولون والاداريون باكراً ضرورة إنشاء هيئة تكون وظيفتها تأطير هذه النشاطات الاكاديمية كما النظر في مسألة تعليم العمارة، فتأسست في العام ١٩١٢ رابطة كليات العمارة الاميركية (ACSA) التي كان لها دور فعال وأساسي في تأطير هذا البحث وتنظيم المؤتمرات والندوات التي من شأنها الوصول الى دراسات علمية ومجردة تنظر الى الواقع كما هو وتستخلص العبر والخطوات التالية. أشير هنا الى أن هذه الرابطة كانت مستقلة منذ نشوئها عن مؤسسة المعماريين الاميركيين (AIA) المشابهة في إطارها ومهمتها لهيئة المعماريين العرب. في المؤتمر السنوي الاخير لهذه الرابطة، كان لافتاً التركيز على أفكار مستقبلية قد تحدد الاهتمامات المعمارية في العقود القادمة، وخاصة مسائل تتعلق بالتغيير المناخي وإستبدال مصادر الطاقة، كما بأحدث التكنولوجيات المستعملة في البناء. إضافة الى ذلك خصصت حلقة خاصة بالتعاون مع الهيئة الوطنية للإعتماد الاكاديمي (NAAB) التي تهتم بتصنيف الكليات المعمارية ومنحها الاعتماد الاكاديمي، وهي هيئة منفصلة منبثقة في الأساس عن مؤسسة المعماريين الاميركيين. تحافظ كل من هذه المؤسسات على إستقلاليتها الادارية لكن يتم التعاون بينها في سبيل تطوير المهنة ومعالجة المشاكل التي تواجه العاملين فيها.

العمارة الما ـ بعد ـ حداثية كعمارة نخبوية: مجمّع «سيسايد» في فلوريدا

هنا تجدر الاشارة الى أن المؤتمر السنوي، والمخصص للاداريين وعمداء الكليات المعمارية، ليس سوى حلقة واحدة من مجموعة مؤتمرات تنظمها رابطة كليات العمارة سنوياً، وتتمحور كل واحدة منها حول مسألة أو موضوع معين، بحسب المنحى والاتجاه الذي يضعه المسؤول عن تنظيم المؤتمر، والذي يتغيّر مع كل مؤتمر. تساهم هذه المؤتمرات، بتعدديتها الفكرية والجغرافية، بتنمية ونشر التعددية الثقافية في تعليم العمارة.

خلاصة

إن المشاكل التي تواجه العمارة في العالم العربي ليست مختلفة كثيراً عن تلك التي تواجهها في أميركا وأوروبا، ومن هنا تكمن أهمية المقاربة النظرية بين وضعنا هنا والاوضاع المهنية والاكاديمية في تلك الاقطار. فالمقاربة لا يجب أن تكون بهدف تدجين «العمارة العربية» وجعل المناهج التعليمية عندنا متطابقة مع مناهج التعليم هناك، بل من أجل الوصول الى تشخيص أفضل لمواضع المشكلة، كما الاستفادة من خبرات أخرى في هذا المجال.

ففي أوروبا وأميركا أيضاً، تواجه الكليات المعمارية على سبيل المثال: مسألة الثقافة الرقمية وتحدياتها، العلاقة بين التعليم الجامعي والممارسة المهنية، دور المعماري في المجتمع، وغيرها من القضايا التي نواجهها أيضاً. لكن الاختلاف يكمن في كيفية التعاطي مع هذه القضايا. ففي تلك المجتمعات، تم تطوير الثقافة النقدية والمختبرات البحثية، كما أشرت سابقاً، بالترافق مع تطوير المؤسسات المعنية بالرقابة والمساندة لهذه النشاطات، بحيث تصبح هذه جزءاً من العملية التطويرية المستدامة للمشروع التعليمي. في إحدى محاضراته حول هذا الموضوع، أكّد الناقد والباحث المعماري ستانفورد آندرسون على ضرورة المحافظة على دور البحث العلمي والنقدي في كليات العمارة، بتلازم مع التعليم التقني للمهنة، مشدداً على أهمية العمارة كمجال معرفي، وليس فقط كمهنة. وختم محاضرته بالقول:

«أرى المجال المعرفي كبيئة منفتحة ومحررة. إنها المكان حيث يمكن التفكير بكل ما قد يبدو غير ملائم أو رؤيوي، أو بعيد عن الواقع أو التحقيق. أرى المجال المعرفي كمجال يحفّز الجميع على المشاركة، وخاصة اللا ـ مهنيين: من محافظين على التراث، مؤرخين، مهندسين، بنائين، جمعيات مدنية وغيرها» ٥.

هذا الموقف يؤكد بأن الدور الثقافي والنقدي للعمارة بتعرض لمساءلة وضغوط دائمة ومستمرة وخاصة في العقدين الاخيرين حيث سادت منظومة العولمة الاقتصادية مخترقة حتى أسوار الجامعات الكبرى، فارضة حديثاً فكرياً جديداً يقتبس مفرداته ومفاهيمه من اقتصاد السوق. وهذا ما يؤكد بأن المشكلة لا تقتصر فقط على عالمنا العربي، وإن كانت أكثر حدة في ظل طغيان المنطق الرأسمالي البحت الذي حوّل بعض دول المنطقة الى أمثلة باهرة في النجاح الاقتصادي، دون أن يعطيها بالطبع الاهمية التاريخية أو "الشرعية الثقافية" المرجوّة. وفي محاولتها لتقليد هذه النماذج البارزة إقتصادياً شرعت بعض دول المغرب العربي في سباق الانخراط في التحوّل الاقتصادي نحو العولمة، واضعة في معظم الاحيان تراثها المعماري والمدني في خطر. من هنا تزداد أهمية إعادة النظر في مسألة التعليم المعماري والمناهج المعمارية، لبث روح

الفكر النقدي فيها وإحياء مشاريع الابحاث العلمية والتاريخية.

لا تـزال العديد من المدارس الخاصـة أو الرسمية في عالمنا العربي تعتبر بأن المهنة هـي في النتيجة معرفة مهنية بحتة تتيح للمعماري العمـل ضمن النظام السائد، مـن دون اي دور آخر له في المشاركة الفعليـة في تطوير النظام السياسـي أو الاقتصادي، أو نقد للنظام الثقـافي السائد. مـن هنا يأتي السؤال: كيـف بإمكان إعادة النظر في مناهجنـا التعليميـة وكيـف بالامكـان الاستفادة مـن الخبرات المختلفـة الموزعة عـبر الاقطار العربيـة المختلفة؟ وهـل يكون أحد مداخل هذه المسألة مـن خلال تسليط الأضواء على نماذج ناجحة وعلى معماريين معاصرين رياديين في مختلف بلدان العالم العربي، أم عـبر تفعيل المنشورات الاكاديمية ورفـع مستواها؟ أم يكون عبر إنشـاء "رابطة كليات العمارة" في الـدول العربية، شرط أن تكون هـذه مستقلة عـن الانظمة وغير ملحقـة بأي مشـروع سياسي، بل يكـون هدفهـا البحث العلمـي عن السبـل الممكنة لتطويـر الأسس التعليمية المشتركة دون المساس بحرية التعليم أو التعددية الثقافية المشروعـة؟ وهـل يكون ذلك السبيـل الافضل لإعـادة الاعتبار الى المهنـة والى المعماري والمعمارية كأصحاب فكر، وليس فقط كمجرد موظفين ضمن ماكينة الاقتصاد العالمي؟

لم أتطرق في هذه المداخلة الى موضوع آخر أساسي في تعليم العمارة وهو: ما هي المواضيع التـي يجب أن يتطرق اليها المنهاج التعليمي، ومـا هـي المواضيع التي مـن الضـروري على أي خريـج من كليات العمارة أن يمر بها على الاقل مرة واحدة في خلال مرحلة الدراسة. وهـل يجـوز أن يبقى «الابـداع الشكلي» هـو الركيـزة الأساسية في تقييـم المشاريع المعمارية، في وقت بدأ يتضح لنا بأن مسألة الابداع إنمـا تقوّض الأسـس الاخرى للاجتماع الانسـاني، وتظهر نتائجها السلبية خاصة في المجال الحيـوي الاوسع للعمارة، ألا وهو المدينة. لكن هذه الاشكالية موضوع آخر، وإن شاءت الظروف، لمؤتمر آخر.

(Endnotes)

١. جـورج طرابيشي: هرطقات: عن الديمقراطيـة والعلمانية والحداثة والممانعة العربية. دار الساقي، ٢٠٠٦ (٦١).

2. Hilde Heynen. "The Intertwinement of Modernism and Colonialism: a Theoretical Perspective" in Docomomo. issue 481/2013- (p.1019-).

3. 3 Joan Ockman. ed. Architecture School: Three Centuries of Educating Architects in North America. MIT Press. 2012.

4. Robert Venturi. Complexity and Contradiction in Architecture. NY: Museum of Modern Art. 1966.

5. Stanford Anderson. "The Profession and Discipline of Architecture: Practice and Education. in The Discipline of Architecture. Univ. of Minnesota Press. 2001

* القى المحاضرة بالنيابة عنه: الدكتور عبدالله كحيل

نموذج عن منهج «التصميم الرقمي»

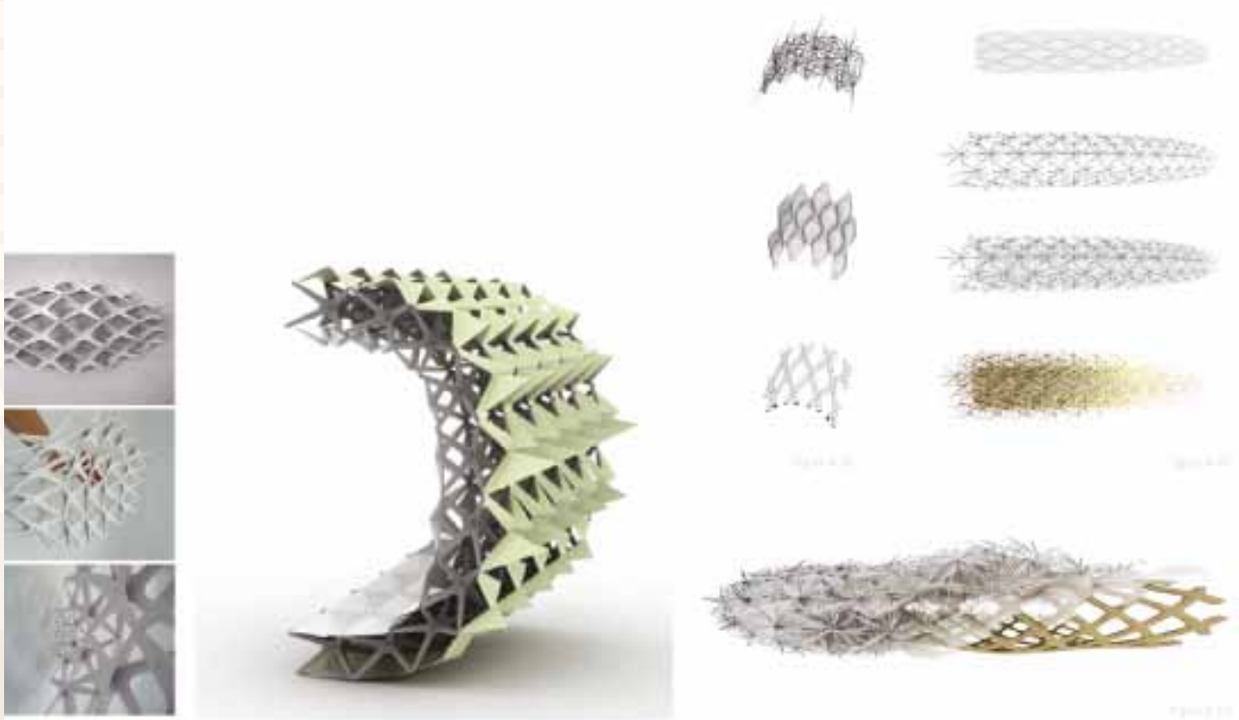

اليوم الثاني؛ المحور الرابع: تعليم العمارة في الوطن العربي في ظل العولمة، وعلاقته بالعمارة وبالفنون وبالتقنيات الرقمية

مأسسة التعليم المعماري في الأردن وتطور مرجعياته

المعمار: د. نظير أبو عبيد

رئيس الجامعة الألمانية الأردنية، عمان

ثلاث قصص معمارية

١- لجنة معادلة الشهادات في نقابة المهندسين الأردنيين.

٢- دراسة التجسير ما بين التعليم الجامعي و سوق العمل.

٣- الاعتماد الدولي لقسم الهندسة المعمارية في جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية.

دراسة لجنة الشعبة المعمارية في نقابة المهندسين

في العام ٢٠٠٧ شكلت لجنة برئاسة د. نظير ابو عبيد وعضوية رؤساء أقسام العمارة في الجامعات الأردنية الرسمية و بعض الجامعات الخاصة، لغرض وضع معايير للتمييز ما بين تخصصي العمارة والهندسة المعمارية

درست اللجنة برامج درجتي البكالوريوس في العمارة وفي الهندسة المعمارية في عدة دول و مناطق جغرافية في العالم، حيث خلصت الدراسة الى ما يلي:

- ضرورة ان يكون الحد الأدني من الدراسة في تخصص العمارة لاغراض ممارسة المهنة هو (٥) سنوات وما لايقل عن (١٦٠) ساعة معتمدة.
- ضرورة ان يكون الخريج في تخصص العمارة قد ألم بمجموعة من العلوم والمعارف.
- ضرورة أن يكون الحد الادنى من الدراسة في تخصص الهندسة المعمارية لاغراض ممارسة المهنة هو (٤) سنوات وما لايقل عن (١٢٥) ساعة معتمدة.
- ضرورة ان يكون الخريج في الهندسة المعمارية قد ألم بمجموعة من العلوم المعارف.

تخصص العمارة (Architecture) :

ويكون مسمى المنتسب لهذا التخصص (معماري) وتكون مهامه الأساسية كما هو مبين بالتعريف الخاص بالمعماري، وتعادل شهادته حسب المعايير الخاصة بتخصص العمارة والمقرة من قبل الشعبة.

تخصص الهندسة المعمارية (Architectural Engineering):

ويكون مسمى المنتسب لهذا التخصص (مهندس معماري) وتكون مهامه الأساسية كما هو مبين بالتعريف الخاص بالمهندس المعماري وتعادل شهادته حسب المعايير الخاصة بتخصص الهندسة المعمارية والمعتمدة من قبل الشعبة.

- لا يجوز لأي منتسب بحمل اللقبين في نفس الوقت أو ممارسة مهام التخصصين في نفس الوقت
- يوصى لمجلس الشعبة المعمارية بأن يكون رئيس الاختصاص في التصميم من تخصص العمارة.
- يوصى لمجلس الشعبة بأن يكون رئيس الاختصاص في الإشراف أو إدارة المشاريع من تخصص الهندسية المعمارية.

قراءة احصائية لممارسة مهنة العمارة في الأردن

- هنالك تدني كبير في نسبة المعماريين الذين يمارسون الإشراف على تنفيذ المشاريع (١٥٪)، رغم الحاجة الماسة لهم في هذه الممارسة
- هنالك تدني في نسبة المعماريين الممارسين للتخصصات التالية:
  - تخطيط المدن والتخطيط الحضري.
  - تنسيق المواقع والحدائق.
  - العمارة الداخلية.

مشروع مواءمة مخرجات التعليم العالي ومتطلبات سوق العمل

دراسة مخرجات تخصص الهندسة المعمارية

دراسة مخرجات تخصص العمارة

قراءة تحليلية في التعليم المعماري

التعليم المعماري في العالم العربي

- نظام البوزار الفرنسي (Beaux Arts)
- نظام الباوهاوس (Bauhaus)
- المنهجية الأمريكية (Methodologial)

إتسمت بدايات التعليم المعماري في العالم العربي بتبنيها المناهج الثلاثة السائدة في الغرب.

مناهج التعليم المعماري في الجامعات الأردنية

تعتمد الجامعات الأردنية بشكل عام على المنهج الأمريكي في التعليم والذي يقوم على نظام الفصول والساعات المعتمدة، وبشكل عام يشكل موضوع التصميم المعماري ومهاراته العمود الفقري لبرامج وتخصصات العمارة وهندستها في الجامعات الأردنية.

ويعكس هذا التركيز الهدف الأساسي للخريج وهو أن يكون قادراً على ممارسة التصميم المعماري في سوق المهنة.

حصرية هذا الهدف للتعليم المعماري واغفال الأهداف الأخرى وبما يخالف توقعات سوق العمل كان دائما اشكالية.

بدأت برامج التعليم المعماري في الأردن بانشائها أقسام للتعليم المعماري في كليات الهندسة ، بحيث تم طرح البرنامج تحت مسمى «الهندسة المعمارية» أو «هندسة العمارة»، ولكن منذ عدة سنوات و بسبب عدة عوامل منها الاعتماد الدولي، بدأت برامج التعليم المعماري بالاستقلال ضمن كليات خاصة بها في عدة جامعات أردنية رسمية و خاصة.

دراسة مخرجات تخصص الهندسة المعمارية

الدراسة

هدف الدراسة الرئيس هو تقصي مدى تجاوب التعليم المعماري في الأردن مع متطلبات سوق العمل.

أسئلة الدراسة الأكاديمية

- هل تمتلك المدارس المعمارية في الأردن المؤسسات اللازمة لإدارة وتطوير عملية تعليم معماري صحية وبناءة ؟
- هل تمتلك المدارس المعمارية الأدوات والمصادر التعليمية الضرورية لتاهيل الطلبة ؟
- هل بإمكان التعليم المعماري أن يتطور لينافس مستويات عالمية في النوعية و الجودة ؟

مصادر المعلومات

إعتمدت الدراسة على جمع المعلومات والآراء من الجهات والمصادر السبع (٧) التالية:

- رؤساء اقسام العمارة وهندسة العمارة في الجامعات الأردنية
- نقابة المهندسين الأردنيين / شعبة الهندسة المعمارية
- مسؤولو المؤسسات والشركات المعمارية والهندسية في القطاعين الخاص و العام
- المعماريون الممارسون في القطاعين الخاص والعام
- الطلبة المتوقع تخرجهم في الجامعات الأردنية
- الدراسات والأبحاث والمؤتمرات والندوات وورش العمل عن التعليم المعماري

منهجية الدراسة

تضمنت الدراسة المحاور التالية :

أ- المشكلات التي يواجهها الخريجون في ممارستهم المهنية

ب- الكفايات المرتبطة بادائهم

ج- الخطط الدراسية في الجامعات ومحتوياتها

د- البيئات التعليمية وكفاءتها

٥- الخبرات العملية ضمن العملية التعليمية

كما تم تحديد ثلاث عينات للدراسة من القطاعين الخاص و العام بالإضافة للطلبة المتوقع تخرجهم. وبعدها تم توزيع الإستبانات على العينات المنتقاة مع متابعة تعبئة الإستبانات بالشكل الصحيح من قبل كل مؤسسة مشاركة في الدراسة.

كما وتم عقد ورشتين منفصلتين مع مجموعتين إحداهما مجموعة من مسئولي القطاع المعماري الخاص و الأخرى من مسئولي القطاع العام.

تحليل المعلومات والاستنتاجات

المشكلات التي يعاني منها التعليم المعماري في الاردن:

- محورمؤسسية التعليم المعماري وتوجهاته
  - وجود معظم أقسام العمارة ضمن كليات الهندسة.
  - الخلط ما بين تخصص العمارة وتخصص الهندسة المعمارية.
  - التشابه الكبير فيما بين البرامج المعمارية وعدم طرح توجهات وتخصصات مختلفة في الجامعات المختلفة.
- محور أعضاء الهيئة التدريسية
  - عدم السماح للأكاديمي بممارسة المهنة في سوق العمل.
  - تدني مستوى كفاءة بعض الأكاديمين في التطبيقات العملية وعدم إلمامهم الكافي بسوق العمل.
- محور عملية القبول في التخصص
  - الإعتماد فقط على معدل إمتحان الثانوية العامة و عدم وجود إمتحان للقدرات والاستعداد في معظم الجامعات.
- محور العملية التعليمية
  - ضعف واضح في علوم هندسة البناء و تطوير التفاصيل المعمارية والرسومات التنفيذية وإدارة المشاريع والإشراف على تنفيذها.
- محورأعضاء الهيئة التدريسية
  - رفع النسبة المسموح بها من حملة الماجستير في احتساب عدد أعضاء الهيئة التدريسية لأغراض الاعتماد، على أن يركزعبئهم التدريسي على مجالات المهارات الأساسية من رسم و تعبير بصري وتطبيقات الحاسوب، بالاضافة للمساعدة في تدريس التصميم.

الجهات صاحبة العلاقة: هيئة الاعتماد والجامعات

  - السماح للممارسين من اصحاب الخبرات بالتدريس في الجامعات واعطاؤهم مميزات اعضاء هيئة تدريسية واحتسابهم لأغراض الاعتماد
  - ومن الممكن تعديل حساب العبء التدريسي لمساقات التصميم (مثلاً أن تحسب ١،٥ ساعة معتمدة لكل ساعتين اتصال في ستوديو التصميم بدلاً من احتساب ساعة معتمدة واحدة فقط كما هو حاصل الآن في معظم الجامعات الأردنية).

الجهات صاحبة العلاقة: الجامعات

  - فتح المجال امام الاكاديميين لممارسة مهنة العمارة والتصميم في السوق المحلي لتحقيق التجسير ما بين التعليم والممارسة ونقل الخبرات والمعارف بالاتجاهين مما يثري الطرفين ويساهم في رفع سوية أدائهما. ولاعطاء الطلبة الفرصة للتواصل مع الواقع المهني قبل التخرج.

الجهات صاحبة العلاقة: نقابة المهندسين والجامعات و التعليم العالي وهيئة الاعتماد

- محور قبول الطلبة في التخصص

تضمين امتحان للكفاءة والاستعداد ضمن متطلبات عملية القبول لتخصص العمارة، مع إعتماد هذه الإمتحانات من قبل مؤسسات التعليم العالي في الأردن.

الجهات صاحبة العلاقة: التعليم العالي وهيئة الاعتماد والجامعات

- محور العملية التعليمية

الجهات صاحبة العلاقة لهذا المحورهي الجامعات

  - العمل على ايلاء التدريب العملي للطلبة اهمية اكبر كماً ونوعاً. مثلاً يمكن زيادة فترة التدريب أو تكرارها لاكثر من مرة. كما أنه من الضروري الاهتمام بالتدريب في مواقع العمل والتنفيذ والإشراف بدلاً من الإكتفاء بالتدريب في المكاتب فقط.

الجهات صاحبة العلاقة لهذا المحورهي الجامعات

  - تأهيل الطالب للتعامل مع الاعتبارات الحضرية و التخطيطية والمحتوى المديني في التفكير المعماري و احترامها في عملية التصميم، هذا مع تثقيف الطالب بالابعاد الشمولية (الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية وغيرها) للتفكير الحضري.
  - الاحترام الواضح لمعايير الاعتماد من خلال رفع سوية البنية التحتية و توفيرأو تحديث التجهيزات اللازمة للعملية التعليمية،واحترام المعايير لعدد الطلبة في الاستوديو أو قاعة المحاضرات.

الجهات صاحبة العلاقة: هيئة الاعتماد والجامعات

  - العمل على فهم والاستفادة من المعايير العالمية التي تعتمد برامج الهندسة المعمارية التابعة لكليات الهندسة.

الجهات صاحبة العلاقة: هيئة الاعتماد والجامعات

- العمل على فهم والاستفادة من المعايير العالمية التي تعتمد برامج تخصص العمارة في كليات العمارة.

الجهات صاحبة العلاقة: هيئة الاعتماد والجامعات

- محورضبط الجودة

العمل على اعداد امتحان لمزاولة المهنة للخريجين في تخصص العمارة، وهذا يشكل مصدرا هاما للتغدية الراجعة للجامعات.

الجهات صاحبة العلاقة: التعليم العالي وهيئة الاعتماد والجامعات ونقابة المهندسين

محورضبط الجودة

- العمل على تطوير واستخدام الاستبانات التي استخدمتها هذه الدراسة بشكل دوري في المستقبل، ودلك للحصول على تغدية راجعة دورية.

الجهات صاحبة العلاقة: التعليم العالي والجامعات

معايير الاعتماد لتخصص العمارة في الأردن

المجالات النظرية الأساسية الإجبارية

المجال المعرفي	المحتوى المعرفي الرئيس الذي يغطيه هذا المجال	الحد الأدنى للساعات المعتمدة
تاريخ و نظريات العمارة	تاريخ العمارة، عمارة حديثة، عمارة معاصرة، عمارة اسلامية. المعارف التالية ليست اجبارية ولكنها مهمة و يجوز احتسابها من ضمن الحد الأدنى لساعات المجال: (السلوك الانساني في البيئة، فلسفة ونقد العمارة، نظريات واساليب التصميم، التحليل والبرمجة المعمارية، عمارة محلية، عمارة اقليمية).	١٥
تكنولوجيا البناء ومواصفاته	مواد البناء و انشاء (تركيب) المباني، كميات ومواصفات	٩
الانظمة الهندسية	مبادئ الانشاء والميكانيكا، الأنظمة الإنشائية، الأنظمة الميكانيكية، التحكم البيئي (العمارة والطاقة). المعارف التالية ليست اجبارية ولكنها مهمة و يجوز احتسابها من ضمن الحد الأدنى لساعات المجال: (مساحة، صوتيات، اضاءة)	١٢
العلوم الحضرية	تخطيط حضري، تصميم حضري، تنسيق مواقع. المعارف التالية ليست اجبارية ولكنها مهمة و يجوز احتسابها من ضمن الحد الأدنى لساعات المجال: (إسكان، الحفاظ على التراث وادارة مصادره)	٩

المجالات المساندة

المجال المعرفي	المحتوى المعرفي الرئيس الذي يغطيه هذا المجال	الحد الأدنى للساعات المعتمدة
علوم أساسية (يجوز أن تكون جزءاً من متطلبات الكلية)	رياضيات و فيزياء عامة	٦
أصول الادارة و ممارسة المهنة (يجوز أن تطرح من قبل قسم التخصص)	مواد البناء و انشاء (تركيب) المباني، كميات ومواصفات	٣
تصميم	مبادئ تصميم×، تصميم معماري، رسومات تنفيذية. المراسم التالية ليست اجبارية ولكنها مهمة و يجوز احتسابها من ضمن الحد الأدنى لساعات المجال: تنسيق مواقع، تصميم داخلي، تصميم حضري، تخطيط حضري.	٤٠
تعبير معماري	رسم معماري، رسم حر، رسم المنظور، رسم الظل والظلال، الرسم باستخدام الحاسوب	٩

معايير الاعتماد لتخصص الهندسة المعمارية في الأردن

المجالات النظرية الأساسية الإجبارية

المجال المعرفي	المحتوى المعرفي الرئيس الذي يغطيه هذا المجال	الحد الأدنى للساعات المعتمدة
انشاء وتركيب المباني	مواد البناء، تركيب المباني، اساليب البناء، مواصفات البناء، حساب الكميات	١٥
الانظمة الهندسية	مبادئ التحكم البيئي، تكييف المباني (تدفئة وتبريد)، انظمة المياه والصرف الصحي والري، مقاومة الحريق، أنظمة نقل ميكانيكية، اضاءة المباني، الصوتيات، الانظمة والتوصيلات الكهربائية	١٥
ألانشاءات	التحليل الانشائي، التصميم الانشائي (الانشاءات الخرسانية، الانشاءات المعدنية)، الانظمة الانشائية	١٥
الممارسة المهنية و ادارة المشاريع	أصول ممارسة المهنة وأخلاقياتها، إدارة المشاريع، ادارة الانشاءات، ادارة التنفيذ والمواقع، كتابة التقارير الفنية	٩

المجالات المساندة

المجال المعرفي	الحد الأدنى للساعات المعتمدة
الاقتصاد الهندسي و الاحصاء التطبيقي	٤
المشاغل الهندسية	٢
المساحة ومختبرها	٣

المجالات العملية

المجال المعرفي	الحد الأدنى للساعات المعتمدة
التصميم المعماري ومبادئه	٩
الرسم المعماري والهندسي	٣
رسومات تفصيلية وتنفيذية	٦

نظام التأهيل والتصنيف للمهندسين الأردنيين

نظام الاعتماد والتأهيل والتصنيف للمهندسين الأردنيين

لا شـك بان نظام الاعتمـاد الذي تم تبنيه من قبـل النقابة مؤخراً يتجاوب بشكل كبير مع توصيات كل من:

١. لجنة وضع معايير للتمييز ما بين تخصصي العمارة والهندسة المعمارية في نقابة المهندسين الأردنيين
٢. دراسة التجسير ما بين التعليم الجامعي و سوق العمل
٣. معايير الاعتماد الأردنية لبرامج العمارة و الهندسة المعمارية

رغـم انبثاق النظام عـن دراسات أخرى و مستقلـة عن الدراسات المذكورة.

طاولة مستديرة حول جودة تعليم العمارة في الوطن العربي

مدخل إلى النقاش: جودة تعليم العمارة، الخصوصيات، المنعايير وحاجات المجتمع

أ.د.م. محمد الصعيدي، كلية الهندسة المعمارية، جامعة بيروت العربية

أدار النقاش: د. محمد الصعيدي و د. رهيف فياض

توصيات ورشة العمل الثانية حول «تعليم العمارة في الوطن العربي» المنعقدة في المعهد الوطني للهندسة المعمارية و التعمير، جامعة قرطاج في تونس يومَي الجمعة ٦ و السبت ٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٣

انطلاقاً من أنّ أيّة نهضة تسعى الورشة إلى تحقيقها في مجال العمران و العمارة، إنمّا تبدأ بمواجهة المشاكل المتحكّمة في إحدى ركائز البنية الأساسية لهذين المجالين، أي، تعليم المعمار وتربيته وتكوينه، وهو العنصر الفاعل في أيّ تغيير وإصلاح وتطوير.

لذلك يرى المشاركون في الورشة، إنّ تعليم العمارة يعني إعداد المعمار بالكفاءات والمعارف التالية:

١ ـ ثقافة معمارية متينة، وثقافة مدينية واسعة وملائمة، وثقافة بيئيّة عميقة وشاملة، أي ثقافة موسوعية:

- تدرك ضرورة التكامل بين العمارة والمدينة والبيئة المبنية،
- كما تدرك أيضاً ضرورة التكامل بين العمارة، والمكان، والتاريخ والناس والثقافة والمشهد الطبيعي، فيه.
- كما تحرص على حماية التراث الوطني المبنيّ والطبيعي،
- وعلى حماية الموارد الطبيعية، بما يساعد في تأمين نموٍّ مستدام، وعمارةٍ تدوم.

٢ ـ ثقافة حرّة، عقلانية، نقدية، نقيضة ثقافة الصورة، والمشهدية، والإبهار:

- ثقافة عميقة محصَّنة، تتعامل بثقة وبموضوعية مع إنجازات العصر في مجالَي العمران والعمارة، ومع مختلف التيّارات والأشكال المعمارية الوافدة إلينا بغزارةٍ لافتة.

٣ ـ ثقافة وطنية جامعة، وثقافة إجتماعية محصّنة بمعرفة واسعة في مختلف علوم المجتمع :

- من السوسيولوجيا المدينية، إلى أنتروبولوجيا المجال، إلى التاريخ المعماري للمجتمع،
- إلى الفلسفة وتاريخ الأفكار، إلى مفهوم الجمال، وجماليات العمارة وسيميائيتها.
- إلى العلوم الإقتصادية والإدارية،
- إلى السلوك والأخلاق، في ممارسة مهنة المعمار.

٤ ـ ثقافة وطنية واجتماعية، تساهم في تعزيز دور المعمار الرائد في المجتمع.

٥ ـ معرفة تقنية كافية، في كلّ ما يعود إلى:

- البنيان وتكنولوجياته، وموارده وخاصيات هذه المواد (مع التأكيد على أولوية استعمال المواد المحلية المتوفرة)، وإلى عناصر المباني والمنشآت.
- الهيكل الإنشائي بمختلف أنواعه وموارده، وفي كافة مراحل تطوّره،
- التقنيات المعاصرة العائدة إلى عناصر المباني، وإلى التجهيزات والشبكات التي تخدمها، وتساهم في تحسين مستوى حياة الناس، ساكنين ومنتفعين.

٦ ـ ثقافة علمية منفتحة على معارف العصر، يختار المعمار منها الملائم لبيئته ولمجتمعه، ولقدرات هذا المجتمع التقنية والإقتصادية، إذ أنّ الجمال كما يقول إبن خلدون، هو إدراك الملائم.

٧ ـ العمل على ربط علاقة شبه دورية بين هيئة المعماريين العرب والجامعات العربية المعنية بتعليم العمارة.

٨ ـ استحداث مختبرات للبحث العلمي بتوجّهات متنوّعة، في الكليات والمعاهد والأقسام التي تعلِّم العمران والعمارة، واعتبار وجود مثل هذه المختبرات، مع تأمين الملاك الأكاديمي اللازم، شرطان أساسيان لدخول تعليم العمران والعمارة في الوطن العربي، مسار التكوين الأكاديمي العالي، من الباب الملائم.

٩ ـ إنّ التدريب المهني الإلزامي، هو جزء لا يتجزأ من عملية التعليم الممتدّة غالباً طوال خمس سنوات على الأقل، أو عشرة فصول تعليمية. وتكون مدّة التدريب سنتان، واحدة منهما خلال الدراسة، والثانية بعدها. على أن لا تقلّ مدّة التدريب، عن سنة واحدة أو فصلين تعليميين، فصل خلال الدراسة، وفصل بعدها، يمنح أثرها الطالب "إجازة ممارسة" أو شهادة "ملاءمة للممارسة المهنية".

١٠ ـ إقامة نظام للتعليم المستمرّ للأساتذة وللمعماريين الممارسين على السواء، إذ أنّ عملية التكوين لا تنتهي، إنّها مستمرّة مدى الحياة.

١١ ـ إدخال القضايا المتعلِّقة بالبيئة وبالتنظيم المديني وبالعمارة، في التعليم العام في الوطن العربي، (الابتدائي، و التكميلي، والثانوي).

١٢ ـ إنّ استقلالية تعليم العمارة عن كليات الهندسة، وعن معاهد الفنون، وإيجاد وحدات تربوية مستقلة وملائمة لتعليم العمارة، إنّ كلّ ذلك، هو حاجة ملحَّة، حرصاً على خصوصيات هذا التعليم، وحرصاً على تميّز عملية تكوين المعمار خلال فترة التعليم بكاملها.

١٣ ـ تشكيل خلية في الهيئة، تكون مهمّتها البحث المستمرّ في مسألة تعليم العمارة، وفي جودة هذا التعليم، وفي البحث عن آليات التحقق من تأمين هذه الجودة، وفي إمكانية عضوية هيئة المعماريين العرب في اللجنة الدائمة للتعليم الهندسي.

١٤ ـ عقد حلقات نقاش أو ورشات عمل عربيَّة شبه دورية، لمتابعة تنفيذ توصيات ورشة بيروت، ومراجعتها و تطويرها، على أن تعقد هذه الحلقات أو ورشات العمل، مرّة كلّ دورتين.

١٥ ـ السعي لتكوين هيئة عربية للإعتماد، ولمتابعة مسألة تأمين الجودة في تعليم العمارة، ولتحديد معاييرها، ولمتابعة الإسترشاد بهذه المعايير في العملية التعليمية، ولتطويرها، في ضوء المتغيّرات العالمية المتسارعة، والحاجات العربية، والقدرات والخاصيات الوطنية في كلّ بلد عربي.

تحت إشراف المجلس الوطني لهيئة المهندسين المعماريين الجزائريين

الملتقى الدولي الدراسي للحفاظ على التراث العمراني المغاربي الأندلسي

تلمسان ـ الجزائر

24 - 25 (جوان) حزيران 2014

تلمسان.. «غرناطة إفريقيا»

مدينة تلمسان تلقب بـ «لؤلؤة المغرب الكبير»، تقع في شمال غرب الجزائر العاصمة، ولاية تلمسان هي ثاني مدينة من حيث الأهمية بعد وهران في الجهة الغربية. وهي فخورة بماضيها المجيد والمزدهر ذات المعالم الأندلسية المتأصلة في المغرب الإسلامي الكبير، وصاحبة المواقع الطبيعية الخلابةو المباني الفنية الخالدة، وبماضيها الفكري والثقافي والسياسي.

فقد تضافرت جهود الطبيعة وجهود الإنسان المبدع لتكوين مدينة راقية ممتعة للفكر والروح معاً. لتستحق بفضل ذلك كله، أن تدعى جوهرة المغرب الكبير وغرناطة إفريقيا.

صورة عامة لمدينة تلمسان

الملتقى الدولي الدراسي للحفاظ على التراث العمراني المغاربي الأندلسي

«تلمسان نموذجا»

برنامج الملتقى

اليوم الأول: 24 جوان 2014

9 سا-10 سا : الإفتتاح الرسمي

- كلمة معالي وزير السكن و العمران و المدينة و اعلانه عن الإفتتاح الرسمي للملتقى
- كلمة ترحيبية للسيد الوالي
- كلمة توجيهية لرئيس المجلس الوطني لهيئة المهندسين المعماريين الجزائريين
- كلمة رئيس هيئة المعماريين العرب
- مداخلة السيد شنوفي ابراهيم مدير متحف تلمسان (مباني تاريخية من عقبة للنمو الى رافد له)

10سا-11سا 30 د : استراحة

11سا 30 د-13سا : التراث العمراني و الحفاظ على الهوية

- مداخلة ممثل هيئة المعماريين العرب
- مداخلة الدكتور منصوري صادق
- مداخلة فائز الجائزة الوطنية للهندسة المعمارية 2013
- تتبع بمناقشة

13سا-14سا: غداء+إستراحة

14سا-15سا 30 د :إجراءات الحفاظ على التراث العمراني بتلمسان

- فضاء المنصورة الأستاذ المعمار قهوتجي محمد اموغراسن
- فضاء المشور القصر الملكي (ذاكرة مسترجعة) الأستاذ المعمار شيباني عبد الصمد
- فضاء باب القرمادين المعمار غربي جمال و المعمار سلكة محمد بتهاب
- فضاء سيدي بومدين المعمار ايت او حمو مالك

15سا 30 د-17سا : هندسة المساجد

- جامع سيدي غانم بمنية المعمار بولقروس يحي
- جامع سيدي ابراهيم المعمار بن عصمان عبد القادر
- جامع كشاوة المعمار زكار عبد الوهاب

تلاوة حصيلة الملتقى

17سا-18سا 30 د: جولة في مدينة تلمسان و زيارة المتحف

اليوم الثاني : 25 جوان 2014

9 سا-11 سا : عقد لقاء اللجنة التنفيذية لهيئة المعماريين العرب و المجلس الوطني للمعماريين الجزائريين

11 سا-14سا : زيارة شلالات الأوريت + غداء

14سا-17سا : زيارة للمواقع الأثرية و الطبيعية لمدينة تلمسان

- مغارة بني عاد
- فضاء سيدي بومدين
- المسجد الكبير و فضاء المشور
- موقع المنصورة وفضاء هضبة لالة ستي

مأدبة عشاء على شرف الضيوف

الملتقى الدولي الدراسي للحفاظ على التراث العمراني المغاربي الأندلسي

الإفتتاح

كلمة رئيس هيئة المعماريين العرب، المعمار اميل العكرا

معالي وزير السكن والعمران والمدينة في الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية،

جانب رئيس المجلس الوطني لهيئة المهندسين المعماريين الجزائريين المعمار شريف جمال،

جانب أمين عام إتحاد المهندسين العرب الدكتور عادل الحديثي،

جانب أعضاء اللجنة التنفيذية لهيئة المعماريين العرب المعماريين،

الزميلات والزملاء المعماريين والمهندسين من كافة الاختصاصات،

أيّها الحضور الكريم...

الأسبوع الثاني من كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٣ كانت ورشة العمل الثانية حول تعليم العمارة في الوطن العربي في تونس العاصمة... التقينا من أكثرية الدول العربية وكان حضور الوفد الجزائري مدعاة لسرور كبير بعد انقطاع عن المشاركة في هيئة المعماريين العرب دام سنوات؛ اليوم نحن نلتقي عندكم في الجزائر وفي مدينة تلمسان بالذات، إحدى كنوز العمران والعمارة العربية في الوطن العربي؛ نلتقي لنبحث في غنى تراثنا ودوره في تكوين شخصيتنا العامة.

وخلال الأسبوع الأول من كانون الأول/ ديسمبر القادم سنلتقي في المغرب وفي مدينة فاس بالذات، كنز آخر من كنوز العمران والعمارة العربية في الوطن العربي، لنستكمل البحث بشكل أوسع عن جذورنا ولنستخلص الدروس والعِبَر التي ترفدنا بالمعرفة اللازمة لتبلور هذه الشخصية العامة المشتركة فيما بيننا، نحن أهل هذا الوطن العربي الزاخر بالقِيَم وبالإمكانيات من ناحية، والمتخلف عن دوره الطبيعي الريادي في تشكّل القوى الحضارية المؤثرة في حياة سكان الأرض من ناحية، وفي إدارة شؤون مجتمعات العالم من ناحية أخرى...

بناءً لما سبق أريد أن أعبّر عن غبطتي وعن اعتزازي بما استطعنا سوية أن ننجزه في التواصل بين مشرقنا ومغربنا، وهو تواصل متواضع نسبةً لما هو واجب أن يكون، إذا أردنا أن نكون ما يسمح لنا بأن نكونه، كوننا وطن عربي ذو مجتمعات عريقة في العلم وفي المعرفة، تمتدّ مساهمتها الكبيرة في حضارة الإنسان عدّة آلاف من السنين؛ وما عنوان كتاب كرامر «يبدأ التاريخ من سومر» سوى مثلاً بسيطاً عن ما أقرّ علماء العالم بمساهماتنا بحضارة البشرية اليوم؛ ويبقى أن نقتنع نحن اليوم بقيمة هذه المساهمات كأساس متين لما هو مطلوب منّا من مساهمات جديدة في بناء

المعرفة، خدمة لذواتنا أوّلاً، وخدمة للبشرية جمعاء تالياً.

يسـرّني أيّهـا السيّدات والسـادة، أن أشكركم علـى استضافتكم لهيئـة المعماريـين العـرب لحضور ملتقاكـم الثقافي هـذا، ولعقد اجتماع اللجنة التنفيذية الدوري النصف سنوي للهيئة بعد انتهاء هـذا الملتقى، وذلك تعبيراً منكـم على استئناف دوركم الكامل في

هيئة المعماريين العرب، كما أبديتم النيّة بذلك خلال اجتماعاتنا الأخـيرة في تونـس في إطـار ورشة العمـل التي سبـق وذكرتها... والشكـر الخاص للهيئـة الوطنية للمعماريـين الجزائريين ممثلة برئيسها وبلجنتها الإدارية، مذكراً بأنّنا وإيّاكم جميعاً على موعد أواخر هذه السنة في فاس العريقة.

الملتقى الدولي الدراسي للحفاظ على التراث العمراني المغاربي الأندلسي

مجمّع سيدي أبي مدين في المغرب

المعمار مالك آيات أوحمو

الموقع

يتميز الموقع الذي أنشأ فيه مجمّع سيدي أبي مدين بالإرتفاع، حيث يشرف على وسط مدينة تلمسان، على بعد كيلومترين تقريباً شرقاً. كان المكان ملتقى المتصوّفة المنقطعين للعبادة، كما كان ملتقى تجمّع العلماء و الدّارسين. و كان من توفي من العلماء والصلحاء يجد له مدفنا فيه.

وشيّد الموقع على مصطبة صخرية أسفل تل جبلي كان يعيق عملية البناء، فتمّ إعداده بنقره وتكسير جزء منه على شكل خندق أحتلّه بيت صلاة الجامع بحائط قبلته. كما ذكر الموقع في النصوص التاريخية والكتابات الأ ثرية، فما عدا النواة الأولى للضريح الذي يعود إنشائه إلى العهد الموحدي، بنى مجمّع سيدي أبي مدين السلطان المريني أبي الحسن علي بن عثمان عند احتلاله لمدينة تلمسان بعد سنتين من الحصار (٧٣٥ ـ ٧٣٧هـ/١٣٣٥ ـ ١٣٣٧م).

و قد إختارهذا الموقع تقرّبا من مكان دفن العالم والمتصوّف الشهير أبي مدين شعيب بن الحسين الأنصاري المتوفى سنة ١١٩٧م، محاولا بذلك منه التأثير على سكان المدينة المحتلة استرضاء لهم للإنضمام إليه والقبول بمشاريعه.

هندسة الجامع

يحتلّ الجامع الموقع الوسط ضمن المجموعة المعمارية المتكاملة ويقابل ضريح سيدي أبي مدين ويشرف عليه بواجهته الرئيسية. وهو مسجد ذو حجم متوسط مقارنة بجامع المنصورة والمساجد الموحدية، فقد أختط على شكل مستطيل مقاساته الخارجية ٢٨,٩م طولا على ١٨,٤٥م.

ويتكون الجامع من ثلاث واجهات: الرئيسية منها وهي الشمالية الغربية، وهي واجهة تذكارية فُتح فيها باب احتل محوره العمودي على المحراب وزخارفها الجصية والفسيفسائية ثرية في مواضيعها.

يلي بيت الصلاة صحن أوسط مكشوف تحيطه مجنبتان شرقية وغربية، ثم مؤخر الجامع الذي يتكون من رواق واحد مفصول مباشرة بكتلة المدخل وواجهته الرئيسية الشمالية الغربية. ويتوسط صحن الجامع حوض صغير مستطيل.

ويتخذ بيت الصلاة شكلا مستطيلا عرضه ١٨,٩٠م وعمقه ١٤,١٠م يتكون من خمس بلاطات عمودية على حائط القبلة وأربعة أساكيب.

أما المحراب فيتوسط حائط القبلة ويتكون معماريا من حنية عى شكل سداسي اتساعها ١,٧٠م وعمقها ٢,٢٠م وامتداد أضلاعها العمودية ١,٣٨م والأضلاع الأخرى يتراوح امتدادها بين ٠,٦٧م و٠,٦٩م.

ويتكون المحراب فنيا من زخارف جصية محفورة وملونة اختلطت فيها الزخارف وتنوعت واشتملت على العناصر الكتابية والنباتية والهندسية.

ويحتوي الجامع على ثلاث قباب مختلفة الحجم والموضع: السقف: الذي يتوج التكوين المعماري الداخلي لجامع سيدي أبي مدين وهو مبني استناداً إلى نظام التخطيط الداخلي من بلاطات وأروقة ويتكون من احد عشر جزءاً مشيدا بالآجر وملبساً بالجص، وذلك على هيئة تجويفات صندوقية الشكل بارزة إلى الخارج على هيئة منحدرات مغطاة بقراميد نصف اسطوانية، أما من الداخل فهي مجوفة مقعرة أشبه ما تكون بالأقباء نصف أسطوانية وتتجه داخليا وخارجيا مع اتجاه البلاطات والأروقة الجانبية للصحن.

المئذنة: تحتل الركن الشمالي الغربي للجامع في مقابل الأسكوب الغربي لرواق مؤخره، وتتشابه من حيث شكلها وتخطيطها ونظامها المعماري مع المآذن المغربية الأندلسية بصفة عامة والمآذن المرينية بالمغرب والزيانية بتلمسان بصفة خاصة. ويقدر ارتفاعها الكلي بحوالي ٢٧,٥م وتتكون معماريا من جزئين: برج سفلي وجوسق علوي.

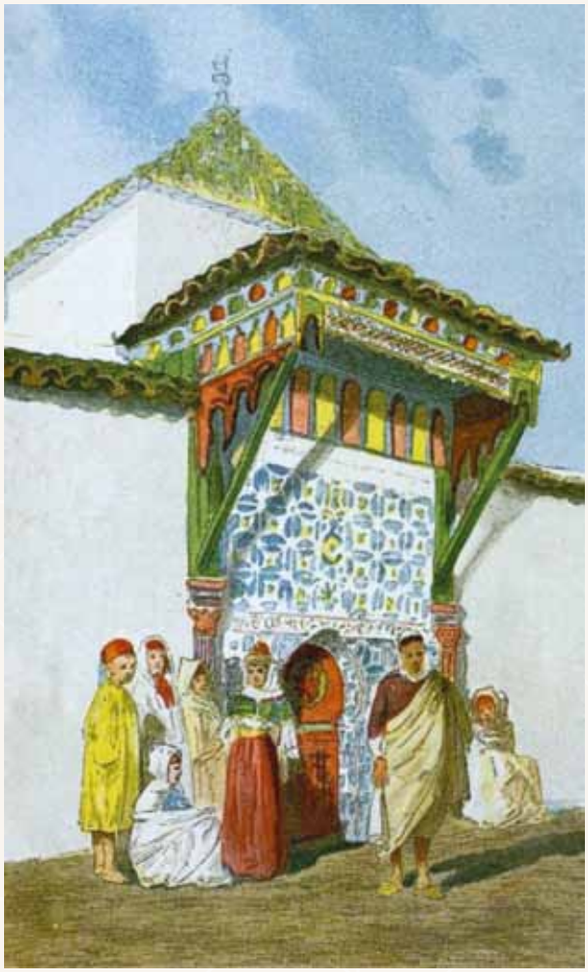

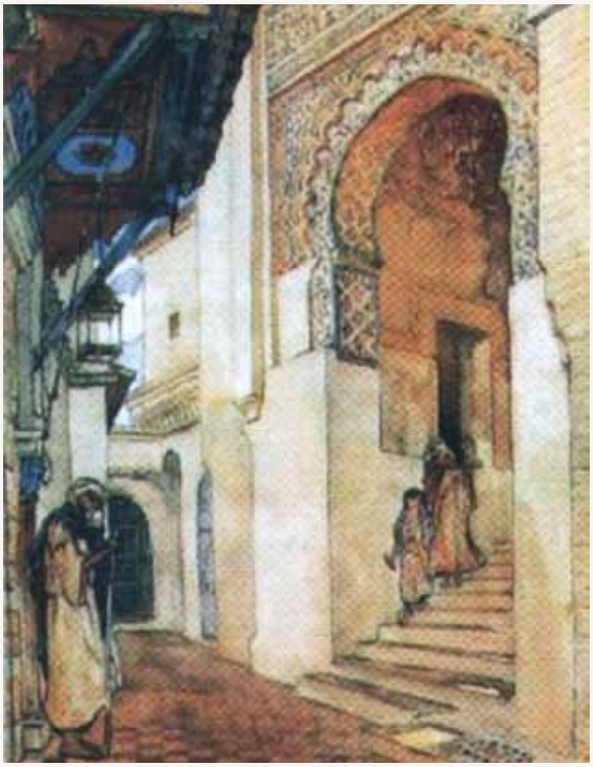

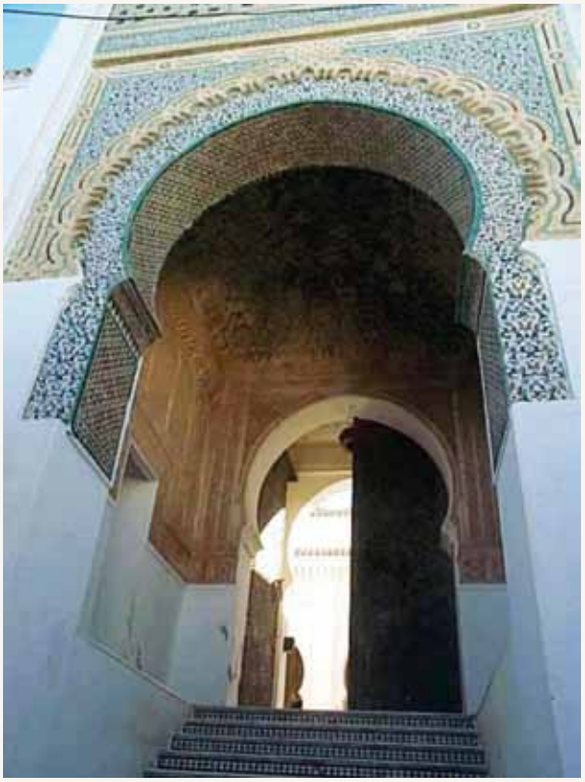

هندسة المدرسة

تقع المدرسة الى الغرب من الجامع وعلى مستوى أكثر ارتفاعا منه ويفصلها عنه رواق معقود وتتخذ شكلاً هندسياً مستطيلاً يمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي تفتح بمدخل تذكاري في واجهة بسيطة شكلا وزخرفة، ويوصل إليه عبر درج صاعد ذي ١٥ مرقاة حجرية توصل إلى شرفة صغيرة تتقدم المدخل الذي يحتل الواجهة الشمالية الغربية، ويقع بابها في خط محوري مع مدخل بيت الصلاة ومحرابه عبر الصحن وهو بذلك يشبه مداخل الجوامع المرينية كالمنصورة وسيدي أبي مدين.

الصحن

وهو مستطيل يمتد من الجنوب إلى الشمال عمقه أكبر من عرضه ومقاساته ١٦×١٤م، يحيطه من جهاته الأربعة رواق عرضه ١,٧٥م يشرف عليه من جهتيه الجنوبية والشمالية ببائكة ثلاثية العقود بينما بائكتيه الشرقية والغربية رباعية، وترتكز العقود الحدوية المنكسرة قليلا في مفتاحها على دعامات مستطيلة أو على شكل حرف اللام الأوسط في الأركان ارتفاعها ١,٦٠م.

ويتوسط الصحن حوض مستطيل مقاساته ٣,٢٠م×٢,٦٠م يتصل جنوبا بحوض آخر مربع الشكل أصغر حجما، وذلك عبر ساقية صغيرة. وينتهي الرواقان الشرقي والغربي نحو الخارج بمجموعة من الحجرات.

المصلى

وهو يتصدر الصحن في جهته الجنوبية ، ويعد بمثابة مصلى وقاعة درس في آن واحد ، يفتح على الصحن بباب محوري مع المحراب والمدخل الرئيسي.

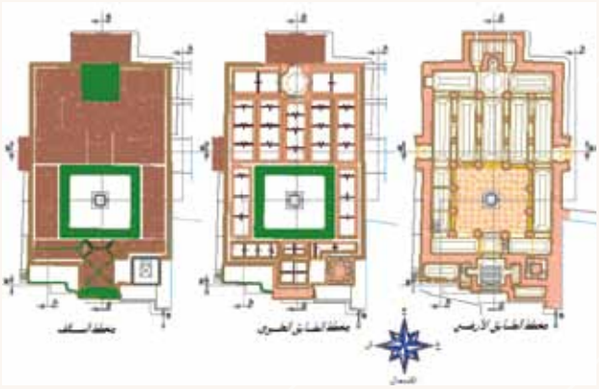

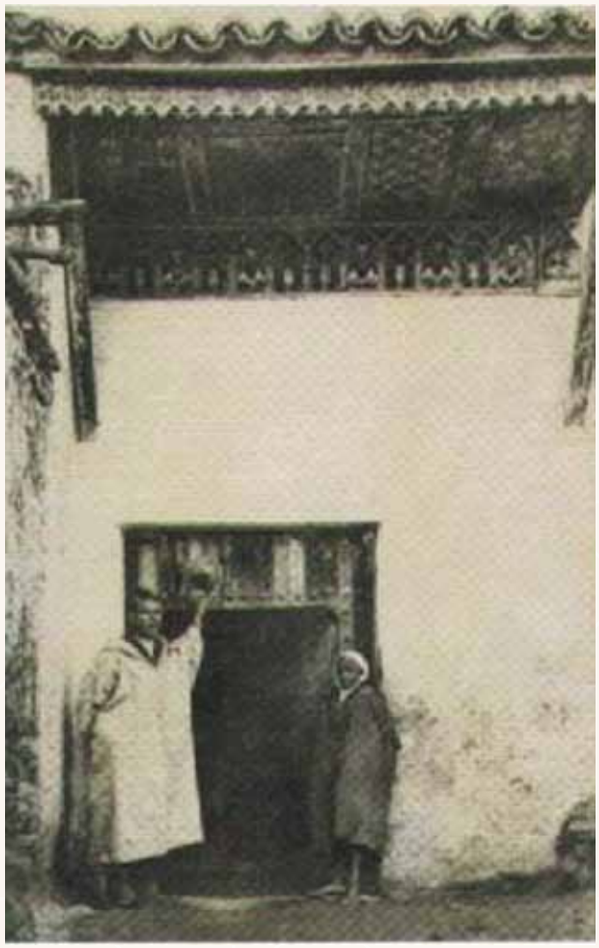

المدرسة

مخطط الطابق الأرضي
مخطط الطابق العلوي
مخطط السطح

مبادئ التدخل

من خلال تدخّلنا الميداني حاولنا قدر المستطاع المساهمة في تمديد حياة هذا المعلم المصنف وطنيا، في إطار المبادئ العلمية لعمليات الترميم، واحتراما للتوصيات الدولية للمنظمة الأممية «اليونيسكو»، وتعليمات «ميثاق البندقية».

التدخل الأدنى

تبين التجربة العالمية أن مبدأ التدخل الأدنى هو المنطلق الأصح في كل محاولة الحفاظ على أي معلم تاريخي أو إرث حضاري، لكونه مبدأ نابع من احترام ما وصل إلينا. حاولنا بذلك اتّخاذ منهج التواضع الشديد تجاه قيم التحفة، حتى نتفادى حالة التهوّر التي يمكننا الوقوع فيها إذا ما أغرتنا نسبة المعرفة المتخيل لنا بلوغها من خلال بحوثنا المتواضعة.

الأصالة

إحترام أصالة المعلم من شتى الزوايا (المادية، المعمارية، البيئية...) أمر ضروري، إلا أن تمديد حياة المواد والهياكل لا بد أن يتم دون التمييز بين الأحقاب الزمنية، ما عدا ما كان مشوّها للمعلم و يتطلّب حذفه.

قابلية التراجع

كل تدخل جديد على معلم تاريخي يعتبر غريباً عن الصورة التي عرف بها قبل ذلك. إلا أن المساس بالماضي من زاوية الإحترام ممكن جدا من خلال إتخاذ حلول قابلة للحذف في كل وقت، واسترجاع بذلك الصورة الأولية للمعلم.

فإن كان مبدأ التراجع هذا سهل التطبيق نسبياً فيما يمس ببعض أوجه التدخل المتعلقة بالترميم المعماري، فالأمر معاكس بالنسبة للتدعيم الهيكلي حيث تستعمل مواد عديدة غالبا ما يصعب إزالتها، وإن وجدت المواد المستجيبة لمبدأ التراجع، فهي ليست متوفرة دائما في السوق الوطنية.

قابلية التمييز

تمديدا لمبدإ الأصالة وتفاديا للوقوع في خطر التحريف، حرصنا على تمييز بعض التدخلات الجديدة عن الأصل وذلك في حدود معقولة.

قابلية التناسب

قمنا بإستعمال المواد المسترجعة قدر الإمكان، وعند إستعمال المواد الحديثة، حاولنا مراعاة شروط تناسبها مع مواد المعلم من حيث الخصائص الفيزيائية و الكيميائية.

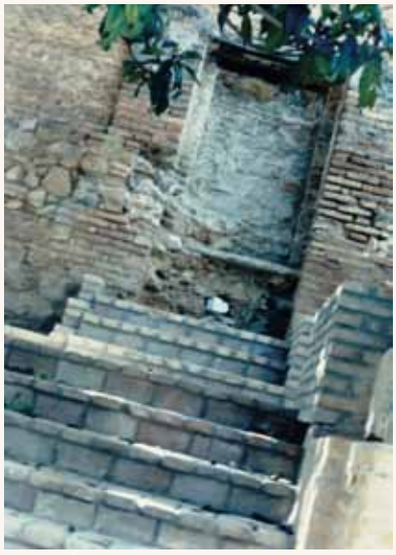

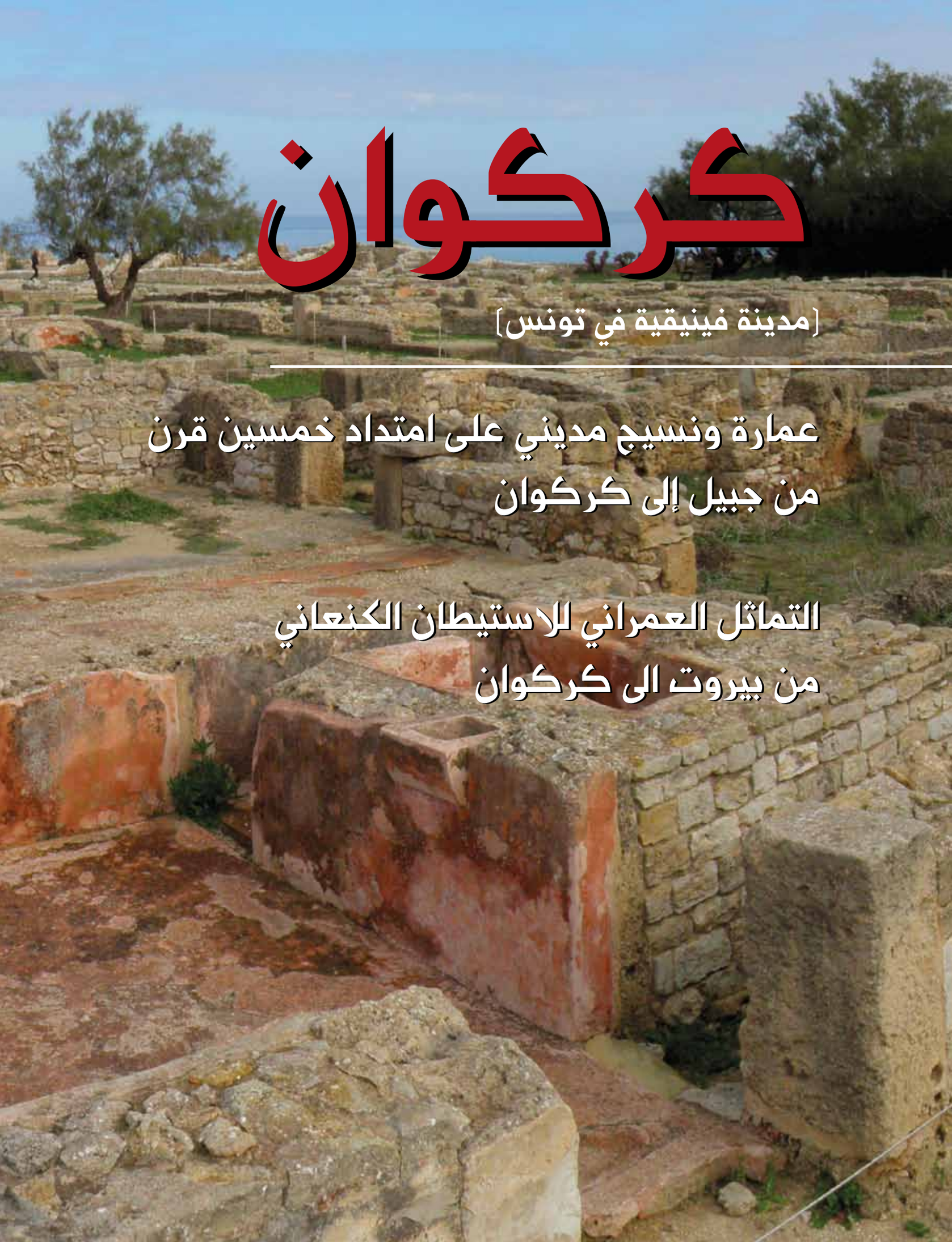

كركوان

[مدينة فينيقية في تونس]

عمارة ونسيج مديني على امتداد خمسين قرن من جبيل إلى كركوان

التماثل العمراني للاستيطان الكنعاني من بيروت الى كركوان

جبيل، قصر الحكم، مطلع الألف الثاني ق.م.

كركوان، مغطس مزدوج منزلي، القرن الرابع ق.م.

من جبيل إلى كركوان

عمارة و نسيج مديني على امتداد خمسين قرن

المعمار إميل العكرا

١. أشرقت شمس الأحد ٨ كانون الأول سنة ٢٠١٣ من وراء الجبال المتهادية شرقي المدينة. الجبال والتلال المساندة لها تحيط بالمدينة وتغمرها من جهات ثلاث: جنوباً وشرقاً وشمالاً. غربها يمتدّ أفق البحر الأزرق على مدى النظر، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال. أنّها حال أكثرية مدن الشاطىء الشرقي للمتوسّط؛ الفرق الوحيد هو مدى السهيل الذي يفصلها شرقاً عن سلسلة الجبال أو الهضاب الممتدّة من جبل الأمانوس شمالاً حتّى هضاب الكرمل جنوباً. هو، الشاطىء الكنعاني المتصدّر شرقي المتوسّط؛ وهي، مدينة جبيل حيث لا تزال المساكن الأولى من أواخر الألف السادس قبل الميلاد بادية للعيان على الطرف الغربي للتلّ المشرف على البحر.

٢. بعد ساعة ونصف من الزمن أشرقت شمسنا ذاتها من وراء البحر نفسه، إنّما غربي المدينة هذه المرّة. أشرقت محوّلةً مياه بحرنا الزرقاء إلى نهر من التبر يبدأ من الأفق الشرقي حيث "طلعت يا محلا نورها"، وينتهي أمام أقدامنا متهادياً مع تموّجات البحر وهو يلاطف شاطىء المدينة المستلقية بأمان وحبور على ضفافه. السهل يغمر المدينة هنا من أطرافها الجنوبية والغربية والشمالية ويكمل امتداده حتى الأفق. والشاطىء يمتدّ متعرّجاً ومتهادياً من أقصى رأس أدّار Cap bon شمالاً حيث بلدة الحوارية إلى أقصاه جنوباً حيث بلدة كيليبيا. هو، الشاطىء الشرقي لرأس أدّار Cap bon في تونس؛ وهي، مدينة كركوان حيث المدينة البونية Punique، الكنعانية الأصل، بأسوارها ونسيجها المديني الباقي كما كان عندما أخليت أواسط القرن الثالث قبل الميلاد. أنّها المدينة الوحيدة التي لم تغيّر تطوّرات الحياة نسيجها المبني، ذلك أنّ حياتها انتهت عندما دمّرها ريجلوس Regulus القنصل الروماني إبّان حملته بين ٢٦٥ و٢٥٥ قبل الميلاد، ولم تبنى من جديد، فتركت ليغطّيها التراب مع الزمن وتصل إلينا كما هي.

جبيل، الألف الرابع ق.م.

كركوان، القرن السادس ق.م.

تشير بطاقة تعريف مدينة جبيل إلى التالي:

١. الألف السادس قبل الميلاد كان المدّة التي تمّ خلالها انتظام تجمّع صيّادي السمك على التلّ حيث استقرّت القرية مشرفةً على البحر غرباً وعلى مرمى حجر منها شمالاً نبع ماء، وعلى مسافة دقائق خمس مشياً منها جنوباً شاطىء من الرمل الأبيض النقي: أنّها المعطيات الضرورية البدائية لاجتماع صيّادي سمك واستقرارهم ضمن مستوطنة: تمّ ذلك حوالي الـ ٥٢٠٠ سنة قبل الميلاد حسب العالم موريس دينان Maurice Dunand الذي حفر الموقع ودرسه وحلّل بقايا الموجودات في بضعة مساكن من ذلك العهد.

جبيل، بيتيّ صيادي سمك، ٥٢٠٠ ق.م.

٢. أواسط الألف الرابع تحوّلت القرية الصغيرة إلى بلدة كبيرة مع بعض ملامح تحوّلها إلى مدينة: طرقات داخلية، بعض الساحات الصغيرة، تخصّص في وظائف الأبنية كالمعبد والمشغل (الفخّاريات) ودار السلطة (مجلس كبار السنّ).

جبيل، بير الملوك، النبع.

٣. أواخر الألف الرابع وبحلول مطلع الألف الثالث حدث التحوّل الكبير الذي كرّس المستوطنة مدينة بكلّ معنى الكلمة: أسوار منيعة تحيط بها، معابد تتوزّع حول مثلّث مقدّس يتوسّط المدينة، قصر ملكي يشرف على المدينة شرقاً وجنوباً ويشرف على الميناء شمالاً، ميناء شرعيّ تتصّل به المدينة بممرّ عريض محصّن، أحياء سكنية تتوزّع على ما تبقّى من مساحة الخمسة هكتارات الموجودة داخل الأسوار، ساحات صغيرة وشبكة طرقات مجهّزة بشبكة مجارير لمياه الشتاء.

٤. ازدهرت المدينة وتطوّرت خلال الألفَيْ وخمسماية سنة الفاصلة بين ارتقائها إلى مصاف المدن والاحتلال البابلي ومن ثمّ الفارسي لها ولكلّ الشاطىء الكنعاني، ولقد تمّ ذلك بين القرن الثامن والقرن الرابع قبل الميلاد... خلال هذه المدّة الطويلة، لعبت الحاضرة الكنعانية دوراً كبيراً في الحوض الشرقي للمتوسّط تنبىء عنه وقائع عديدة، أذكر منها ثلاثة: من أوائل الألف الثالث حتى نهاية الألف الثاني نشطت البحرية الجبيلية في هذا الجزء من المتوسّط واصلة شرقه بجنوبه: العلاقات مع مصر تطوّرت جداً بالاتّجاهين، وما وجود أرز جبالنا في المجتمع المهني والفنّي المصري الفرعوني من جهة ووجود الهدايا التحف

جبيل، من النسيج المديني، هيكل بعلة جبيل، الألف الرابع ق.م.

في معابد مدينتنا وفي مدافن ملوكها سوى أحد التعابير القوية على وسع العلاقات وعمقها. مع التجارة شمل التبادل كلّ شيء... شمل الفنون والأفكار والمعتقدات؛ ورغم حجم الوجود والحضور المصري الأشبه بنجم ساطع، كان للكوكب الكنعاني، من خلال جبيل أولاً، وجوده وحضوره الفاعل في تطوّر وارتقاء الحضارة: لم تعرف شواطىء وثقافات الحوض الشرقي للمتوسّط ثقافة مصر وإنتاجها الغزير الراقي سوى بواسطة البحرية الكنعانية عامةً والبحرية الجبيلية خاصةً، ذلك أنّ المصريين كانوا بحّارة مياه عزبة أي بحّارة نهر النيل، أمّا الجبيليون فهم بحّارة مياه مالحة أي بحّارة البحار. إشارة أخرى عن اتّساع هذه العلاقة وتشعبّها تتمثّل بالمراسلات الملكية بين البلاطَين التي وجدت في بقايا مكتبة القصر الملكي في تلّ العمارة- مدينة آتون، الإله الواحد المتمثّل بالشمس، عاصمة أمنوفيس الرابع (أخناتون) أواسط القرن الرابع عشر قبل الميلاد-. ومن الباحثين مِن يرجّح أنّ التوحيد الذي نادى به هذا الفرعون هو وليد تأثير بيئة زوجته الشهيرة نفرتيتي، الأميرة القادمة إلى مصر من شواطىء كنعان حيث بذور التوحيد بدأت تنمو منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد بشهادة مكتبة أوغاريت عاصمة الشاطىء الكنعاني الشمالي... أمّا الواقعة الثانية فهي ابتكار أشكال أحرف الأبجدية المسمّاة باسم المدينة والمكتوب بها أوّل نصّ وُجِد حتى الآن على غطاء ناووس أحيرام أحد أشهر ملوكها: تمثّلت عبقرية الجبيليين بصياغتهم نظام الكتابة هذا من مصدرين، الأول هو النظام الألفبائي المبتكر منذ زمن طويل في مدن وادي الرافدين ومدن سوريا الشمالية والمكتوب بالإشارات المسمارية الصعبة وغير المطواعة، والثاني هو الكتابة الهيروغليفية المصرية السهلة الكتابة والجميلة المظهر بعكس نظامها التصويري الصعب والبدائي... تتمثّل الواقعة الثالثة باعتراف اليونان بالأهمية الكبرى لجبيل التي جلبت لهم بحريّتها النظام الأبجدي الذي طوّروه ليصبح أبجديتهم التي توارثتها مع بعض التعديلات حضارة العالم الغربي بأكمله؛ وكان ورق البردى Papyrus هو السلعة الأخرى الفائقة الأهمية التي حصل عليها اليونان بواسطة البحرية الجبيلية ممّا جعلهم يطلقون على جبيل إسم بيبلوس Byblos أي مدينة الكتاب، وهو الإسم الذي اشتهرت به مدينتنا في حضارة الغرب الأوروبي.

جبيل، المثلث المقدس، الألف الثالث ق.م.

جبيل، بناء صرحي يشرف على النبع، مطلع الألف الثاني.

جبيل، النسيج المديني، من الحي الشمالي الغربي والسور المسنن، الألف الثالث ق.م.

٥. مع إعادة التموضع المشرقي الجديد- القديم لجبيل مع سيطرة وادي الرافدين أولاً وفارس ثانياً على كامل الشاطىء الشرقي للمتوسّط، انبسطت المدينة خارج أسوارها وأخذ نسيجها المبني يرتدي لباس الأزمنة الثقافية المتعاقبة دون أن يخسر طابعه الأصلي الكنعاني أي المشرقي. لكنّ الغزو اليوناني المكدوني أواسط القرن الرابع قبل الميلاد أحدث تغييراً بنيوياً في هيكلية المدينة جعلها، كما كافة حواضر الشاطىء، تشترك بنيةً وهيكلةً،مع ثقافة البحر المتوسّط المتعدّدة المصادر والينابيع، ممّا يجعلني أتوقف هنا عن سرد هذا التسلسل المختصر جداً حتى نبقى بسياق المقارنة مع مدينة كركوان الكنعانية- البونية إبنة هذا التقليد المشرقي الضارب بالزمن.

جبيل، النسيج المديني من الحي الجنوبي، مطلع الألف الثاني ق.م.

٦. هنالك عدّة معالم معمارية مهمّة، لا زالت بادية للعيان، تنتشر في مساحة المدينة داخل أسوارها ممتدّة بالزمن على مدى الألفيات الثلاثة من حياتها الكنعانية، سألفت النظر، في هذه العجالة، إلى أربعة منها تشير إلى أربعة عناصر أساسية في تشكّل المدينة: السور، قصر الحكم، المعبد والحيّ. يحيط السور بالمدينة من جهات ثلاث، وهي الجهات التي تتواصل بها المدينة مع اليابسة أي الشمال والشرق والجنوب. من الغرب، حيث الجرف الصخري المرتفع حوالي العشرين متراً عن مستوى البحر، تطلّ المدينة على بحرنا من عل، ولا ندري كيف كانت تحصينات هذه الجهة من إطارها. أمّا السور الباقي فيمتدّ من القلعة القروسطية حتّى البحر مدعّماً من الداخل بدعامات ضخمة مبنيّة من الحجر الجيري نفسه المستعمل في بناء السور؛ ومن الخارج تظهر رِجْلُ السور المنحدرة بقوّة والمدعِّمة له على كامل طوله. مع الزمن تراكمت منحدرات الرِجل الداعمة فوق بعضها حتّى أصبح عرضها مع السور الأساسي حوالي العشرين متراً. وبحساب بسيط وجدتُ أنّ مساحة السور المحيط بالموقع يوازي أكثر من نصف مساحتها: هناك حوالي الخمسة هكتارات داخل السور ذي المساحة المقارِبة للهكتارات الثلاث. جزء آخر من هذا السور يظهر بين القلعة القروسطية وقلعة المرحلة الفارسية الرابضة على جزءٍ غير يسير منه، حيث يوجد المدخل الوحيد ذو البوّابات السبع. بُنِيَ هذا السور المسنَّن في الربع الأول من الألف الثالث ق.م. (حوالي ٢٧٠٠ ق.م.).

جبيل، جزء من الحي الشمالي، أواسط الألف الثالث ق.م.

جبيل، وسط المدينة الكنعانية.

يربض قصر الحكم، من جهةٍ أخرى، على التلة الصخرية الموجودة في القطاع الشمالي الغربي للموقع. تتألف المستويات السفلية منه من الحُفر الناتجة عن المقلع الذي استُخرِجت منه الحجارة الرملية Grès dunaire المستعملة في البناء العلوي وفي أبنية أخرى؛ فيما المستويات العليا مبنيّة من الحجر نفسه برصف دقيق لمداميك متفاوتة الأحجام والمساحات والأطر، مع سماكات للجدران ضخمة ومساحات للغرف كبيرة ومتنوِّعة. بُنِيَ هذا القصر مطلع الألف الثاني ق.م.

من جهة ثالثة يقع معبد المسلاّت في وسط المدينة وبمواجهة بابها الأوحد؛ موقعه الآن ليس في مكانه الأصلي، فموقعه الأصلي هو فوق المعبد المسمَّى بحرف الـ L اللاتيني، ذلك أنّه يشكّل نسخة مطلع الألف الثاني ق.م. للمعبد، ممّا اضطرّ الأثريون إلى نقله بأمانة علمية لتبيان النسخة الأصلية العائدة إلى أواسط الألف الثالث ق.م. والموجودة في مكانها الأصلي مشكِّلة أحد أهم نماذج أبنية المعابد الكنعانية (الفينيقية). يطرح النموذجان أسئلة كبرى حول عمارتهما والعناصر البنيوية التي أدّت إلى صنعهما كما هما، ليس المكان هنا للخوض فيها.

العنصر الرابع الذي أودّ الإشارة إليه هو الحيّ الشمالي للموقع، وهو الحيّ المحاذي للسور المسنَّن الذي تكلّمنا عنه. يفصل الحيّ عن السور ممرّ عريض لا يبدو شارعاً، ويتشكّل النسيج المديني فيه من مجموعة من المساكن الصغيرة المتلاصقة ضمن جزرٍ صغيرة أيضاً مؤلفة من ثلاثة أو أربعة بيوت، يفصلها ممرّات ضيّقة جداً تكاد لا تتّسع لأكثر من شخصين في آنٍ واحد، ويصعب علينا اعتبارها شوارع. جدران الأبنية هذه (بيوت بأكثريتها) مبنيّة من الحجارة المتنوِّعة الموجودة بكثرة على الشاطىء المتاخم وفي الطبيعة المجاورة، وهي مرصوفة بعنايةٍ دون شغلها وصقلها وتشذيبها. يعود زمن بناء هذا الحيّ إلى أواخر الألف الثالث ق.م. أنّ البنية النسيجية لهذا الحيّ، والتي تشكّل نموذجاً للنسيج المبني في كامل الموقع، ومساحة الأبنية العامة من قصرٍ ونبعٍ ومعابد ومشاغل وأسوار نسبةً للمساحة العامة للموقع تجعلني أعتقد أنّ الموقع المسوَّر هذا، والذي درجت الكتابات على اعتباره المدينة الكنعانية بذاتها، ليس إلاّ مركز السلطة المحصَّن في المدينة التي كانت تمتد باتّساعٍ أو بضمور حوله، بحسب الأزمنة وبحسب الأوضاع...

للبحث في هذا الموضوع تتمّة في غير هذا المكان.

جبيل، القلعة من العهد الفارسي، القرن السادس ق.م.

جبيل، الساحة امام السبيل والطريق المؤدي، القرن الثاني ق.م.

جبيل، السور ودعائمه من الداخل، ٢٧٠٠ ق.م.

جبيل، السور ودعائمه من الخارج، من الألف الثالث حتى الألف الأول ق.م.

جبيل، مدخل المدينة الشمالي الشرقي، الألف الثالث ق.م.

جبيل، القصر الملكي، أواخر الألف الثالث ق.م.

جبيل، هيكل المسلات (رشف)، مطلع الألف الثاني ق.م.

جبيل، هيكل بشكل، أواخر الألف الثالث ق.م.

جبيل، طريق الميناء المحصن، أواسط الألف الثالث ق.م.

تشير بطاقة تعريف مدينة كركوان إلى التالي :

١. أنّها ابنة قرطاجة: فهي إذن حفيدة المدينة الكنعانية (الفينيقية). ونظراً إلى أنّ الحفريات فيها لم تتناول سوى أقلّ من ثلث مساحتها ضمن أسوارها تقريباً، فإنّنا لا نستطيع تحديد عمرها النهائي حسب الحفريات سوى بعد اكتمالها. إلاّ أنّنا نستطيع القول اليوم، وحسب اللقى المتوافرة، إنّها بدأت تظهر في التاريخ مطلع القرن السادس قبل الميلاد، أي في الزمن الذي كانت خلاله عاصمة إفريقيا الشمالية الغربية قرطاجة تبسط سيطرتها على أكبر قسم من الحوض الغربي للمتوسّط. أمّا اسمها فهو استنباط من قِبَل البحّاثة الذين أشرفوا على حفرياتها منذ سنة ١٩٦٠ أي بعد ثماني سنوات من اكتشاف الموقع الأثري.

كركوان، منظر جوي من الشرق، القرن السادس ق.م.

٢. لم تكن في زمنها من المدن المهمّة، إذ ليس هنالك ذكر لوجودها في أيّ من الكتابات التاريخية المعاصرة لذلك الزمن، ولم تُظهِر الآثار المكتشفة فيها أو في غيرها من المدن البونية حتى الآن إشارة إلى اسمها أو معطيات يمكن من خلالها تقدير هذا الإسم؛ ممّا اضطرّ الأثريون وعلى رأسهم الفرنسي شارل صومانيه Charles Saumagne مدير حملة الحفر الأولى إلى ابتكار هذا الإسم الذي تعرف به الآن. ومنذ ستّينات القرن الماضي أشرف على الحفر والكتابة عنها عالمان تونسيان هما عمّار محجوبي ومحمّد حسين فنتر، وللأخير كتاب مفيد يشرح ما أنجز من مكتشفات.

كركوان، منظر جوي من الغرب، القرن السادس ق.م.

٣. ما اكتشف منها حتى الآن يؤكد تواجدها مطلع القرن السادس قبل الميلاد، ويرجّح تعرّضها لدمار نسبي على يد أجاتوكليس Agathocle اليوناني ملك سرغوسا Syracuse الحاضرة اليونانية المتواجدة على الأرض الإيطالية في جزيرة صقلية منذ أواسط القرن الثامن قبل الميلاد. حدث هذا الدمار حوالي سنة ٣١٠ ق.م. ويبدو أنّها استعادت عافيتها سريعاً لتعود وتدمَّر كلياً حوالي سنة ٢٦٠ ق.م. على يد القنصل الروماني رجولوس Regulus. نامت تحت الأرض حتى سنة ١٩٨٢ ميلادية عندما، وكما يحدث في كثير من مواقع الاستيطان القديم المطمور، اكتشفت صدفة معالم مستوطنة ما لبثت أن بانت للعيان، كنز ثمين بما له علاقة بسلامة البقايا من زمن محدَّد ومحصور بالزمان والمكان.

كركوان، مجسم، منظر جوي من الجنوب شرق.

٤. و يبدو أنّ سكانهـا، المقدَّر عددهم بحوالي الألفين، شكّلوا مجتمعاً نموذجياً خاصاً بمجتمعات المدن البحرية. فرغم خصب الأرض الريفية المحيطة بالمدينة، فإنّه من الواضح أنّ الصنـع الحرفية المتمحورة حول البيئة البحرية شكّلت عصـب الحيـاة الاقتصادية فيها: فما وجـود كمية كبيرة مـن صدف المُرَّيق Murex حـول المدينة سوى دليل يؤكّد وجود صناعة صباغ الأرجوان الشهيرة المتوارثة من تقاليد مهنية وتقنيات تفرّدت بها مدن الشاطىء الكنعاني كصور وصيـدا وجبيل منذ قـرون عدّة. لقىً عديـدة أخرى تؤكّد تمحور الإنتاج حول المجال البحري وما تقتضيه الصناعة المرتبطـة الوفـيرة مـن أمتعة وعـدّة ووسائـل للتصريف وللتجـارة. ولقد أتى التنظيـم المديني متوافقاً مع حاجات الجماعـة: فالشوارع عريضة وأكثريتها مستقيم، والشارع المنحنـي المتـوازي مع جبهة البحـر لا تعرّج فيـه، ينساب أنيقـاً عريضاً وينفتح عند وسطه على ساحة واسعة تشكّل قلـب الحـيّ النابض. لكنّ الملفـت في الموضـوع هو غياب وجـود ميناء لهذه المدينة البحريـة الصغيرة ذات التسعة هكتارات والمنظّمة تنظيمـاً مدينياً واضحاً، عالي الجودة الوظيفية مؤمّناً حياةً سهلـة ورغيدة لمواطنيها. يؤكّد هذا التنظيم المتقدِّم راهنية إن لم نقل أسبقية الفكر والإنجاز القرطاجـي (البـوني)، في هـذا المضمار، علـى غيره من ثقافات حوض البحر المتوسّط.

٥. إنّ الهيكلـة الجيّدة للنسيج المدينـي، حيث تنتظم الأحياء نسبـةً لوظائفهـا وفي الحيّز المناسب لهـا، وحيث الوضوح شبه التام في وظائف الأبنية من سكن وعمل وعبادة، يجعل الاختيـار بـين العناصر المـراد إظهارها في هـذا العرض صعبـة. سأعتمد إذن في هـذا الاختيار عنصر الفرادة في الانتقـاء وأضيء على أربعة عناصر أجدهـا أهلاً للتوقّف عندها: يأتـي في المرتبة الأولى تجهيز أكثر البيوت بحمّام فريد يحـوي مغطساً للاستحمام مبنيّ مـع البناء وبنفس المـواد، مورّق بطِين أحمـر يتآلف ببهاء مـع اللون الأبيض المصفـرّ الطاغي على مساحـات الجـدران المورّقة بطِين من اللـون نفسه. بعض البيوت الفخمـة تحوي على حمّام بمغطس مزدوج يسمح لشخصين بالاستحمام سوية. تغذي هـذه التجهيزات شبكة مـن الأنابيـب الفخّارية المطمورة توصل المياه النظيفة إلى كلّ مبنى في المدينة، وشبكة أخرى للصرف الصحّي مطمـورة مجاريها الحجرية والفخارية على جوانـب الشوارع والساحات. حمّامـات بعض البيوت

كركوان، مجسم، منظر جوي من الشمال غرب.

كركوان، مساكن متلاصقة ضمن جزر النسيج المديني.

كركوان، مجسم، جزر وساحات عامة.

الفخمة مجهّزة بشبكة ثانية داخلية، تشير الحفريّات إلى أنّها للمياه الساخنة. قرب المعبد، وعلى الشارع العام (المسمّى شارع الصنّاع)، يوجد مدخل الحمّامات العامة، الصغيرة الحجم والعالية الجودة الوظيفية: يشير تواضع حجمها من جهة وانتشار الحمّامات المنزلية من جهة أخرى إلى حقيقتين إجتماعيتين، تفيد الأولى أنّ الكنعانيين البونيين كما القرطاجيين يفضّلون الاستحمام في منازلهم عكس الرومان، وتفيد الثانية أنّ السلطات العامة تعير الطبقات الفقيرة والكادحة أهمّية كبيرة لتبني لها حمّامات عامة مجهّزة تجهيزاً جيّداً. ومن الواضح إذن أنّ السلامة الصحيّة للمواطنين تقع في صلب إهتمام هذا الشعب وتعني أيضاً أنّ هذا الأمر يقع في صلب مسؤولية السلطات العامة في المدينة. تشكّل شبكات التغذية بالمياه الجارية كما شبكات الصرف الصحّي العنصر الثاني الملفت للنظر في كركوان.

أمّا العنصر الثالث فهو غياب الميناء من جهة، والتجهيزات البحرية المتواجدة في الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة من جهة أخرى، والتي يبدو أنّها شكّلت الاستعاضة العملية عن المرفأ بالنسبة لبعض الوظائف الضرورية للمواصلات البحرية. شكّل غياب المرفأ لغزاً للبحّاثة المهتمّين بتاريخ المدينة، ذلك أنّ إمكانية الرسو في جون طبيعي أو شرم صغير هي من الشروط الأساسية لاختيار موقع الاستيطان عند الفينيقيين وبالتالي عند البونيين القرطاجيين. وبما أنّ شكل الموقع الطبيعي لكركوان يتناقض مع هذه المعطيات، برزت التساؤلات حول الموضوع. قدّر بعضهم أنّ الشاطىء المجاور يؤمّن بعض التضاريس البحرية التي تسمح باستعمالها للرسوّ الوقتي أيّام الطقس الهادىء، ممّا يسمح بتحميل وبتفريغ البضائع لتجارة قد يكون مركزها الأساسي مرافىء المدن القرطاجية المهمّة. ويُفهَم عندها تواجد التجهيزات المُشار إليها. تتألف هذه التجهيزات من قسمين مترابطين، الأول هو طريقٌ ينحدر من مستوى الشارع المستقيم الموازي للسور الجنوبي إلى مستوى البحر، حيث يلتقي مع "الباطوس" أي الصخر الأفقي الذي يشكّل حدود الشاطىء مع البحر ذي العمق المحترم الذي يسمح لزوارق الحمولة بالاقتراب والتحميل أو التفريغ. جنوب المنحدر وعند الوصول إلى مستوى الشارع المستقيم بُنِيَ عنبرٌ طويل يتّسع لزورقين، مفتوحٌ بكامل عرضه على البحر؛ ممّا يشير إلى الوظيفة المحدودة جداً لهذه "البحرية" المتواضعة. لكنّ الملفت هو البوّابة المحصَّنة التي

كركوان، فرن فخار صغير.

كركوان، مجسم، جزر سكنية، بوابة الغروب آخر الشارع، المعبد على زاوية الشارع قبل البوابة.

كركوان، مغطس في حمام منزلي.

يلتقي عندها السور الجنوبي وسور البحر الشرقي. فهي مدروسة بدقّة ومعرفة واسعة بفنون التحصينات. وكذلك الأمر بالنسبة للبوّابة التي يبدأ عندها من الغرب الشارع المستقيم الموازٍ للسور الجنوبي، فهي لا تقلّ أهمية عن الأولى، بل تفوقها في بعض التفاصيل المعمارية الدفاعية. وعندما نعلم أنّ الشارع المستقيم المُشار إليه، هو شارع الصناعيين والتجّار، تنتشر شماله مستودعات السلع ومحترفات الصنّاع، ندرك الأهمية البالغة لهذا القسم من المدينة حيث مراكز الإنتاج والتسويق.

يشكّل السور العنصر الرابع المهمّ في تركيب المدينة. يتألف هذا السور من جدارين يفصل بينهما ممرٌ يسمح بانتقال المقاتلين والعتاد من نقطةٍ إلى أخرى بسهولة وبسرعة لا تعرقلها حركة الحياة في الشوارع. يدعم السور من مسافة إلى أخرى أبراجٌ دفاعية، غالباً ما تكون مربعة المسطّح، تشكّل نقاط تهديد للمهاجمين على امتداد السور، إذ أنّها تتقدّم بكامل سماكتها عن صف الأسوار المرصوفة وتعلوها بمقدارٍ يكفي للسيطرة عليها على كامل المسافة الفاصلة بين برجَين. بعضٌ من بقايا الأدراج الملتصقة بالجدران تُستعمَل للوصول إلى أعلى الأسوار حيث طريق الحراسة ينساب من أوّلها إلى آخرها وراء المرمايات التي تطرِّز أعلاها.

أشرقت الشمس على مدينة جبيل، على الشاطىء الكنعاني-الفينيقي شرق المتوسّط في ساعة من ساعات صباح يوم من أيّام الربيع... أشرقت من وراء الجبال المحيطة بالمدينةً كما يعانق العقد جيد إحدى جميلات الأرض... يمتدّ البحر غرب المدينة حتى الأفق، ومنه وبخطٍّ مستقيم على ألفين وأربعماية كيلومتراً ترتاح موجاته الناعمة على شاطىءٍ مستقيم، تغسل الرصيف البحري الحامل السهيل الدافىء الذي بلون الذهب، حيث تستقرّ مدينة كركوان الصغيرة بحجمها والكبيرة جداً بدلالاتها التاريخية والاجتماعية والعمرانية الممتدّة بالزمن إلى قرونٍ عدّة.

يتعبَ الأثريون وبحّاثة التاريخ في اكتشاف مدننا وبلداتنا وقُرانا المطمورة في بلداننا منذ آلاف السنين، يساعدهم في الرفع وفي التوثيق تقنيون في فنّ الرفع والرسم وبعض المعماريين، الذين تقتصر إسهاماتهم في أكثر الأحيان على استعراض الموجود وتوثيقه. لكنّ المطلوب في الموضوع هو دراسة عمارة المكان والناس والتنظيم المديني لمستقرّاتهم، وهي تزخر بالأمثولات الثمينة المفيدة في جميع مضامير الحياة. فأين المعماريون من كل ذلك؟

كركوان، مغطس مزدوج في حمام منزلي.

كركوان، قناة تصريف مياه مكشوفة.

كركوان، مجسم، بوابة البحر، منحدر الزوارق، العنابر.

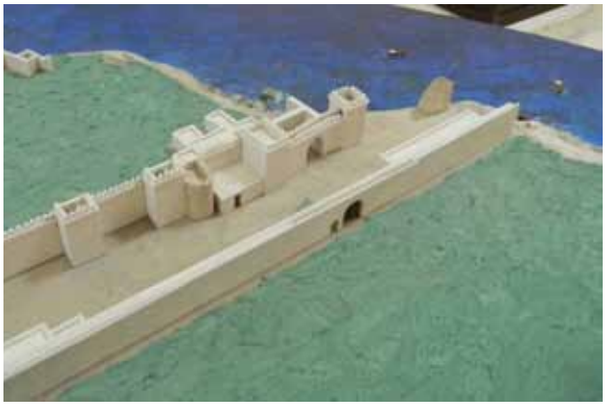
كركوان، مجسم، تحصينات بوابة البحر.

كركوان، بقايا تحصينات بوابة البحر.

كركوان، عنبر الزوارق.

كركوان، منحدر الزوارق، عند الباطوس.

كركوان، مجسم، بوابة الغروب.

كركوان، بوابة الغروب.

كركوان، السور الغربي، البرج الشمالي.

كركوان، السور الغربي، البرج الشمالي المتقدم عن خط السور.

التماثل العمراني للاستيطان الكنعاني من بيروت الى كركوان

المعمار حبيب ابراهيم صادق
استاذ العمارة في الجامعة اللبنانية

هـذه المقالة بمناسبـة ورشة العمل الثانية حـول: تعليم العمارة في الوطـن العربي (٦-٧ كانـون الاول ٢٠١٣) تونس. حيث قام الوفـد اللبنـاني بزيارة الموقـع الأثري الفينيقـي كركوان بمعية رئيس هيئة المعماريين العرب الاستاذ اميل العكرة.

مقدمة

تزدحم الافكـار في تحليل وفهم التاريخ الكنعـاني الذي يكتنفه الغموض وكـثرة ألغازه، رغـم العديد مـن الاشـارات الكثيرة اليهـم في نصوص وآثار الحضارات القديمـة، كبحارين وتجار نشيطين. فالكنعانيون تسمية اطلقها عليهم المؤرخون في المرحلة التي سبقت الالفية الاولى ق. م.، أما اليونان فقد اطلقوا عليهم اسم phoinikes (الفنيقيين)، وهذه المقالة لا تتوخى الحديث عـن التاريخ والابحاث الأثرية المتعلقـة بالكنعانيين، فهي تسعى الى تسليـط الضـوء على الحاصـل العمراني المحقـق بالتناظر العمـراني بين بيروت الكنعانية وكركـوان البونية من خلال اثار الموقعين.

التنوع والتشكل الحضاري في السياق التاريخي الكنعاني

شكلت الألفية الثالثـة ق.م.، تاريخ سجّل بدء ازدهار الحضارة الكنعانيـة والتي عرفـت لاحقاً بالحضـارة الفينيقية ، وموقعها مـا يعرف اليـوم بالمنطقة الساحليـة المؤلفة من لبنـان وسوريا وفلسطين. وبرز هذا الشعب كقـوة حضارية وسياسية نحو عام ١١٠٠ ق.م.، عقب فترة من الفوضى والانهيار الاجتماعي التي سادت أرجاء المنطقة في ذلك الوقت.

ومنـذ القرن التاسـع وحتى القرن السادس قبـل الميلاد، هيمن الفينيقيـون علـى بلـدان البحـر المتوسـط، مؤسسـين مراكـز تجاريـة ومستعمـرات، بـدءاً مـن قبرص في الشـرق، مـروراً ببحر إيجه وإيطاليـا وشمـال إفريقيـا، وصولاً الى إسبانيـا في الغـرب. استـوردوا المعـادن الثمينة وتاجـروا بها، كمـا صنعوا منتجـات كالنبيـذ وزيت الزيتـون، والأخشـاب المستخرجة من شجر الأرز.

تميـزت حركـة التوسـع الفينيقـي بأساليبهـا وطرائقهـا عـن جميـع الطرائـق التاريخيـة المألوفة لدى الحضـارات الاخرى. فالفينيقيـون لم يتخذوا الحـرب والفتح وسيلـة للاستفادة من خـيرات البلاد الأخـرى، بل كانت لهم فلسفـة خاصة يتعاملون

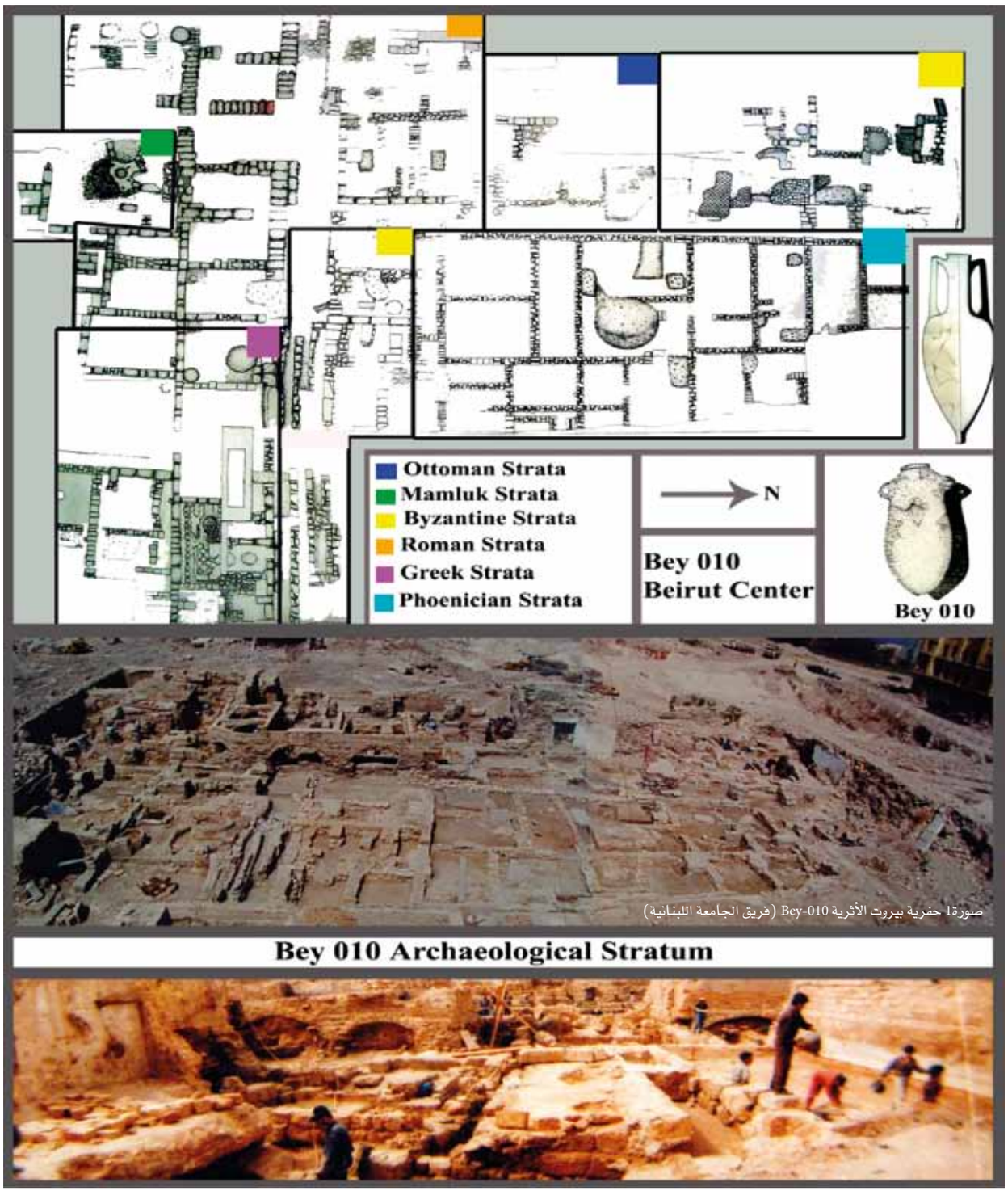

صورة1 حفرية بيروت الأثرية Bey-010 (فريق الجامعة اللبنانية)

بهـا مع الآخرين، تختلف كل الاختلاف عن فلسفة الغزو والسيطرة بالقوة التي ميزت الحضارات الاخرى. ونجد أن توسع استيطانهم لسواحـل المتوسط، والأطلسي الشرقية كـان انتشاراً تجارياً ثقافياً تعاونيـاً، وليس غزو حروب ونهب لبلاد وثـروات الشعوب الاخرى. اما الجيوش والشعوب التي سيطرت لاحقاً على الفينيقيين فهي إمّا دمّرت مدنهم أو بنت فوقها، ويظهر ذلك جلياً من خلال الحفريات الأثرية فيمدينة بيروت (صورة-١-). وكتاباتهم المدوّنة غالباً على ورق البردى الهش اهترأت، بحيث بتنا نتعرّف على الفينيقيين، من خلال ما كتبه الآخرون عنهم.

عـام ٨١٤ ق.م.، ساهمـت مدينـة صـور في تأسيس قرطاج التـي أضحـت بعد نحو ٣٠٠ سنة قوة هائلة عقب حصار البابليين لمدينة صـور الذي دام ١٣ عامـاً، مستنزفاً مواردها كلها. وعلى أثر ذلك،

هيمنت قرطاج على غرب المتوسط وطوّرت تدريجاً حضارتها الخاصة المعروفة لدى الرومان بالحضارة البونية Punic. في القرن الثالث ق.م.، ومع نشوء روما كنفوذ في وسط المتوسط، تصارعت وقرطاج في سلسلة معارك عرفت بالحروب البونية. وقبل أن يوشك القائد القرطاجي هنيبعل على غزو روما، هُزم عام ٢٠٢ ق.م. قرب قرطاج التي أحرقتها روما عام ١٤٦ ق.م.، مدمّرة بذلك آخر أهم المدن الفينيقية.

تميز الفنيقيون بانهم شعب مساوم خلال احتلال الاخرين لمدنهم وفي توسعهم، كانوا يتبعون عدة طرائق في توسعهم وانتشارهم في بلاد البحر المتوسط. فهم كانوا تجاراً وناقلي حضارة أحياناً، ومهاجرين للاستيطان وانشاء بلاد جديدة. واقتصرت منشآتهم على مدن تجارية ومرافئ،

وشكلت مدنهم على الساحل الشرقي للمتوسط بوابة دخل منها المصريون واليونان الى آسيا، ونافذة اطلت منها الممالك الاشورية والبابلية والفارسية على البحر المتوسط. كان مركز القوة في تلك الحقبة يكمن في دولة المدينة، وقد سعت المدن التي كانت تتمتع بمجموعة قوانين وامتيازات واسعة النطاق ووضع سياسي مميز، إلى تعزيز سلطتها عبر معاهدات تضمن لها التجارة داخل المنطقة وخارجها.

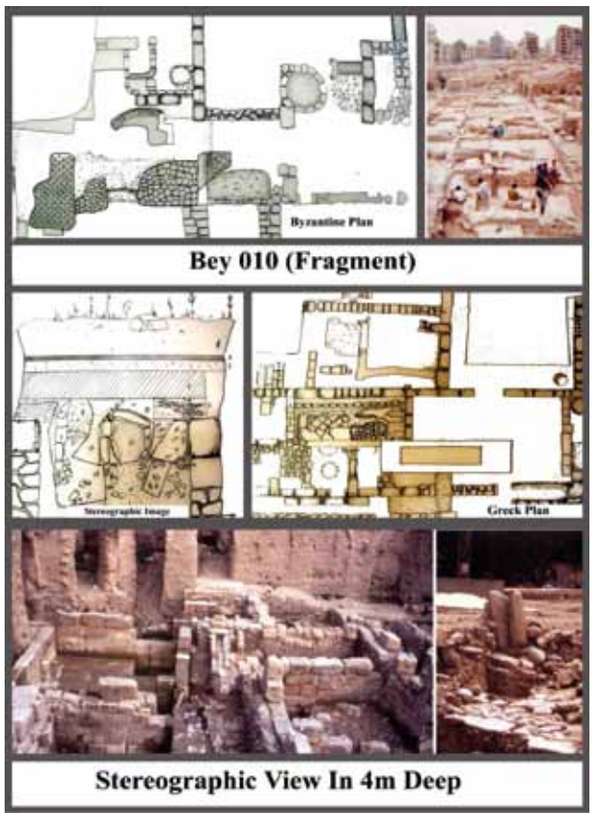

صورة 2 الطبقات الأثرية للحفرية Bey-10

التماثل العمراني بين بيروت وكركوان

أظهرت حفرية بيروت الأثرية في الموقع Bey-10 اثاراً فينيقية تعود الى ٨٠٠ ق.م. في فترة الاحتلال الفارسي، حيث تم الكشف على آثار اساسات ابنية لمنطقة تجارية محاذية للمرفأ الفينيقي، تراكم عليها طبقات اثرية يونانية ورومانية وبيزنطية واسلامية وعثمانية (صورة-٢-)

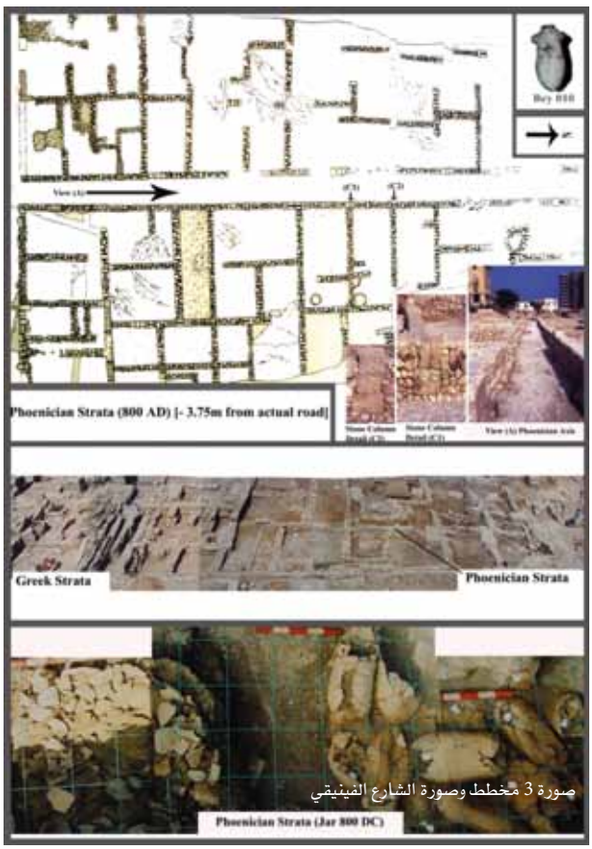

صورة 3 مخطط وصورة الشارع الفينيقي

وتميزت الطبقة الفنيقية بشارع عرضه حوالي ٢,٤٠ م. من الشمال الى الجنوب تتوزع بشكل متلاسق على جانبيه وحدات تجارية (صورة-٣-)

يمثل موقع كركوان محطة بونية هامة على الساحل التونسي جعلها تأخذ مكانة هامة بعد أوتيكا وقرطاجة. في غياب المعطيات التاريخية وبالاعتماد على اللقى الأثرية والعمرانية والجنائزية لمدينة كركوان حيث استنتج العديد من المؤرخين المعاصرين ان المدينة أسست في القرن السادس ق.م. (صورة-٤-)

يمثل موقع كركوان الاثري مثالا هندسيا وعمرانيا فريدا، حيث الشوارع المستقيمة تتعامد لتشكل مربعات ومساحات مخصصة للأبنية. وتتخلل هذا النسيج العمراني العديد من الساحات هيئت لتستجيب للحياة الاقتصادية والاجتماعية للسكان كما كشفت البحوث الاثرية الحديثة على حزام يسيج المدينة تتخلله بوابات وأبراج.

صورة 4 مخطط عام للحفرية الأثرية لمدينة كركوان (المعهد الوطني للتراث)

اما النسيج السكني للمدينة، فيتكون من مجموعة من الاحياء الفسيحة تتخللها البيوت المتنوعة من حيث اشكالها وأحجامها، واكثرها تلك التي تتمحور حول فناء بسيط فيه غرفة للاستحمام وتتكون من معبر صغير يقوم كحجرة ثياب ومن حوض مستطيل الشكل فيه مقعد للمستحم، فوجود هذه الغرفة يشير الى رفاه المسكن، وكذلك الغرف الاخرى المخصصة للنوم واعداد الطعام، وتتميز البيوت بأنظمة تجميع مياه الامطار وكذلك اقنية تصريف المياه المبتذلة (صورة-٥ و٦ و٧).

«كما كشفت الحفريات الاثرية على معبد يعتبر من اشهر المعابد البونية في غربي البحر الابيض المتوسط. فمن حيث تصميمه تراه مطابقا للنموذج السامي بمدخله ذي العمودين الامامين وسقيفته والصحن وفيه ترى المذبح والناووس المخصص للصور المقدسة، وله لواحق تفضي مباشرة للصحن ومن مميزاته ورشة اقاموها لصناعة الايقونات الفخارية» (المعهد الوطني للتراث).

والمدينة مجهزة بميناء بقيت منه بعض الأجزاء. ويكشف الموقع عن مظاهر عديدة للحياة اليومية والأنشطة الاقتصادية والتجارية للمدينة وحياتها الروحية من خلال القطع والمجموعات التي عثر عليها خلال الحفريات والموجودة في متحف الموقع. (صور-٨ و٩ و١٠)

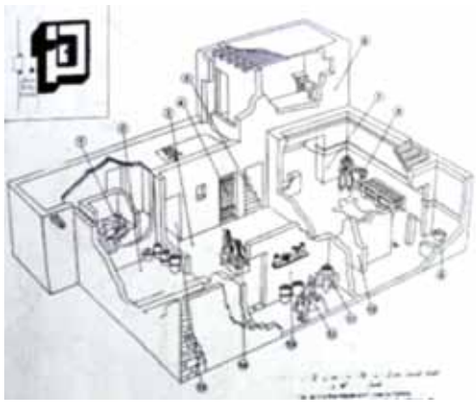

صورة 5 اعادة بناء منظورية لمنزل (موقع الحفرية)

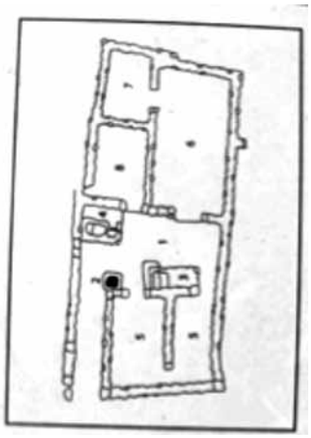

صورة 6 منزل يتوسطه فناء (موقع الحفرية)

صورة 7 حوض الاستحمام (موقع الحفرية)

صورة 8 مجسم لاعادة بناء للموقع (متحف حفرية كركوان)

صورة 9 مشهد عام لحفرية كركوان

Bey 010 Site Conservation

Bey 010 - Phoenician Strata Conservation

صورة 10 مشهد عام لحفرية Bey-10 بيروت

الخلاصة

تظهر الحفريات في بيروت وكركوان التماثل في اسس التخطيط المبني على التصور المسبق لعمران المدينة، التوزيع الوظيفي للأحياء بين سكن وحرف وسوق ومرفأ ومساحات عامة ومنطقة المعبد، التخطيط مبني على شبكة من الطرق المتعامدة والتي تشكل المربعات المخصصة للبناء، تشير الدلائل الى الحرص على رفاه المسكن، كما وتجهيز الموقع بشبكة تصريف للمياه المبتذلة، كما تظهر تقنيات البناء ومواده الى تصنيع حرفي مسبق لبعض العناصر المستعملة في البناء.

في الختام من المهم الاشارة الى النقص الكبير الحاصل في الدراسات المتخصصة المعمارية المتعلقة بالعمارة الكنعانية الفنيقية ولا يسعنا في مناسبة هذا المقال الا الدعوة للاهتمام بهذا النوع من الدراسات من قبل الافراد والمؤسسات وبشكل خاص هيئة المعماريين العرب.